رجب البنا

رحلة إلى الصين

دار المعارف

رجب البنا

رحلة إلى الصين



دار المعارف

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ شارع كورنيش النيل — القاهرة — ج . م . ع .

إهداء

إلى ابنتى أمانى

التى رافقتنى فى هذه الرحلة

فأسعدتنى .. وساعدتنى

مقدمة

هذا الكتاب محاولة للتعرف على الصين، واكتشاف بعض ما جرى وما يجرى فيها من تغيرات تبدو فى عيون زوارها أقرب إلى المعجزات وفى عيون آخرين تبدو ثورة حضارية واقتصادية وتجربة مبهرة فى التنمية وبناء الإنسان.

والصين الآن توصف فى كتابات الرحالة والمراقبين بأنها بلد تحدى المستحيل.. بلد الأرقام الضخمة.. التنين الأصفر.. العملاق الأسيوى القادم الذى يتسلل بخطوات هادئة واثقة ليتخذ مكانا فى المقدمة بين دول العالم الكبرى.

ومثل هذه الأوصاف إنما تعكس الدهشة والانبهار، لأن التاريخ الحديث لا يعرف دولة أخرى انتقلت فى عشرين عاما فقط من دولة نامية من دول العالم الثالث إلى دولة تنافس الدول الكبرى فى العالم الأول.. دون أن تفقد توازنها أو تواضعها.. وما زالت تخفى من عوامل قوتها أكثر مما تظهر.

والدهشة هى الشعور الطبيعى لكل من يزور الصين الآن خصوصا إذا كان قد زارها قبل ذلك بثلاثين أو عشرين أو حتى خمسة أعوام.. فقد بدأت نهضتها من نقطة الصفر، وتعداد شعبها ٨٠٠ مليون نسمة، والأمية منتشرة بنسبة تزيد على ٩٠٪ ومثل هذه النسبة من شعبها تحت خط الفقر. وعند خط الفقر.. والزراعة بدائية.. والصناعة تعتمد على إدارة وتكنولوجيا قديمة.. وعندما تحركت للخلاص من آثار قرون من الاستعمار والتخلف مع ثورة ماوتسى تونج عام ١٩٤٩ عاشت محاصرة تقريبا، ووضع الغرب أمامها العقبات، ونتيجة لرواسب القرون من الاحتلال والاستغلال كانت هى أيضا تشعر بالخوف على ثورتها وحلمها فأغلقت

أبوابها تقريبا، وبدأت مسيرة عمل وتضحية جماعية لبناء كل شيء.. وظلت سنوات تعمل بهدوء.. وصبر.. وبعيدا عن العيون.. ولكنها تعرضت لانتكاسة خطيرة فى سنوات الثورة الثقافية التى قادتها زوجة ماوتسى تونج وعصابة الأربعة، واستمرت هذه الانتكاسة عشر سنوات كاملة، تحولت فيها البلاد إلى فوضى شاملة، وتوقف كل شىء تحت شعار الحفاظ على مبادئ الثورة من أعدائها.. وبعد أن انتهت هذه الفترة المظلمة عادت الصين مرة أخرى تواصل مسيرتها بفكر جديد، وروح جديدة، وقيادة جديدة.

وكان هذا الفكر الجديد مواكبا للمرحلة التى قادها دنج شياو بينج ورفع فيها شعار (الإصلاح والانفتاح على العالم). وإذا كانت الصين قد استغرقت أكثر من نصف قرن لوضع حد لحالة الفقر والتخلف وتغيير صورة الحياة العقيمة للصين القديمة، فقد أنشأت فى عشرين عاما فقط نظاما صناعيا حديثا، وزاد الإنتاج الوطنى الإجمالى ٥٦ ضعفا، ووصلت إلى درجة القوة فى الاقتصاد، والعلوم، والتكنولوجيا، ووصل تعدادها اليوم إلى ١٢٥٠ مليون نسمة، ومع هذا العدد الضخم من البشر لم تعد فيها مشكلة الغذاء أو الكساء، بل حققت تحسنا ملحوظا فى مستوى المعيشة تبدو آثاره واضحة من النظرة الأولى فى المدن والريف لكل زائر.

وكانت رحلتى لمعرفة كيف استطاعت الصين أن تحقق هذه النهضة فى عقدين من الزمان فقط نجحت خلالهما فى جذب الاستثمارات، وبناء قاعدة صناعية وتكنولوجية لا تقل عن مثيلاتها فى دول أوربا، ونجحت فى غزو أسواق العالم بمنتجاتها الرخيصة الجيدة، وانتقلت من العالم القديم المتمركز حول الأطلسى إلى عالم آخر من النمو حول الباسفيكى، واحتلت مكان القلب فى التحول الأسيوى، واستطاعت صياغة علاقاتها التجارية والسياسية مع الولايات المتحدة بالذات صياغة فريدة.. فيها الخلاف وفيها الاتفاق.. فيها الصراع والتعاون.. وفيها التحدى وتفادى الصدام.. ونجحت فى

حل هذه المعادلات الصعبة كما نجحت فى الحفاظ على حالة الاستقرار التى تمكنها من المضى فى التغيير والتحديث.

الصين الآن كما يراها المراقبون تمثل لعالم الصناعة النهم الذى لا يشبع أبدا ما كان يمثله العالم الجديد بالنسبة لأوربا منذ قرون أرضا جديدة شاسعة.. فيها قدرات هائلة.. وعوامل نمو.. وفرصا للربح الوفير.. ويمكن أن تصبح بعد سنوات نقطة ارتكاز المنافسة العالمية. والدليل على ذلك أن فائض تجارتها مع الولايات المتحدة يتزايد عاما بعد عام ويوشك أن يصل إلى مستويات سياسية خطيرة، ولذلك يتوقع بعض الباحثين أن الصين والولايات المتحدة ستصبحان القوتين العظميين، وستكون لهما أهداف مختلفة.. ويتحدث بعض الباحثين أيضا فى الولايات المتحدة عن (الخطر الصينى) ويقولون إن على الأمريكيين أن يستعدوا لمواجهة واحتواء هذا الخطر. ودليلهم على ذلك أن حجم التجارة بين الصين والولايات المتحدة يزيد على ألف مليار دولار سنويا، والعجز فى الميزان التجارى بينهما لصالح الصين يبلغ ستين مليار دولار سنويا.

والصين تعيش فى وسط دول آسيا التى تعرضت لأزمات اقتصادية، وقد استطاعت أن تحمى نفسها من الوقوع فى أية أزمة، ولم تضطر إلى تخفيض عملتها كما فعلت دول شرق آسيا، لأن العملة الصينية ليست مرتبطة بأى عملة أجنبية، وليست قابلة للتحويل حتى الآن إلا وفق قواعد وشروط، وبالتالى لا تستطيع أية قوة أجنبية التلاعب بسعر العملة، فهى فى مأمن من تأثير الضغوط الخارجية على اقتصادها وعملتها، وهذا هو السر فى قدرتها على النجاة فيما وقعت فيه دول مثل أندونيسيا أو ماليزيا أو حتى اليابان.

ويتفق كل من كتب عن الصين على أن الميزات الكبرى فى الصين كثيرة منها أن تكلفة العمالة منخفضة جدا، وأن مهارة ودقة العامل الصينى طوال الوقت دون كلل أو محاولة للتهرب أو التمارض والتزامه بالعمل

صفات ليس لها مثيل فى أية دولة أخرى. وهذا ما يجعل الصادرات الصينية قادرة على الوقوف بقوة فى المنافسة فى الأسواق العالمية مع الدول الكبرى.

وكانت هجمات الغرب على الصين تأتيها من نقطتين.. الأولى أنها آخر قلعة للشيوعية وملكية الدولة لوسائل الإنتاج والتخطيط المركزى للاقتصاد فى عالم يسود فيه الاقتصاد الحر أو اقتصاد السوق.. والثانية هى الديمقراطية وحقوق الإنسان وسيطرة الحزب الواحد.. ولكن انهيار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩٨ كان دليلا على أن الإسراع فى تغيير نظام الملكية، وفتح الأبواب للديمقراطية عشوائيا دون إعداد المجتمع إعدادا كافيا يمكن أن يؤدى إلى تفكك المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا.. وأن سياسة التدرج فى تطبيق اقتصاد السوق والديمقراطية هو الذى يناسب دولة كالصين كبيرة الحجم وسكانها ١٢٠٠ مليون نسمة، وفيها ٥٥ قومية، ولابد لها أن تضمن أن يكون التغيير آمنا وتظل وحدة البلاد قائمة ولا يحدث فيها ما حدث فى الاتحاد السوفيتى من تفكك.

لم تنخدع الصين بالسراب الذى انخدع به الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩٧ وكان بمثابة قطعة الجبن التى جذبت الفأر إلى المصيدة، حين شهد الاتحاد السوفيتى فى ذلك العام تدفق الاستثمارات الأجنبية، وارتفعت قيمة الأسهم مع الخصخصة المتعجلة، ولكن هذه الفورة كانت قصيرة الأجل أثرى من ورائها عدد محدود من ذوى الحظوة، ثم انتهى الأمر إلى الدمار والخراب وتحول الاتحاد السوفيتى إلى دول متعددة، وعانت روسيا لسنوات أزمة اقتصادية وصلت إلى حد العجز عن دفع مرتبات الموظفين وأفراد الجيش.. وما زالت روسيا حتى الآن تصارع للبقاء واستعادة نفوذها.. وكان ذلك درسا أكد للصين صواب نظريتها عن التحول من التخطيط الشامل وملكية الدولة لجميع وسائل الإنتاج إلى (اقتصاد السوق الاشتراكى) وهى نظرية

ابتدعتها الصين، ملخصها التحول إلى اقتصاد السوق مع الاحتفاظ بالتخطيط الشامل والدور المركزى للدولة والسير خطوة خطوة، وعدم الانتقال إلى الخطوة التالية إلا بعد التأكد من إتمام الخطوة الأولى بنجاح.. سياسة التدرج هى سياسية الإصلاح الاقتصادى والسياسى القائمة منذ عشرين عاما وتؤكد النتائج نجاحها.

وتفتح الصين أبوابها للاستثمارات الأجنبية، ولكنها تؤمن بأن الأجانب لا يملكون معجزة تحقيق النمو والتحديث، ولا يهمهم ذلك كثيرا، وعلى الصين وشعبها أن يجدوا بأنفسهم طريقهم الخاص بهم، ويعتمدوا على أنفسهم أولا، وكل نجاح يتحقق بجهودهم سيكون قوة جذب للأجانب ليأتوا للاستثمار بشروط الصين وليس بشروط الأجانب وهذا ما يجعل الصين قادرة – مثلا – على وضع قيود على الصادرات الأمريكية فى مجالات معينة مثل توليد الطاقة، والصناعات الدوائية، والآلات، والاتصالات عن بعد.. وقادرة على اتخاذ مواقف مستقلة فى القضايا الدولية، ولا تتحول – مثل غيرها من الدول الأسيوية – إلى دولة تابعة.

ولقد زرت الصين لأول مرة عام ١٩٩٥ وأثار دهشتى ما تحقق فيها من تنمية وتقدم اقتصادى، ورأيت صورة الصين وشعبها مختلفة عما قرأته عنها فى عصورها القديمة والحديثة على حد سواء، ولكن رحلتى الثانية فى أواخر عام ٢٠٠٠ كانت شيئا آخر.. وجدت طفرات ومعجزات حدثت خلال السنوات القليلة الماضية فى كل مكان ذهبت إليه.. ليس فقط بإنشاء مدن حديثة فى سنوات قليلة فيها ناطحات سحاب تنافس المدن الأمريكية الكبرى مثل نيويورك وسان فرانسيسكو، أو فى وجود مصانع الصواريخ والأقمار الصناعية وأقمار التجسس والإلكترونيات والألياف الضوئية وأجهزة الليزر وشبكات الانترنت والتليفون المحمول وغيرها من المنتجات التكنولوجية المتقدمة.. ولكن وجدت الصين متفتحة لأفكار جديدة تتم مناقشتها علانية

وبحرية، ووجدت روحا جديدة من عدم الاكتفاء بما تحقق والرغبة فى تحسين الأوضاع القائمة، ولأول مرة لا أسمع العبارات المحفوظة من أقوال الزعماء ولكن أسمع النقد لكل شىء، والإرادة لتحقيق ما هو أكثر، والإصرار على أن الصين ما زالت دولة نامية، ومستوى معيشتها ما زال منخفضا، وتحتاج إلى فترة طويلة لتحديث كل شىء فيها.

وجدت الصين وقد خرجت نهائيا عن عزلتها وانفتحت على العالم، وبدأت تظهر فى الصحف مقالات تتناول السلبيات وتطالب بالإصلاح هنا وهناك، ومع الانفراج فى الإعلام انتشر (الانترنت).. وأهم من ذلك أن قادة الصين فتحوا مجالا واسعا للجدل والحوار عن المستقبل السياسى والاقتصادى وما هى أسلم الطرق للوصول إلى هذا المستقبل.. وكان من حظى أن أكون عضوا فى الوفد المصرى فى المؤتمر الدولى رفيع المستوى الذى عقد فى بكين لبحث مكان الصين فى القرن الحادى والعشرين وشارك فيه رؤساء حكومات سابقون ومفكرون وخبراء من أمريكا وروسيا واليابان وألمانيا واستراليا وبريطانيا وبقية دول العالم، وكان هذا المؤتمر دليلا على رغبة الصين فى الاستماع إلى (الآخر)، والتعرف على رؤية العالم لها فى الحاضر والمستقبل، والاستفادة بالرؤى والأفكار المعبرة عن المدارس الفكرية المختلفة فى العالم.

وعدت من هذه الرحلة وأنا مؤمن بأن الصين فعلا كما يقال عنها (مختلفة).. مختلفة فى اقتصادها ونظامها السياسى، ومفهومها للديمقراطية، وهذا الاختلاف نابع من أوضاع الجغرافيا السياسية أولا، ومن الميراث التاريخى الثقيل من الماضى الاستعمارى البعيد والقريب، ثانيا ومن ثقل حجمها السكانى، ثالثا وهى تنطلق إلى بناء ذاتها بوعى بظروفها وطبيعة تكوينها، ولا تتأثر بالضغوط الخارجية، ولا تعمل إلا ما يتفق مع هذه الطبيعة وهذه الظروف.

ولست فى حاجة لأن أكرر أن كل زائر للصين تواجهه صعوبة اللغة الصينية وضرورة اعتماده على مترجم، وكان من حظى أن صاحبنى اثنان

من جمعية التفاهم الدولى يجيدان اللغة العربية، كما كان معى فى معظم لقاءاتى وجولاتى السفير المصرى المتميز الدكتور نعمان جلال، الذى كان يستعد لمغادرة الصين بعد انتهاء فترة عمله فيها وقد ترك أثرا طيبا. وكذلك كان معى السيد محمد أبو الوفا السكرتير الثانى بالسفارة فى بكين والسيد ياسر هاشم القنصل المصرى فى شنغهاى، والسيد حامد صقر المستشار الإعلامى، والسيدة هالة عنارة مديرة مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط فى بكين، وقد لقيت منهم مساعدات كبيرة وأجد نفسى مدينا لهم بالشكر.

ولا أدعى أنى استطعت الإلمام بكل ما فى الصين، فهى عالم كبير وليس من السهل الإحاطة بكل شىء فيها إحاطة شاملة، مع تنوع الأصول العرقية، والقوميات، واللهجات، والديانات والثقافات. والاختلافات الجغرافية والسكانية.

ولا ينبغى أن نغفل ونحن نتحدث عن الصين أن مسيرتها ليست سهلة، فهى فى الحقيقة تسير فى حقول ألغام، وهناك تعارض مصالح بينها وبين بعض جيرانها من ناحية، وصراع مع الولايات المتحدة لا يخفى عن العيون وصل إلى ذروته فى معركة استعادة هونج كونج ومكاو ومازال الصراع فى الذروة من أجل استعادة الصين لجزيرة تايوان ضمن سياسة (توحيد الوطن) وإن كانوا لا يتحدثون عن ذلك الصراع كثيرا، والولايات المتحدة من جانبها لا تخفى أنها تعتبر الصين العدو المحتمل وتسعى إلى تحجيم قوتها ودورها الاقليمى والعالمى والحد من سرعة انطلاقها التجارى والاقتصادى والعسكرى، ودول كثيرة فى العالم أصبحت تخشى غزو المنتجات الصينية لأسواقها بعد أن ملأت هذه المنتجات الأسواق بأذواق تناسب المستهلكين فى كل بلد، وبأسعار أقل بكثير من أسعار المنتجات المماثلة فى الدول الغربية، ونتيجة لذلك أصبحت الصين دائنة لمعظم دول العالم، بينما ديونها الخارجية محدودة، ووصل الاحتياطى النقدى الأجنبى فيها إلى رقم يفوق الاحتياطى فى أية دولة أوربية.

ولا يعنى ذلك أن الصين قد انتهت من حل مشاكلها المتراكمة منذ مئات السنين، فما زالت فيها مشاكل كثيرة، وهم لا ينكرون ذلك، ويتحدثون عن مشاكلهم بمنتهى الصراحة، ولم يعد الصينيون حريصين على إخفاء المشاكل كما كانوا قبل عشرين عاما، ولم يعد أحد يقول لك أن كل شيء كامل، أو أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، أو يردد أن الصين فوق الجميع، وعندما بدأت الصين التفاوض مع منظمة التجارة العالمية للدخول فى عضويتها وقفت بصلابة ترفض شروط المنظمة.. كانت منظمة التجارة العالمية تريد أن تكون عضوية الصين على أساس أنها دولة متقدمة، وظلت الصين متمسكة بأن تدخل كدولة نامية وتحصل على الامتيازات والإعفاءات والتسهيلات الممنوحة للدول النامية، وبالصبر الصينى الذى لا مثيل له استمرت المفاوضات خمسة عشر عاما إلى أن سلمت منظمة التجارة العالمية وقبلت شروط الصين بالكامل وكانت الصين هى آخر عضو انضم إلى المنظمة فى أواخر عام ٢٠٠١.

ويتحدثون هناك كثيرا عن التخلف فى الريف وفى مناطق غرب الصين، لأن مشروع التنمية والتحديث بدأ فى جزء واحد فى المناطق الشرقية الساحلية، وكانت الحكمة من ذلك أنه من المستحيل تنمية الصين كلها فى وقت واحد، والآن وبعد عشرين عاما تحققت لمناطق الشرق التنمية. فبدأت الصين فى تنفيذ خطة جديدة لتنمية الجزء المتخلف من البلاد فى المناطق الغربية، ويقولون إن هذه المناطق الغربية تحملت التضحيات من أجل تنمية المناطق الشرقية وأصبح على المناطق الشرقية بعد أن وصلت إلى درجة ملحوظة من التقدم والثراء أن تسدد الدين، وتسهم فى تنمية الغرب، وبذلك تتحقق التنمية فى الصين كلها وهذا هو الهدف الذى يعطونه الأولوية فى هذه المرحلة.

ولا زالت الأمية والفقر فى بعض المناطق. وتعانى الصين أيضا من البطالة نتيجة تطبيق اقتصاديات السوق، ولم تعد الدولة مسئولة عن توظيف كل

مواطن بصرف النظر عن الحاجة إليه. كما تعانى الصين من ظواهر سلبية مثل انتشار المخدرات، والتفكك الأسرى، وهى مشكلات لا يخلو منها مجتمع فى العالم اليوم، وهم يعترفون بوجود هذه الظواهر السلبية، ويعملون بجدية على التغلب عليها.

ويلفت نظر الزائر انتشار الثقافة الأمريكية إلى حد ما لدى بعض الشباب فى المدن الكبرى.. وإعجاب الشباب بالوجبات السريعة والملابس والموسيقى الأمريكية، خصوصا بعد انتشار الفضائيات وخروج الصينيين إلى دول العالم بأعداد كبيرة، وزيادة أعداد مستخدمى الإنترنت، وبعد أن تهاوت الأسوار القديمة، وانفتحت الأبواب للغرب بما فيه من حسنات وسيئات، وهم يحاولون تجنب السيئات بقدر الإمكان، وإن كان الأمريكيون يرون أنهم يستطيعون التأثير على عقول الصينيين وتغيير أفكارهم عن طريق (الإنترنت)، وهذا صحيح، وينطبق على كل دول العالم وليس على الصين وحدها. وإن كان الشعب الصينى فى عمومه ما زال محتفظا بتقاليده وعاداته الاجتماعية وتقاليده الموروثة ولم يتأثر بالثقافة الغربية.

وفى رأيى أن الصين أقرب إلينا من أمريكا. والبعض يتصور أن مصر والدول العربية يمكن أن تأخذ بالنموذج الأمريكى فى الاقتصاد والتنمية والثقافة والتعليم، وهذا مستحيل، لأن ظروف أمريكا وقدراتها مختلفة تماما عن ظروفنا وقدراتنا.. أمريكا بلد الوفرة.. بلد الأراضى الشاسعة البكر التى لم يتم استغلالها بالكامل حتى الآن.. بلد التقدم المذهل فى العلوم والتكنولوجيا والصناعة.. بلد يزيد إنتاجه على احتياجات شعبه.. بلد يقدم ما يفيض من حاصلاته الزراعية معونات للدول الفقيرة ويلقى بعض المحاصيل فى المحيط، ومصر على العكس، لديها ندرة فى الموارد، والخبرات، وسوقها محدود، وقدراتها المالية أقل من أن تحقق كل طموحها، ولكن

الصين، رغم الاختلاف فى الحجم والمساحة والقدرات أقرب إلينـا، فهى مثلنا صاحبة حضارة قديمة متميزة عمرها خمسة آلاف سنة، وهى مثقلة مثلنا بأحمال الماضى، ومهما يقال عن كثرة مواردها فهى تكفى بالكاد شعبها الذى يمثل خمس سكان العالم، وقد عانت مثلنا من مشاكل فى إعادة هيكلة الشركات المملوكة للدولة، وضعف الطلب الداخلى والخارجى، كما نجحت فى تخفيف القيود على الاقتراض والائتمان، وأنشأت نموذجا لا مثيل له فى المناطق الصناعية الحرة المخصصة للتصدير. وبالإضافة إلى ذلك فإن التكنولوجيا الصينية هى الأصلح لنا، لأنها ليست شديدة التعقيد مثل التكنولوجيا الأمريكية، ولكنها تكنولوجيا متوسطة وأسعارها فى حدود الممكن، ويتم تصنيعها بمواد نستطيع إنتاجها محليا ويمكن اكتساب الخبرة فيها بسهولة.. أى إن المسافة التكنولوجية بيننا وبين الصين أقرب كثيرا من المسافة الشاسعة بيننا وبين أمريكا والمسافة الثقافية أيضا أقرب كثيرا .

عوامل التقارب، وجسور التفاهم بيننا وبين الصين كثيرة، ونستطيع أن نتعلم الكثير من تجربتها، وعلينا أن نطلب العلم من الصين. وإن كان كل من قابلته فيها كان يقول لى إنهم يطلبون العلم منا.

رجب البنا

سائح فى الصين

كانت الفكرة الشائعة فى عقولنا أن الصين بعيدة جدا، وربما تكون أبعد بلاد الدنيا بالنسبة لنا.. هذه الفكرة من رواسب العصور القديمة التى كانت فيها المواصلات والاتصالات بدائية وبطيئة.. وكان الذهاب إلى الصين يستغرق شهورا والاتصال بالتليفون شبه مستحيل، وربما يكون من أسباب تعمق هذه الفكرة فى عقلنا الباطن وجود سور الصين العظيم الذى يعطى الحديث عنه الإحساس بأن الصين بلد معزول ومحاط بالأسوار، وربما يكون من الأسباب أيضا أن الصين عاشت سنوات طويلة منغلقة، ومعزولة عن العالم، ولم تكن ضمن سياساتها التوسع فى العلاقات مع العالم الخارجى، إما لمشاكل داخلية، وإما لتخوف من الأجانب، وإما رغبة فى التفرغ لحل مشاكل مئات الملايين من البشر الذين يعيشون فيها ويعانون من آثار الاستعمار والتخلف.

ومهما تكن الأسباب، فلم تعد الصين بعيدة ولا معزولة الآن، ولكنها فتحت أبوابها، وبدأت تدعو الوفود من جميع دول العالم لزيارتها، وتنظم رحلات سياحية إلى معالمها المتميزة ذات الطابع الخاص جدا، والمحملة بعبق التاريخ السحيق، وفى السنوات الأخيرة أصبح قطاع من الشعب الصينى يخرج إلى العالم للسياحة، وأصبحت الصين مدرجة ضمن الدول المصدرة والمستوردة للسياحة.

وكانت ضمن الأسباب التى جعلت الصين تبدو بعيدة، أن المواصلات إليها كانت صعبة، فلم تكن هناك خطوط طيران مباشرة كافية إليها، والمطارات كانت صغيرة وقديمة والإجراءات فيها معقدة، وخصوصا إجراءات التعامل مع البنوك وبطاقات الائتمان والدخول والخروج بالعملات

الأجنبية، وكانت هذه كلها عوامل طاردة للسياح، وكذلك كانت المواصلات الداخلية متعبة والقطارات قديمة، وباختصار لم يكن هناك ما يشجع المرء على تكبد كل هذه المشاق من أجل زيارة الصين، ولم يحدث التطور إلا بعد التسعينات، فحدثت طفرة فى خدمات هيئات السياحة، والطيران المدنى والمطارات، والسكة الحديد، والموانى، وبعد أن كانت فى الصين شركة واحدة للطيران أصبح فيها اليوم ٢٣ شركة طيران منها ١٧ شركة للطيران الداخلى، وأصبح هناك ٩٤ خطا دوليا مباشرا بين الصين و٥٣ مدينة فى ٣٠ دولة، وأصبح فيها ١٣٩ مطارا حديثا، وتمتلك شركات الطيران الصينية ٤٥٠ طائرة بوينج وإيرباص وغيرها من طائرات المسافات الطويلة أمريكية وأوربية الصنع، وتصنع الصين طائرات لنقل الركاب اسمها «يوان - ٧» للمسافات المتوسطة.. ومع تزايد حركة السياحة والتجارة اعتبرت شركات الطيران العالمية أن الصين هى السوق الواعدة بالنسبة لها.

ولا يزال القطار هو الوسيلة المفضلة للمسافات المتوسطة والقصيرة، وخطوط السكك الحديدية تبلغ ٦٠ ألف كيلومتر، وهى ليست طويلة بالنسبة لمساحة الصين، وتصل إلىٰ كل المقاطعات والمناطق فيما عدا التبت. وهناك قطارات سياحية خاصة سريعة ومزودة بتسهيلات لا تجدها فى القطارات العادية، فيها تليفزيون يعرض مشاهد وبرامج ومعلومات عن أهم المواقع السياحية، وفى بعض القطارات تجد البوفيه والبار، ودخلت مؤخرا خدمة السيارات الليموزين التى تطلبها بالتليفون وتنقلك إلى أى مكان فى الصين، وقد ظهرت نتائج عمليات الاهتمام بإنشاء الطرق الحديثة، تطبيقا للمبدأ الذى وضعه الحزب وهو أن «بناء الطريق أول خطوة على طريق الثروة» تعبيرا عن إدراك العلاقة بين المواصلات وتنمية الاقتصاد القومى، ويقولون لك بفخر إنهم أنشئوا طرقا حديثة طولها مليون و ٢١ ألف كيلومتر بخلاف الطرق السريعة التى لا تقل عن مثيلاتها فى الولايات

المتحدة، ويلفت النظر أن تجد عليها سيارات مرسيدس وشيفورليه، وبى. إم. دبليو المستوردة وسيارات فولكس فاجن، وأودى التى تنتج فى الصين بالتعاون مع ألمانيا.

□□□

ولم يعد صعبا أن تجد سيارة تاكسى فى كل مكان وفى أى وقت وكذلك لم يعد غريبا أن تجد بعض الطرق معلقة كما فى بكين وشانغهاى، أو أن تجد خطوط المترو تجرى تحت وفوق الأرض كما فى بكين وشانغهاى وتيانجين، أو تجد المترو يسير بك فى أربعة أنفاق تحت قاع النهر فى شنغهاى، ويقولون لك إن خطوط المترو أوشكت أن تنتهى فى مدن أخرى جديدة.

وكل ذلك يعتبر بالنسبة للصين نوعا من الخيال تحقق فى وقت قصير نسبيا.

كذلك لم تعد الاتصالات مشكلة؛ فالصين الآن تستخدم التكنولوجيا الحديثة من الألياف البصرية والاتصالات الرقمية والميكروويف، والأقمار الصناعية، والتليفون المحمول ويمكنك الاتصال بسهولة بأى مكان فى العالم.

ويدهش الزائر للصين أن يجد أفكارا سياحية حديثة لم تكن موجودة منذ سنوات قليلة، مثل برنامج «زيارة الأزقة» فى بكين، ويركب فيه السائح عربة مكشوفة ذات ثلاث عجلات ليتجول فى الأزقة القديمة الضيقة التى يرجع تاريخها إلى مئات السنين، ويمكن للسائح أن ينزل من العربة ويدخل بعض الأماكن التاريخية ليشرب شاى الياسمين المشهور أو يتناول الطعام، وفى شنغهاى برنامج طريف اسمه «كن مواطنا فى شنغهاى ليوم واحد» وفيه يمكن للسائح أن يقيم فى بيت مع سكان شنغهاى فى الشوارع والأزقة والأحياء القديمة أو فى بيوت حديثة مع أبناء الطبقة المتوسطة

الجديدة، ويخرج السائح فى الصباح مع صاحب البيت لتوصيل حفيده الصغير إلى الحضانة أو المدرسة، ثم يذهب معه إلى السوق لشراء ما يلزم البيت، ويعود معه ليشارك أهل البيت فى إعداد الطعام، ويستطيع أن يتعلم طريقة إعداد بعض الأكلات الصينية المعروفة.. وبعد الظهر يشرب السائح الشاى مع صاحب البيت ويخرجان فى نزهة فى بعض الأحياء والحدائق والأسواق، ثم يتناول العشاء مع الأسرة ويشاهد معهم التليفزيون، ويعود بذكريات ٢٤ ساعة مع أسرة صينية تعايش خلالها معهم فى كل شئونهم وتعرف على الكثير من أفكارهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم.

وقد يكون من حظ السائح أن يتصادف وجوده فى أحد الأعياد أو الاحتفالات الكثيرة فى الصين مثل عيد الربيع أو عيد منتصف الشهر الثامن القمرى ليشاهد أكبر وأجمل مهرجانات الصواريخ والألعاب النارية ويرى الأطفال فى الشوارع بملابس وقبعات جديدة، وعروض الطبول والرقصات الشعبية فى الشوارع، ومهرجانات الفوانيس.

ويجذبون السياح بالطعام الصينى الذى أصبح شائعا فى أوربا وأمريكا، وليس هناك مدينة كبرى فى العالم ليس فيها مطاعم صينية، ولكن الطعام الصينى فى الصين ذاتها له طعم خاص ومختلف جدا عن الطعام الذى تقدمه المطاعم الصينية فى الخارج. وتكتشف أن الطعام الصينى ليس واحدا، ولكنه جزء من الثقافة الصينية، وينقسم إلى أربع مجموعات رئيسية: مطبخ شاندونج، ومطبخ شيشوان، ومطبخ فوانجدونج، ومطبخ هوايانج، ولكل منها فروع مختلفة، ويقولون: إن الأطباق المسجلة رسميا خمسة آلاف طبق بخلاف الأطباق الأخرى الخاصة بكل قومية من القوميات وهى ٥٥ قومية، ولكل منها أكلات خاصة بها. ولذلك تجد أن ما نعرفه عن الطعام الصينى كما نجده فى أى بلد كان خارج الصين ليس طعاما

صينيا حقيقيا، ولكنه متأثر بما هو سائد من عادات غذائية فى كل بلد، أما الطعام الصينى الحقيقى فلا تجده أبدا إلا فى الصين.. لذلك يقولون إن السائح لن يعرف الصين إذا لم يشاهد سور الصين العظيم وأوبرا بكين وعروض الأكروبات، وتناول الطعام الصينى التقليدى فى المطاعم التقليدية وخصوصا مطاعم البط البكينى.

والسياحة فى الصين شهدت فترات من الصعود والهبوط، ولم تبدأ السياحة فى العصر الحديث إلا مع بداية العشرينات فى مدينة شنغهاى عندما أنشأ أحد البنوك التجارية قسما للسياحة فى عام ١٩٢٣، وأصبح هذا القسم بعد ذلك مكتبا مستقلا للسياحة يقدم خدماته للسياح المحليين والأجانب، وبعد سنوات أصبح لهذا المكتب عشرون فرعا فى المدن الرئيسية، ثم توسع أكثر فامتد نشاطه إلى الخارج وأصبح له مكاتب فى بعض دول جنوب شرق آسيا. وكانت الصين متخلفة اقتصاديا وتعانى من الحروب، ولذلك لم تكن بها قاعدة اقتصادية لتنمية السياحة، ولم تبدأ فى تنظيم قطاع السياحة إلا بعد عام ١٩٤٩، بعد أن زادت أعداد الصينيين المغتربين الذين يترددون على وطنهم ومعهم من المال ما يكفى للقيام برحلات للسياحة الداخلية، ثم بدأت بعض وفود من الأجانب فى زيارة الصين بحثا عن الأماكن والآثار التاريخية القديمة، وللتعرف على هذا العالم الغامض من الجبال والمعابد والطقوس والأطعمة والعادات التى تبدو مدهشة للأغراب، وبدأ فى عام ١٩٥٦ إنشاء أول مكتب للسياحة الدولية، قام بتوقيع اتفاقيات لجلب سياح من الاتحاد السوفيتى السابق ودول شرق أوروبا وفرنسا، وبعض دول أوربا الغربية، وكان أكبر رقم وصل إليه عدد السياح بين عامى ١٩٥٦ و ١٩٥٨ لا يزيد على عشرة آلاف سائح، وفى الستينات تحسن الوضع السياسى والاقتصادى فى الصين، وقام رئيس الوزراء الشهير شواين لاى بزيارات إلى ١٤ دولة فى آسيا وأوروبا وأفريقيا فى عام ١٩٦٤ وحده، وأقامت الصين علاقات دبلوماسية مع فرنسا، وبدأ تشغيل خط طيران مباشر بين الصين

وباكستان، فازداد عدد السياح نتيجة لذلك حتى وصل عددهم إلى ثلاثة عشر ألف سائح أجنبى عام ١٩٦٥ بعدها أنشأت الصين هيئة السياحة، لكن الثورة الثقافية التى استمرت عشر سنوات من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٦ أوقفت كل مظاهر النشاط والعمل.. وتحولت الصين إلى فوضى عامة شملت البلاد فتوقف النشاط السياحى، ولم يعد السياح إلا عندما بدأت وفود سياحية محدودة العدد تصل إليها من رومانيا، ويوغسلافيا، وبعض دول شرق أوروبا واعتبر وصول ٣٠ سائحا أمريكيا فى ذلك الوقت حدثا تاريخيا فى تاريخ الصين..

□□□

لم تعرف الصين السياحة بمعناها الحقيقى إلا بعد أن بدأت تطبيق سياسة الانفتاح والإصلاح، وفتحت أبوابها على العالم كضرورة للنهوض بالاقتصاد والاستثمار.. ومع نهاية السبعينات بدأت تستقبل أفواجا سياحية، ووضعت الدولة خطة لتطوير المرافق السياحية والتوسع فى تقديم خدمات متميزة لجذب السياح، واستعانت بخبرات متخصصة فى السياحة وإدارة الفنادق وتنظيم الرحلات، وفتحت باب الاستثمار الخارجى ومنحت المستثمرين فى قطاع السياحة إعفاءات وتسهيلات كثيرة..

وشجعت الدولة السياحة من منطلق سياسى، واعتبرت السياحة نافذة للانفتاح على الخارج؛ لكى يعرف العالم الصين بصورة أفضل، وربط المغتربين الصينيين بوطنهم الأم، وبدء تنفيذ برامج جديدة بالنسبة للصين مثل السياحة فى الأنهار وخصوصا النهر الأصفر حيث تسير السفينة فى النهر فيشاهد السياح معالم القرى والجبال والبرارى.. وسياحة طريق الحرير لمن يريد أن يتعرف على الطريق الذى كانت تسلكه قوافل التجارة القديمة محملة بالحرير من الصين مارة بالجبال إلى أفغانستان إلى أن تصل إلى العالم العربى. ونظمت حملات للدعاية للعلاج بالأعشاب الصينية وبالإبر الصينية

وتمرينات تشيقسونج، وسياحة تسلق جبال التبت، وفى مروج منغوليا.. وتنوعت أشكال الفنادق السياحية من الخيمة المنغولية إلى البيت الصينى التقليدى القديم بالخيزران، أو فى الكهوف، وازدادت صناعة المنتجات الصينية التقليدية، التى يقبل عليها السياح مثل الحرير والخزف، والتماثيل، كما ازداد عدد الأماكن التى تقدم الغناء والرقص وألعاب الاكروبات والفنون الشعبية لكل قومية من القوميات، واهتمت الدولة بإنشاء وتجديد المتاحف.. متحف الحرير.. ومتحف الشاى.. ومتحف العقاقير والأعشاب والطب الشعبى الصينى.. ومتاحف التاريخ والفنون القديمة والحديثة وقرى يعيش فيها السياح حياة صينية بالكامل.. ومقبرة جنكيز خان.. وشلالات هوانجقوشو..

وفى كل مدينة من المدن الكبرى يجد السياح من الأماكن والأنشطة مايكفى لقضاء أيام كاملة يتعرف خلالها على تاريخ وحضارة الصين وفنونها المتميزة لكل قومية.. ونتيجة لكل ذلك ازداد عدد شركات السياحة، فأصبحت الآن٤٥شركة بعد أن كانت ثلاث شركات فقط، معظمها للقطاع الخاص الصينى والمشترك، وعرفت الصين السياحة الرياضية وتسلق الجبال، وسباقات رالى الدراجات البخارية والسيارات، وأصبح لديها جيش من المرشدين السياحيين يجيدون كل اللغات من الإنجليزية واليابانية والفرنسية والألمانية والروسية والأسبانية إلى الكورية والماليزية والتايلاندية والعربية والفارسية والرومانية والبرتغالية والسويدية. وبعد أن كان عدد الفنادق فى عام ١٩٤٩ لا يزيد على ١٩ فندقا فى كل الصين أصبح فيها الآن أكثر من٦آلاف فندق من مختلف المستويات منها٢٥٠٠ فندق بالاستثمار الصينى والأجنبى وأصبحت بعض فنادق «خمسة النجوم» ضمن الفنادق المشهورة عالميا فى سجلات السياحة، فندق بالاس أو تشينا، أو ورلد أو شيراتون السور العظيم، أو تشان فوقون، أو قوى بين فى بكين لا تقل عن

أشهر فنادق نيويورك أو باريس، وعشرات الفنادق مثلها فى شنغهاى، وقوانجتشو ونانجينج، وكلها تعمل بإدارة قيادات صينية اكتسبت الخبرة فى أوروبا وأمريكا، والآن فقط أعلنت الصين أنها مستعدة للدخول فى المنافسة فى سوق السياحة الدولية بالبرامج والفنادق والخدمة المتكاملة..

وحتى بداية الثمانينات لم تكن فى الصين كلية أو مدرسة للسياحة والفنادق، وفى أوائل الثمانينات فقط قامت الدولة بإنشاء أول كلية وأول مدرسة للسياحة، والآن أصبح فى الصين ٨٥٠ مدرسة و ١٧٠ كلية ومعهدا، وتمنح الكليات درجة الماجستير فى فروع السياحة المختلفة، وتستعين بخبراء وأساتذة أجانب للتدريس، وترسل بعثات إلى الخارج بالآلاف لتكوين أجيال من خبراء ومديرى السياحة، ومنذ عام ١٩٨٣ أصبحت الصين عضوا فى منظمة السياحة العالمية، وقبل ذلك فى عام ١٩٧٨ وقعت حكومتها اتفاقات للتعاون السياحى مع ٢٣ دولة، منها مصر، وأنشأت مكاتب للسياحة فى نيويورك ولوس أنجلوس وتورنتو، ولندن وفرانكفورت ومدريد وكل العواصم والمدن الكبرى فى العالم تقريبا، وللصين الآن ٥٥ شركة سياحية فى أنحاء مختلفة من أوربا واليابان واستراليا وأمريكا..

❑❑❑

هذه باختصار هى قصة السياحة فى الصين، بدأت من الصفر وسارت خطوة خطوة حتى أصبح عدد السياح ٦٧ مليون سائح.. وأصبح دخل الصين من السياحة ١٥ مليار دولار سنويا ويقولون هذه هى صناعة «الشمس المشرقة» والمواصلات والفنادق الجيدة والخدمة المتميزة التى تشعر السائح أنه ملك متوج.. وبعد أن كان المصدر الأول للسياح إلى الصين هو اليابان وأمريكا وكان نصف السياح منهما حتى عام ١٩٨٨، تصاعدت أرقام السياح من فرنسا وبريطانيا وألمانيا وسنغافورة والفلبين، ثم ازداد عدد سياح استراليا وكندا..

والدعاية السياحية فى الصين قائمة على دعوة السياح إلى زيارة أماكن غريبة بالنسبة لهم ولا يعرفها كثيرون فى العالم، وتجربة أسلوب للحياة لم يجربه إلا قلة، واكتساب تجارب تختلف عما اعتاد عليه الزائر فى بلاده..

وكانت مشكلة المشاكل بالنسبة للسائح هى صعوبة التفاهم، فلا أحد يعرف اللغة الصينية، والذين يعرفون اللغات الأجنبية من أبناء الصين كانوا قلة، أما الآن فلم تعد هذه مشكلة، لأنك تستطيع أن تذهب إلى أى مكان وستجد من يعرف لغتك ويرشدك، وبعض السياح يرون أن اختلاف اللغة ليس حاجزا يمنع التفاهم.. بل هى دليل على أنهم تركوا بلادهم ويعيشون فى بلاد لم يعرفوها، ولذلك لم يعد غريبا أن تجد مجموعات أو أفرادا من السياح الأجانب يقومون برحلات فردية ويضعون لأنفسهم برامج خاصة بهم، مستعينين بالخرائط والكتب والدليل السياحى والانترنت..

الجديد أيضا أن الشعب الصينى بدأ يعرف السياحة الداخلية فى بلده مع التطور الاقتصادى وظهور الطبقة المتوسطة نتيجة سياسة الانفتاح، ووجود شركات استثمارية أجنبية تعطى للعاملين فيها أجورا مرتفعة نسبيا عن مستويات الأجور التى كانت سائدة قبل الانفتاح، وازدادت السياحة الداخلية أيضا بعد تطبيق نظام يومين إجازة أسبوعيا. ونتيجة للتطورات الجديدة فى حياة الشعب الصينى أصبحت نسبة الإنفاق على السياحة والسفر فى أيام الإجازات تمثل ١٠٪ من إجمالى إنفاق الأسرة فى العاصمة بكين، و ١١٪ من شنغهاى، ومعدل إنفاق الفرد فى اليوم الواحد ٢٥ دولارا فى مدينة قواندونج، و ٢٠ دولارا فى اليوم فى شنغهاى، و ١٨ دولارا فى بكين..

وبدأت الصين تعرف سياحة المكافآت للعمال والموظفين المتميزين فى المناطق المتقدمة اقتصاديا فى الجنوب، ويقول لك المسئولون عن السياحة فى بكين إنهم مندهشون لأن الأرقام أمامهم تشير إلى أن ٦٠٪ من السياح

الصينيين داخل الصين من الريف.. وهذا يدل على أن الفلاح الصينى الذى عانى الحرمان مئات السنين بدأ ينطلق ليرى الدنيا خارج قريته، بعد أن كان هو وآباؤه وأجداده مكبلين فيها لا يجدون ما يدفعونه ثمنا لتذكرة سفر.. والدهشة تصل إلى منتهاها لأن الأرقام تقول إن عدد أبناء الريف الذين يقومون برحلة سياحية واحدة على الأقل سنويا وصل إلى ٨٠٠ مليون فرد، أما سكان المدن والمناطق الصناعية فإنهم يقومون برحلات إلى الريف والغابات والجبال هربا من الحياة فى المدن المليئة بالعمارات الشاهقة والإيقاع السريع والضغط العصبى.. ولأن متوسط الأعمار فى الصين كبير يلاحظ الزائر كثرة عدد الشيوخ يجلسون أمام بيوتهم أو فى الحدائق يتبادلون الأحاديث أو يقرءون الصحف أو يلاعبون الأحفاد.. هؤلاء الشيوخ المتقاعدون أصبحوا ضمن سوق السياحة.. فهم يقومون برحلات فى برامج سياحة النقاهة والرياضة للمسنين.. أما الشباب فلهم معسكرات ورحلات بالآلاف.. ويتوقعون أن يصل عدد السياح فى برامج السياحة الداخلية الفردية والجماعية ٤مليار فرد، ينفقون ما يعادل ٣٢ مليار دولار.

أما سياحة الصينيين إلى الخارج فقد أصبحت هى الأخرى صناعة كبرى، وصل عدد السياح من الصين إلى مختلف دول العالم خمسة ملايين ونصف مليون سائح، ولذلك أدرجت جنوب شرق آسيا الصين فى قائمة أكبر الأسواق المصدرة للسياح.

□ □ □

ويقولون لك: إن امتلاك الصينى سيارة خاصة كان حلما من الأحلام البعيدة مثل قصص ألف ليلة وليلة، ولكنه اليوم أصبح حديث كل من تقابله، بعد أن أصبحت الأسر القادرة على شراء سيارة خاصة ٦ ملايين أسرة تمثل ٢٪ من إجمالى عدد الأسر الصينية، وأصبح فى الصين أكثر من مليونين و ٢٥٠ ألف سيارة خاصة، ويتوقعون أن يتضاعف هذا الرقم فى عام

٢٠١٠، وستزداد حركة السفر والسياحة الداخلية نتيجة لذلك، وإذا كانت السياحة الداخلية تحقق ما يساوى ١٣ مليار دولار للدولة سنويا فإنهم يتوقعون زيادته عاما بعد عام.

وفى بعض القرى يستقبلك الفلاحون بالفواكه الجبلية والأكلات المحلية ويوفرون لك الحمير والعربات التى تجرها الأبقار والخيول للتنقل بها والتقاط الصور معها، وهذه المظاهرات الشعبية تجذب السياح وتبهرهم.

❑ ❑ ❑

ومن أهم المواقع السياحية فى الصين مقبرة اكتشفوها تحت الأرض قريبا من مدينة شيان التابعة لمقاطعة شانسى، وتضم تماثيل بالحجم الطبيعى من الفخار دقيقة الصنع لجيوش الإمبراطور (شى هوانج) وهى من أهم المزارات، تجد فيها المطاعم والاستراحات والمقاهى وينتشر فيها باعة التحف والمشغولات الصينية التقليدية من الحرير والتطريز والأحذية، والملابس والخزف والتماثيل، ويتكلمون أكثر من لغة، ومن لا يجيد لغة أجنبية يجيد البيع والتفاهم بالإشارة.

وحين جلست مع رئيس مكتب العلاقات الخارجية لحكومة المقاطعة السيد (كوا زيانجو) ورئيس مكتب السياحة السيد (باى زيمن) كان الحديث عن هذه المقاطعة التى تقع فى غرب الصين وعدد سكانها ٣٦ مليون نسمة، من الجنوب معظمها جبال، وفى الوسط سهل ينتج الفواكه، ويقولون: إن هذه المقاطعة هى سلة فواكه الصين، وفى الشمال هضبة يسمونها هضبة التراب الأصفر، وكان فى حديثهما فخر بهذه المقاطعة، لأنها ذات حضارة وتاريخ عريق، وعاصمتها مدينة (سيان) وينطق بعض الصينيين اسمها (شيان) نتيجة اختلاف اللهجات - كما يحدث عندنا من اختلاف فى النطق بين أهل بحرى وأهل الصعيد -، وقالا: إن مدينة (سيان) هذه كانت عاصمة لعشر أسر حكمت الصين فى التاريخ القديم، وفيها

مدافن ٧٣ إمبراطورا، أشهرها مقبرة الإمبراطور (شين) إمبراطور الصين الأول، فهذه المقاطعة كانت عاصمة الصين.. ومن هذه المقاطعة بدأت ثورة الصين، وتشكلت فيها اللجنة المركزية للحزب الشيوعى، وفى مدينة (يا أن) فى هذه المقاطعة تشكلت أفكار ماوتسى تونج، وظل يخطط للثورة ثلاثة عشر عاما وانطلق منها فى المسيرة الكبرى التى اجتاحت الصين، وسار وراءه ملايين من الفلاحين والفقراء والعمال حتى وصلوا إلى العاصمة واستولوا عليها.

قال لى المسئولان أيضا : إن السياح الأجانب يحبون هذه المقاطعة ولذلك فالفنادق كاملة العدد، ويذهب السياح إلى جبل (هوا) القريب.. وجبل (تاى باى) ويصل عدد السياح الأجانب لمدينة (سيان) إلى ٦٠٠ ألف سائح سنويا، أما السياح من الصينيين فيصل عددهم وفق الإحصائيات إلى ٢٠ مليونا، ودخل هذه المقاطعة من السياحة يعادل مليارا و ٢٠٠ ألف دولار سنويا.

تحتل هذه المقاطعة المركز الثالث فى عدد المدارس والكليات، وفيها ٤٠ كلية حكومية و ٦٠ كلية أهلية منها كلية هندسة المواصلات التى تخرج فيها الزعيم الصينى الحالى جيانج زيمين. و ٢٠٠ مركز للدراسات والبحوث لتطوير الصناعة والزراعة والخدمات، وفيها صناعات متقدمة جدا مثل صناعة الصواريخ، والبتروكيماويات، والإلكترونيات، والجرارات، والنسيج، وتصدر للخارج أجهزة التليفزيون والثلاجات والآلات الزراعية.

وفى مدينة (سيان) تخرج الزعيم «زيمن» وعمل مهندسا فى وزارة الصناعات الإلكترونية بالمقاطعة حتى وصل إلى منصب مدير الشئون الخارجية فيها، ثم انتقل إلى شنغهاى ووصل إلى منصب عمدة شنغهاى، ثم أمين عام اللجنة المركزية للحزب فى شنغهاى، وفى عام ١٩٨٩ انتقل إلى القيادة المركزية فى بكين، ولذلك يأتى ذكر مدينة (سيان) كثيرا عند

الحديث عن الزعيم «زيمن»، ويقولون: إن كثيرا من أعضاء القيادة المركزية للحزب تخرجوا فى الكليات الجامعية فى مدينة (سيان).

ولإقناعى بالتطور الذى حدث فى الصين قال لى المسئولون عن المقاطعة: إن المناصب القيادية فى المقاطعة لا يصل إليها إلا الأكفاء وبعد اختبارات صعبة وبناء على الخبرات وتقارير الكفاءة، ولا يهمنا من أين يأتى المدير، من الداخل أو الخارج، المهم أن يكون على درجة كفاءة عالية، وهذا هو نظام اقتصاد السوق الاشتراكى.. لابد أن يكون المدير مستعدا لقيادة سيارته بنفسه بدون سائق، ويستخدم الكمبيوتر بنفسه، ويجيد لغة أجنبية واحدة على الأقل، وحتى الذين يقدمون لك الطعام والشاى فى الفنادق حاصلون على شهادة الدراسة الثانوية من المدارس الفندقية، وكل القيادات لابد أن ينضموا إلى دورات دراسية فى مدرسة الحزب للتعمق فى فهم وتطبيقات الفكر الجديد، ومن لا يجتاز الامتحان بنجاح يفقد وظيفته حتى ولو كان وزيرا.

❒ ❒ ❒

هكذا تحولت الصين من مجتمع مغلق إلى مجتمع مفتوح داخليا وخارجيا.. عقول الناس أيضا أصبحت مفتوحة للفكر الجديد ولديهم رغبة فى التطوير.. يتحركون أكثر بعد أن كانوا مقيدين داخل المدن والقرى التى يولدون ويعيشون ويموتون فيها. أصبحوا يشعرون بأنهم جزء من العالم، ويفتحون بلادهم لكل من يزورهم من أى مكان فى العالم، ويستعدون ليحتلوا مكانا متقدما ويشاركوا فى قيادة العالم.

ويقولون فى الصين، إن عدد السياح الأجانب فى عام ٢٠٢٠ سيزيد على ١٦٧ مليون سائح سنويا، وسيصل عدد المشاركين فى السياحة الداخلية إلى أضعاف عددهم الحالى وإن كل فرد فى الصين سيقوم برحلة واحدة على

الأقل سنويا، وبعضهم سيقوم بأكثر من رحلة. وسكان الصين ١٢٠٠ مليون نسمة، ويقولون أيضا: إن المنافسة فى سوق السياحة لن تكون على الأسعار فقط بل ستشمل نوعية الخدمات، والأمن، ومستوى العاملين فى المواقع السياحية، ومدى توافر أماكن وتجارب جديدة ترضى حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة والراحة التى يجدها السائح، ولذلك فهم يعملون بهمة لتحديث المرافق والفنادق والطرق والمواصلات، ويقولون إنهم ينشرون بين أفراد الشعب (ثقافة السياحة) أى كيفية التعامل مع السياح والترحيب بهم ومساعدتهم ليشعر السائح أن كل صينى يقابله صديق له.

أما المنظمة العالمية للسياحة (WTO) فإنها تتوقع أن تتفوق الصين على أمريكا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا، وتصبح أكبر بلد فى العالم يستقبل السياح من الخارج، ويستند هذا الرأى إلى أن الأسعار فى الصين مازالت أقل كثيرا من الأسعار فى أوربا وأمريكا .

ولا ننسى أن أهم سمات شخصية الصينى التواضع، وعدم المبالغة فى إظهار التفوق، وهذا يدعو إلى توقع أن يكون ما تحققه الصين أكبر من ذلك.

كل شىء يتغير فى الصين.. وبسرعة.. وهذا دليل الحيوية.

وكل شىء يتحرك إلى الأمام.. وبسرعة.. وهذا دليل التقدم..

وإذا كانت الصين قد حققت الكثير فى سنوات محدودة، فإنه يبدو أنها ستحقق أكثر فى السنوات القليلة القادمة كما يتوقع المراقبون فى الغرب.

بكين تتحدى

قبل أن أبدأ رحلتى إلى الصين أعدت قراءة كتاب «موعد مع الشمس» للأستاذ محمد حسنين هيكل، وهو كتاب من مطبوعات دار المعارف صدر عام ١٩٧٣ عن رحلته الشهيرة إلى الصين واليابان والهند وباكستان بدأها بزيارة استغرقت ١٢ يوما للصين.

وبالصدفة وجدت نفسى- تقريبا- أتبع خطى الأستاذ هيكل مع فارق الزمان بين الرحلتين، فقد مرت بينهما ٢٨ عاماً، تغيرت فيها الصين كثيرا جدا، ولكن بقيت «روح الصين» كما تحدث عنها الأستاذ هيكل.

وبالصدفة أيضاً وجدت نفسى فى ذات الفندق الذى نزل فيه الأستاذ هيكل منذ ٢٨ عاما، فندق الشعوب فى شارع السلام السماوى، وقيل لى إن هذا الفندق يحمل عبق التاريخ وأمجاد صعود وانتصار ثورة ماوتسى تونج، وكان أكبر وأفخم فندق فى بكين ينزل فيه رؤساء الدول وكبار ضيوف الدولة وقادة الحزب الشيوعى، وقد أصبح فى بكين الآن عشرات الفنادق تتفوق عليه فى السعة والفخامة. ولكن بقيت له ميزة موقعه فى وسط العاصمة ويطل على شارع واسع جدا يصل عرضه لأكثر من ٦٠ مترا، ولاحظت فارقا آخر فقد استمع الأستاذ هيكل قبل أن يبدأ رحلته إلى سياسى عربى قال له: أنت ذاهب إلى الصين؟.. إنك سوف ترى مجتمع النمل!، إنك فى الغالب سوف تنزل فى فندق «الشعوب»، وإذا حدث ذلك، فإنى أرجوك أن تستيقظ مبكرا ذات يوم، وأن تنظر من نافذة غرفتك إلى الشارع تحتك، وسوف تجد على الناحيتين فى الشارع الواسع منظرا لن يبرح ذاكرتك.. طابورًا لا ينقطع من راكبى الدارجات الذاهبين إلى عملهم فى

الصباح على هذه الناحية من الشارع، وطابورا آخر لا ينقطع على الناحية الأخرى فى موعد العودة فى المساء، سوف تجدهم كالنمل فى الحركة، وفى الشارع العام، لن تجد فى بكين إلا هذه الطوابير من راكبى الدراجات.. ليس فى الشارع سيارات، لأن السيارات لا تخصص إلا لنواب الوزراء ومن فوقهم، وللأعمال الرسمية فقط، وفى بكين مترو تحت الأرض، وهو فخم وأنيق، ولكنه للمستقبل.

□□□

وفعلت كما فعل الأستاذ هيكل.. استيقظت مبكرا، ونظرت من نافذة حجرتى على الشارع الواسع فوجدت طابورا هائلا من السيارات من مختلف الأنواع.. سيارات مرسيدس وبى.ام.دبليو، وفولفو.. وسيارات يابانية وأمريكية، وسيارات من صناعة الصين بعد الانفتاح.. ووجدت أن طوابير راكبى الدراجات أقل مما رأيته فى زيارتى الأولى سنة ١٩٩٥ وأقل بكثير جدا مما رآه الأستاذ هيكل.. ولم أجد المجتمع الصينى مجتمع النمل.. وإن كان قد بقيت فيه بعض خصائص النمل مثل النظام.. والعمل الجماعى.. والنشاط الذى لا تراه فى أى بلد آخر.. والإصرار على الوجوه الذى يحمل معنى التحدى..

ووجدت نفسى اتفق مع ما قاله أحد رفقاء الأستاذ هيكل من أن أحدا لا يستطيع أن يتخذ موقفا وسطًا إزاء الصين.. الصين شىء يفرض نفسه، إما أن تتعصب له.. وإما أن تتعصب ضده.. وأتفق أيضاً مع رؤية السير «اليك دوجلاس هيوم» حين كان وزيرا للخارجية وعبر عنها فى تقرير قدمه إلى مجلس الوزراء البريطانى بعد رحلة إلى الصين فقال: «سوف يكون مهما بالنسبة للعالم كله أن يتابع عن كثب تجربة الصين، لأنها فريدة فى التاريخ هناك شعب يريد أن يعتمد على نفسه كلية فى بناء تطوره وتقدمه، وهو حتى لا يريد أن يقترض من الخارج لتمويل مشروعاته».

ولمست بنفسى صدق ما قاله الأستاذ هيكل بعد خروجه من الصين حين سئل «كيف وجدت الصين؟» فقال: إن أبرز ما لفت نظرى هو «قوة الاندفاع».. هناك قوة دافعة تحرك الصين بغير حدود.. وهذه القوة مزيج من عناصر مختلفة، يمكن أن يطول النقاش حول أصولها وجذورها، ولكن أحدا لا يمكن أن يختلف حول الطاقة التى تولدها. هناك فى الصين شعب من ثمانمائة مليون (أصبح الآن ١٢٠٠ مليوناً) وهذا الشعب يتحرك إلى هدف، ولا أعتقد مما رأيت أن هنالك أحدا يستطيع أن يحول دونه ودون بلوغ هدفه.

هذه «القوة الدافعة التى رأى الأستاذ هيكل أنها الشىء اللافت للنظر فى الصين، هى التى لمستها فى كل مكان ذهبت إليه من بكين، إلى شنجن إلى سيان إلى قواندونج وشنغهاى وغيرها.. ورأيت ما رآه الأستاذ هيكل.. الكل يأكل بما فيه الكفاية.. ويلبس بما فيه الدفء والكرامة، والكل يعمل بغير انقطاع.

وساءلت نفسى، تماما كما فعل الأستاذ هيكل: ما هو سر ما حدث فى الصين وهو شىء أقرب إلى المعجزة؟، وتوقف الأستاذ هيكل ليقول إنه لم يستعمل كلمة «المعجزة» جزافا لأنه حريص على الكلمة وضنين بها، ولكن انتقال الصين من عصر المجاعات، إلى عصر التحدى.. التحدى لظروف الفقر والجوع والتخلف والحجم الهائل للسكان، والتحدى للاتحاد السوفيتى الذى رفض إعطاء الصين أسرار القنبلة الذرية وقالوا لهم: «إن القنبلة الذرية ليست لعبة»، إلى عصر أصبح فى الصين ما يكفى ١٢٠٠ مليون إنسان من الطعام والملبس والتعليم والعلاج والمواصلات والمساكن، وأصبحت لديها قنابل ذرية، وقنابل هيدروجينية، وصواريخ عابرة للقارات، وإنتاج صناعى يغزو كل الأسواق العالمية بدون استثناء بما فيها أسواق الولايات المتحدة.

❑❑❑

ووجدت نفسى استعيد ما توصل إليه الأستاذ هيكل عند تحليل الأسباب التى تكمن وراء المعجزة، فوجدتها مازالت كما لمسها لم تتغير.

السبب الأول: أن كل إنسان يعمل، ويؤمن بأن بلاده فى معركة للحاق بالدول التى سبقت إلى التقدم وشعوبها ليست أفضل من الشعب الصينى، وليست هناك وسيلة للحاق بها إلا بالعمل.

السبب الثانى: أنه ليس هناك فاقد أو عادم أو ضائع.. وتكرر معى ما حدث للأستاذ هيكل حين دعى إلى عشاء فى مطعم «بط بكين» الشهير، فكان العشاء سبعة أطباق من بطة واحدة!، فى أول طبق خمس قطع مختارة باردة من البطة.. وفى الطبق الثانى كبد البطة مقليا .. وفى الطبق الثالث أضلاع البطة بالصلصة.. وفى الطبق الرابع قلب البطة فى قطع صغيرة محمرة.. وفى الطبق الخامس لسان البطة وأمعاؤها والبنكرياس، وفى الطبق السادس الرئيسى جسم البطة نفسه مشويا.. وفى النهاية طبق حساء من عظام البطة مسلوقة.. وحين قال: لمضيفه: «لم يبق من البطة غير ريشها، وأرجو ألا نأكله»..

قال له المضيف: «لا .. إن المطعم يبيع ريش البط لأغراض صناعية»..

وهذا بالضبط هو السمة الغالبة فى سلوك الصينيين فى حياتهم الخاصة، وفى إدارة المصانع، وأيضا فى إدارة الدولة.. الاستفادة من كل شىء.. وليس هناك فاقد أبدا.

السبب الثالث: هو التنظيم الدقيق، وهو شىء محسوس فى كل بقعة على أرض الصين.

وهكذا رأيت بكين، وفى كل لحظة أتذكر ما رآه الأستاذ هيكل وما قاله، لأقارن بين ما كان منذ ٢٨ عاما، وما هو حادث الآن، وقد وجدت أن

الفارق هائل، ولو ذهب الأستاذ هيكل إلى الصين اليوم فسوف يفاجأ بصين جديدة مختلفة تماما عن الصين التى رآها عام ١٩٧٣.. مختلفة فى كل شىء.

❑ ❑ ❑

والصين الآن لا تكتفى بالمعجزة التى حققتها، ولكنها تعمل بقوة أكبر استعدادا لدورة الألعاب الأولمبية التى ستعقد فيها عام ٢٠٠٨، وسوف تتوافد فيها فرق رياضية، ومشجعون، وإداريون،وسياح، يُقَدَّرُ عددهم بما يقرب من المليون، وسوف تأتى مئات الوفود الصحفية، وبعثات من شبكات التليفزيون العالمية، وينطلقون بالكاميرات إلى كل مكان، وينقلون إلى العالم السلبيات والإيجابيات.. وهم يعملون لتكون صورة الصين كما سيراها العالم فيها من الإبهار ما يكفى ليكون إيذانا بدخول الصين إلى نادى الدول العظمى.

ولذلك يدهشك ما يحدث فى بكين .. تسير اليوم فى طريق دائرى فيه ثمانى حارات فى كل اتجاه من الاتجاهات، ولا تكاد تبدى إعجابك به حتى تعرف أنه تم إنشاء أربعة طرق مثله والخامس على وشك الانتهاء.. وما تكاد تفتح عينيك دهشة من منظر حى من الأحياء السكينة الراقية الجميلة حتى يقال لك إن فى بكين الآن عشرات الأحياء مثله.. وما تكاد تقف إعجابا بعظمة وفخامة فندق هائل حتى يقال لك إن بكين أصبح فيها خمسون فندقا مثله.

ومن القصص الطريفة التى سمعتها من بعثة التليفزيون المصرى التى كانت تزور بكين فى هذا الوقت أنهم سألوا عن السوق التى يمكنهم شراء بعض الهدايا منها بأسعار رخيصة فقال لهم أحد المصريين المقيمين فى بكين: اذهبوا إلى سوق الحرير القريب من مبنى السفارة المصرية، وكنا فيه منذ أيام واشترينا منه أشياء جميلة ورخيصة، وفى الصباح ذهب أعضاء بعثة

التليفزيون إلى سوق الحرير فلم يجدوها، ووجدوا مكانها حديقة هائلة فيها أشجار وزهور ومقاعد وخمائل.. وقيل لهم: إن السوق كانت هنا منذ أيام.. ولكنها أزيلت ضمن خطة تطوير بكين استعدادا للدورة الأولمبية.. وأقيمت سوق جديدة انتقلت إليها المحلات والباعة.. لأن عمدة بكين قرر أن تكون المساحة الخضراء فى بكين ٦٠٪ من مساحتها.

وظل أعضاء بعثة التليفزيون يكررون القصة لكل من يقابلهم.

بكين التى رأيتها عام ٢٠٠١ لا تقل عن أية عاصمة أوروبية.. أما بكين عام ٢٠٠٨ فسوف تتفوق على بعض العواصم الأوربية .. وما شاهدته يؤكد أن ذلك سوف يحدث يقينا.

❑ ❑ ❑

وبكين لم تعد مدينة مغلقة .. لم يعد صعبا أن تحصل على تأشيرة دخول للسياحة وتتنقل بحرية فى أنحاء الصين دون أن يسألك أحد لماذا جئت هنا؟.. والمطار الصغير الذى شاهدته عام ١٩٩٥ فى زيارتى الأولى.. أصبح مكانه الآن مطار يتفوق فى الضخامة والفخامة على مطارات بعض العواصم الأوربية.

الصين فتحت أبوابها للسياحة.. وهم سعداء لأن بكين الآن مدينة سياحية من الدرجة الأولى.

وعند طلوع الفجر يتجمع السياح كل يوم مشدوهين فى الميدان السماوى «تيانا نمين» ليشاهدوا طابور حرس الشرف الكبير بملابسه الجديدة الزاهية وهو يرفع علم الصين، ويؤدى التحية العسكرية، مع طقوس وتشكيلات مبهرة، ثم تتجمع طوابير الجنود أمام بوابة السلام المقدس التى تعلوها صورة ضخمة للزعيم الراحل ماوتسى تونج، وتواجهها المدينة المحرمة.. وهى عبارة عن مدينة محاطة بالأسوار هى فى حقيقتها

قصر إمبراطور الصين، (منذ ٦٠٠ سنة) واستغرق العمل فى الجزء الرئيسى منه ١٨ عاما، واستقر فيه الامبراطور من أسرة «تشينج» وعاش فيه ٢٤ امبراطورا، ويضم تسعة آلاف غرفة تضم فى البداية الجزء الأمامى الذى يضم قاعة العرش ومكتب الامبراطور ومساعديه ويليه الجزء الثانى حيث كان الامبراطور يستقبل سفراء الدول الأجنبية وفيه قاعة واسعة وغرف يبدل فيها الإمبراطور ملابسه، ثم الجزء الثالث وهو مخصص للامبراطورة وضيوفها، وأخيرا الجزء الخاص لسكنى الامبراطور وفيه صالونات وغرفة النوم، وغرف الوصيفات والخدم الخصوصيين.. وعلى جانبى القصر مئات الغرف لسكنى المحظيات والخدم والموظفين، ويحيط بالمدينة التى كان محرما على الشعب الصينى الاقتراب منها أسوار عالية كانت أعلى من كل المبانى فى بكين القديمة، وفى أركانها أبراج الحراسة.. وداخل المدنية حديقة للزهور النادرة خلفها غابة هائلة.. ومساحة هذه «المدينة المحرمة» حوالى ٧٥٠ ألف متر مربع.

من هذه المدينة المحرمة كانت تحكم الصين لفترة تزيد على ٥٠٠ سنة، ويسمونها أحياناً «المدينة الأرجوانية» نسبة إلى الحوائط القرمزية الضخمة التى تحيط بها، وتحيط بها الخنادق المائية لحمايتها، وأبوابها الضخمة كانت تغلق فتصبح المدينة قلعة حصينة، واللون الذهبى الامبراطورى هو الغالب مع الزخارف الصينية شديدة الدقة، والأسقف مغطاة بالفيروز، والعرش الامبراطورى مكسو بالحرير ومُطَعَّم بالذهب والأحجار الكريمة النادرة، والأرض كلها من الرخام الزجاجى الأملس.. ومن المعجزات أن هذا القصر نجا من النار والحروب والفوضى التى صاحبت انهيار الامبراطورية فى الصين. ومن الغريب أن أعرف أن الزعيم الراحل ماوتسى تونج كان يقيم فى «هذه المدينة المحرمة» ولكنه لم يكن يشغل منها سوى ثلاث حجرات

فقط وظلت مئات الحجرات خالية، والآن لم يعد أحدا يسكن هذه المدينة وبقيت من أهم المعالم السياحية العالمية .

ومسجل فى تاريخ هذا القصر العجيب أن عدد العمال والمهندسين الذين شاركوا فى بنائه يزيد على ٢٠٠ ألف عامل ومهندس، واستغرق البناء ١٤ عاما فقط، وانتهى العمل فيه عام ١٤٢٠.

وفى كل فناء فى المدينة تماثيل مذهلة.. للأسد الذى يمثل رمز قوة الصين والتنين الذى يعتبر فى الأساطير هو الصين، وللامبراطور طريق خاص من الرخام يتحرك فيه محمولا على محفة على أكتاف العبيد، أما الوزراء والأمراء والقادة والحاشية فلهم طريق آخر، ولا يجرؤ واحد منهم على وضع قدميه على طريق الامبراطور.

وداخل «المدينة المحرمة» ترى مئات السياح يلتقطون الصور، وترى أيضاً مئات الأسر الصينية من مقاطعات ومدن بعيدة جاءوا مع أبنائهم لمشاهدة معالم بكين الحديثة والقديمة بعد ازدياد السياحة الداخلية فى الصين.

وسور الصين العظيم القريب من بكين أحد معجزات الدنيا السبع يرجع تاريخه إلى منتصف القرن السادس عشر، وهو سور هائل يحيط بالمدينة ويصعد على الجبال ويهبط فى الوديان، ويزوره ملايين السياح، يركبون «التلفريك» للصعود على أعلى قمة فيه، حيث تجد لوحة نقشت عليها عبارة لماوتسى تونج تقول: ليس عظيما من لم يصعد إلى قمة سور الصين العظيم.. وحين صعدت كادت أنفاسى تنقطع، ولم أجد أمامى إلا أن أفعل كما يفعل طابور السياح الطويل، بأن أقف بجانب هذه اللوحة، ليلتقط لى مصور واحد مسموح له بالتصوير مقابل عشرين إيواناً (حوالى دولارين ونصف دولار) ويعطيك إيصالا بالمبلغ مع الصورة الفورية.

وإلى جانب القصور والمعابد الأثرية الضخمة، تجد فى بكين المبانى التى انشئت بعد الثورة الشيوعية (عام ١٩٤٩) فى عهد ماوتسى تونج وهى متأثرة بالطراز السوفيتى، وعندما قامت الثورة الثقافية التى خربت الحياة فى الصين واستمرت عشر سنوات من سنة ١٩٦٦ إلى سنة ١٩٧٦ هدموا سور المدينة، واختفت بعض أجزاء من السور العظيم، وقام الفلاحون باسم الثورة الثقافية بسرقة الحجارة واستخدموها فى بناء مساكن فى القرى.

□□□

سكان بكين يزيدون قليلا على ١٢ مليوناً، ويعمل فيها مليونا عامل من المهاجرين من الريف بحثا عن فرصة أفضل للحياة والعمل، إلى جانب بقايا الأحياء القديمة التى ترى فيها شوارع واسعة مضيئة وعلى جانبيها مراكز تجارية لا تقل عن مثيلاتها فى نيويورك أو باريس، كما تلاحظ أن الحدائق والمتنزهات كثيرة جدا وواسعة جداً..

وفى بكين أكثر من دار للأوبرا أشهرها دار «أوبرا بكين» وقد اختفى فى الشوارع الزى الصينى الأزرق التقليدى الذى اشتهرت به الصين منذ ثورتها حتى نهاية حكم ماوتسى تونج. وأصبح الصينيون يرتدون البدل وأربطة العنق الفاخرة والأحذية اللامعة الرخيصة التى ينتجونها، وعدد غير قليل منهم أصبح يملك سيارة خاصة، حتى أصبحت العاصمة تشكو من زحام المرور رغم اتساع الطرق.

فى بكين يجتمع القديم والجديد.. المهاجرون من الريف يشتغلون كعمال بناء أو فى خدمات النظافة وقيادة سيارات الأجرة، أو جمع القمامة، أو بيع الفاكهة والبطاطا على نواصى الطرق الكبرى، أو نائمين فى محطات السكة الحديد، والأثرياء الجدد من نتاج الانفتاح الاقتصادى من رجال الأعمال والمستثمرين ورؤساء ومديرى الشركات والمصانع التى أقيمت

باستثمارات أجنبية يعيشون فى الأحياء الراقية ويركبون السيارات الفارهة.

ومازالت بكين هى العاصمة المركزية التى تحكم البلاد.. وتعمل على قمة الهرم.. هرم الحزب الشيوعى الحاكم الذى تنتشر قاعدته فى المصانع والقرى والمدن والمقاطعات وتتدرج مستوياته إلى أن يصل إلى اللجنة القيادية فى بكين.. وهرم البيروقراطية الذى يبدأ من المحليات التى تتمتع بالحرية وخصوصا المناطق الصناعية ومناطق الاستثمار والتصدير، ولكن التخطيط المركزى مازال قائما جنبا إلى جنب مع اقتصاد السوق والحرية الاقتصادية.

□□□

يقولون لك فى الفندق إنك لن تستمتع إلا إذا سرت على قدميك أو استأجرت دراجة، وتجولت فى أنحاء بكين على حريتك، ويمكنك تأجير دراجة من الفندق. وفى الطرق الرئيسية فى بكين ممرات مخصصة لراكبى الدراجات، وقيادتهم للدراجات هادئة بدون سرعة أو تزاحم، وفى الميادين أماكن مخصصة لوقوف الدراجات وفيها حراس وهى أشبه بالجراجات ولها رسوم بسيطة.

وتدهشك كثرة المطاعم فى بكين، فقد اختفت المطاعم القديمة التى كانت الدولة تملكها وتديرها، وحلت محلها مطاعم مملوكة لشركات وأفراد وهى مزدحمة دائماً بالطبقة المتوسطة الجديدة، ويمكن أن تجد عشاء يكلفك أقل من خمسة دولارات ويتدرج حتى يصل إلى أكثر من مائة دولار فى مطاعم ملكية.. الهامبورجر الأمريكى والسوشى اليابانى وغيرها من الأطعمة المميزة لدول العالم تجدها فى مطاعم متخصصة ولن تجد عمال المطعم يقفون أمامك طلبا «للبقشيش» كما يحدث فى بعض الدول الأوروبية.. فالصينيون لا يعرفون «البقشيش» حتى الآن.

ولا تزال وجبة البط البكينى المشهورة هى الوصفة التقليدية لكل من يزور بكين.. ومعها أنواع من الحساء وأطباق الخضراوات والأعشاب الصينية اللذيذة والمفيدة أيضاً.. وفى بكين مطاعم تقدم الموسيقى والرقص مع العشاء..وفى بعضها راقصات صينيات يتفوقن فى الرقص الشرقى على راقصات العالم العربى.. وفى الفنادق الاستثمارية الفخمة التى تشبه القصور تجد الطعام الصينى الفاخر أو الأوربى والأمريكى، وتجد الخدمة الممتازة التى تشعرك أنك ملك، وتجد الملاهى الليلية والأندية الصحية.

وفى بكين كما فى كل مدينة صينية تجد موسيقى البوب الصاخبة، ولا تكاد تسمع الموسيقى الصينية التقليدية الهادئة، وأوبرا بكين مزدحمة دائماً وكاملة العدد تقدم موضوعات تاريخية، فتجد الأباطرة والقادة هم الأبطال، وتلاحظ الإسراف فى استخدام الألوان فى الملابس، والأصباغ على وجوه الممثلين، ربما ليشعروك بأن هذا تمثيلاً.

المسارح فى بكين تزيد على ١٢ مسرحا والمحلات التى تعزف فيها فرق الجاز والروك من الصينيين لا يمكن معرفة عددها، وفى المناطق الخلوية تقام مهرجانات موسيقية فى الصيف، والحانات مفتوحة طوال الليل وتقدم الملاهى الليلية عروض الليزر مع الرقصات الصينية والأمريكية والموسيقى الخاصة بأمريكا اللاتينية وكلها فرق من الصينيين.

عشرات من محلات البقالة الغربية، والسوبر ماركات .. والشارع التجارى الرئيسى فى بكين هو شارع «وانج فوجنج» ملئ بالمراكز والمحلات التجارية الكبرى متعددة الطوابق فيها كل شىء ابتداء من الملابس الحريرية الصينية إلى السجاد الصينى المشهور، إلى الأدوية والمعدات الطبية إلى الملابس الرياضية إلى المشغولات اليدوية والتحف المصنوعة يدويا من الخشب والأحجار إلى الكتب، والخرائط وشرائط الفيديو، والأقراص المغنطة للكمبيوتر، والبطاقات البريدية ذات الرسوم الجميلة إلى احتياجات الديكور .

والأسواق فى بكين من الأماكن التى يقضى فيها السياح معظم أوقاتهم. ففيها العديد من الأسواق المركزية الحديثة وتشمل مطاعم ومحلات لتقديم المشروبات المحلية والمستوردة.. وفيها أسواق للسلع القديمة تجد فيها أشياء لا قيمة لها، وتحفاً ذات قيمة كبيرة من البورسلين والجواهر والأثاث، وفيها أيضاً تحف مقلدة ببراعة يصعب اكتشافها.. وفيها «سوق الأحد» لبيع السلع الرخيصة والمستعملة مثل «سوق الثلاث» و«سوق وكالة البلح» فى القاهرة، ويأتى إلى هذه السوق الكثيرون من الريف لبيع سلع مختلفة من التماثيل الخشبية، والقبعات والأوانى الخزفية، والملابس المزركشة، والسجاجيد العتيقة، والأثاث القديم..

وتخرج من جولتك فى الأسواق لتسأل نفسك: كيف استطاعوا تقديم هذه المنتجات الجميلة ذات الذوق الرفيع والصناعة الجيدة المتقنة، بهذه الأسعار الرخيصة؟

ومع كل الضخامة والفخامة والجمال فى معظم أحياء بكين مازالت الأحياء القديمة موجودة، بالحوارى الضيقة، والبيوت من الخشب والطين، والأطفال والدواجن وجبال الكرنب والفحم تكاد تسد الأزقة فلا تسمح بمرور اثنين معا.. وهذه الأحياء فى طريقها إلى الإزالة قبل عام ٢٠٠٨.

ومن المشاهد التى لا أنساها فى أحد الشوارع الكبرى فى الليل حيث رأيت مئات من العربات الصغيرة عليها أنواع من اللحوم والعصافير والخضراوات تقلى فى الزيت ويقف أمامها مئات يلتهمون طعامهم ويبدو أن هذه أرخص وجبة عشاء فى بكين.

❑ ❑ ❑

وفى بكين الحى الإسلامى.. وفيه جامعة كبيرة مشهورة، وسكان هذا الحى مسلمون وقريبا من هذا الحى المعبد البوذى الكبير «فايوانسى»، وهو

مفتوح للزوار حيث يمكنهم رؤية الرهبان أثناء صلواتهم وراحتهم، وهم يرتلون التراتيم فى قاعات الصلاة، أو وهم مجتمعون لتناول طعامهم على موائد خشبية بسيطة عليها الأوانى الصينية التقليدية، وهذا المعبد يرجع تاريخ إنشائه إلى القرن السابع، وأعيد بناؤه عام ١٤٤٢ وفيه مجموعات رائعة من التماثيل منها تمثال ضخم لبوذا من النحاس.

وفى وسط الحى الإسلامى جامع تاريخى فى شارع «أوكس» أقيم عام ٩٩٦ وهو أقدم وأكبر جامع فى بكين يتميز بالطراز الصينى للمبانى، ويزين البوابة الأمامية سطح مكسو بالآجر يعكس الطابع الصينى، وفى صحن الجامع نقشت الآيات القرآنية باللغة العربية، ويعلوه برج يصعد إليه أئمة الجامع لرؤية هلال رمضان، ومحظور دخول الجامع إلا بعد الوضوء، وفيه قاعة خلفية مخصصة للسيدات، ولا تدخل إلا السيدة التى ترتدى ملابس طويلة.

وبعيدا عن الجامع معبد اسمه «معبد الإلهة» «تيانتان» وبناؤه معاصر لبناء المدينة المحرمة، وكان الامبراطور يقدم فيه القرابين للإلهة مع فصول السنة، وله أربع بوابات، وملحقة به حديقة كبيرة، ويقف على الباب المرشدون السياحيون لشرح مكونات المعبد للسياح بلغات متعددة، ويقولون لك إن هذا المعبد أقيم عام ١٤٢٠ ولكنه دمر فى عام (١٨٨٩) نتيجة حريق هائل، وأعيد بناؤه بعد ذلك مباشرة، وفى الداخل أربعة أعمدة تمثل فصول السنة، و ١٢ عمودا تمثل الشهور، وفى الخارج عشرة أعمدة تمثل أجزاء اليوم الواحد، والمعجزة فى هذا البناء أن الأعمدة تقيم السقف بدون مسامير أو مواد لاصقة، ومن السقف يتدلى تنين يرمز إلى الامبراطور «ابن الإله» وللمعبد برج فيه جرس يستطيع الزائر أن يصعد ويضرب الجرس تبركا وطلبا للحظ الحسن، ولكن هذا الجرس لم يكن مخصصا لذلك، ولكنه كان مخصصا للإعلان عن قدوم الامبراطور وموكبه حين يأتى لأداء الطقوس الدينية فيه، وحين يغادره عائدا إلى قصره.

وفى بكين تجد «قرية فرانك» وهى ضاحية فيها العديد من المطاعم تقدم الأطعمة والمشروبات الأمريكية بعد أن أصبح الهامبورجر والدجاج المقلى على طريقة «كنتاكى» منتشرًا .

□□□

بكين.. المدينة ذات الطابع الخاص .. التى تعكس سحر الشرق.. وروح الصين.. وتعكس فى نفس الوقت الحداثة وروح العصر.. هى مزيج من الصين وأوروبا وأمريكا.. يجتمع فيها الماضى والحاضر .. والمستقبل.

الشىء الذى يلفت النظر، أنها تتغير بسرعة عجيبة.. أحياء بأكملها تتم إزالتها فى أيام، وأحياء بأكملها يتم إنشاؤها فى شهور، وطرق واسعة ليس لها مثيل فى دول أوربا فيما عدا طريق جوركى الشهير فى موسكو، وناطحات سحاب وميادين هائلة منظمة بصورة رائعة تـُـزِينها حدائق، ونافورات، وتماثيل، ومقاعد جميلة.

تشعر بعد أيام فى بكين أنها تستعد للتحدى.. لتقول لأمريكا وأوروبا: لقد أصبحنا دولة عظمى.

شنغهاى تنافس نيويورك

شنغهاى أكبر وأجمل وأغنى مدينة فى الصين.. يسميها الأجانب «باريس الشرق» ويسميها الصينيون «لؤلؤة الشرق».. وفى التسعينات من القرن العشرين- مع سياسة الانفتاح- اختارها الزعيم الصينى الراحل دنج زياو بنج نقطة البداية للانفتاح على العالم، وجذب الاستثمارات الأجنبية، لتكون النموذج للازدهار الاقتصادى والتجارى والصناعى وتنافس هونج كونج.. بل وتنافس نيويورك أيضا..! وقال دنج زياو بنج عبارة يحفظها كل أبناء شنغهاى عن ظهر قلب ويقولونها لك عشرات المرات بفخر.. قال:«إذا كانت الصين هى التنين، فإن شنغهاى هى رأس التنين» وكان يقصد أنها ستكون رأس حربة.. أو رأس جسر.. لمشروع كبير لتحديث الصين.. لتصبح الصين دولة صناعية كبرى وتلحق بالدول الصناعية السبع الكبار التى تقرر مصير العالم.!

عندما نزلت مطار شنغهاى فى الليل ذهلت من الاتساع والتنظيم.. مطار هائل لا يقل عن مطار جون كيندى فى نيويورك أو مطار أورلى فى باريس، بل هو أحدث وأنظف وأجمل..

فى الطريق ذهلت مرة أخرى من اتساع الطرق، وكثرة السيارات الفاخرة من كل الأنواع.. وخاصة سيارات مرسيدس وليكساس آخر موديل.. وأضواء النيون الملونة تملأ جوانب الطريق بإعلانات عن كل شىء.. سيارات.. تليفزيونات.. تليفون محمول من كل الماركات.. عطور باريس.. ملابس أمريكية وإيطالية.. وفروع لأكبر بيوت الأزياء فى باريس.. بيير كاردان.. كريستيان ديور.. رالف لورين.. فيرساتشى..

فى الفندق التقيت بعدد من المصريين والعرب والصينيين وسمعت منهم الكثير.. إن شنغهاى أصبحت رمزا لنجاح الصين فى سياستها الاقتصادية فى الانفتاح، وجذب الاستثمارات الأجنبية، وتحديث الصين، وهى الآن قطعة متقدمة جدا ومستواها لا يقل عن مستوى نيويورك، أو سان فرانسيسكو، أو لندن.. فهى تجمع بين الجمال والتفوق الصناعى والتجارى، وتجمع بين الطابع الصينى التقليدى والطابع الأوربى والأمريكى، وهى تتغير بسرعة مذهلة، قالوا لى إنها تتغير كل سنة..

شنغهاى مدينة كبيرة.. يسكنها ١٧ مليون نسمة، وفيها خطان للمترو يربطان جميع أنحاء المدينة الكبيرة، والتذكرة بسعر موحد باثنين «يوان» بما يعادل ربع دولار، وفيها سوق المال الشهير، وإنتاجها يمثل سدس إجمالى الناتج القومى للصين كلها.. وترى فيها نبض الصين الجديدة المليئة بالحيوية والجدية.. فيها أكبر خبراء المال والصناعة.. وأكبر شركات المقاولات العالمية.. وفروع لأكبر البنوك فى أوربا وأمريكا واليابان.. وبعد ساعات من السير فيها تلمس أنها من أكبر مدن «البزنس» فى العالم.. ومعهم حق عندما اعتبروها نيويورك الصين.

❑ ❑ ❑

كانت شنغهاى مجرد قرية صغيرة لصيادى الأسماك تطل على الشاطئ.. وبعد حرب الأفيون الأولى جعلها البريطانيون ميناء مفتوحاً للأجانب، وتحولت القرية الصغيرة إلى مدينة يحكمها ويديرها البريطانيون، والفرنسيون، والأمريكيون، وجعلوها مستقلة عن الصين، ولا تخضع لقوانين الصين، ونقلوا ثقافاتهم وعاداتهم وأساليب حياتهم إليها، ولذلك تجد فيها حتى الآن خليطا من الثقافات، وفنون العمارة، والعادات الاجتماعية.. ولأنها مدينة مفتوحة حدث فيها تزاوج بين الثقافات الأوربية والأمريكية والثقافة الصينية، وأصبحت منفتحة على العالم بأكثر من أى مدينة

أخرى.. ولذلك تجد فيها مدارس اللغات.. ومدارس تعلم بالصينية.. وفيها مطاعم تقدم الطعام الأمريكى ومطاعم تقدم الطعام الإيطالى والفرنسى والمكسيكى والشرقى.. وفيها أكثر من دار أوبرا ومسرح.. وعشرات من دور السينما تعرض أفلاما من كل أنحاء العالم.. وأندية.. وملاعب.. وبيوت تجميل للسيدات وللرجال أيضا.. وفنادق ٥ نجوم و٤ نجوم و٣ نجوم ونجمتان ونجمة واحدة.. وإن كانت كلها غالية.. وكلها ذات غرف صغيرة نظرا لكثرة الزوار من السياح ورجال الأعمال.. الغرفة فى فندق ٥ نجوم تكلفك أكثر من ٢٥٠ دولار فى الليلة، وفى ٤ نجوم أكثر من ٢٠٠ دولار، وفى ٣ نجوم من ١٥٠ إلى ٢٠٠ دولار، وفى نجمتين من ٧٥ إلى ١٥٠ دولارا، أما فندق نجمة واحدة فالليلة تكلفك ٧٥ دولارا.. ولكثرة السياح والأجانب أصبحت المطاعم الصينية فى شنغهاى تقدم الأكلات الصينية التقليدية ولكن بمذاق مختلف لأنها خليط بين الطعام الصينى والطعام الأوربى والأمريكى.. وتشاهد فيها نساء يرتدين ملابس باريسية.. وشباب يقضى الليل فى الديسكو والأندية الليلية.. وفى يد كل من تقابله فى الشارع تليفون محمول..

❑❑❑

فى شنغهاى أعلى مستوى للمعيشة فى الصين.. وأعلى الأجور.. وأعلى المبانى.. فى سنة ١٩٨٧ كان فيها ١٥٠ مبنى مكونا من ٥٠ طابقا فأكثر، والآن فيها ١٥٠٠ مبنى أكثرها يعتبر من ناطحات السحاب.. فيها أعلى فندق فى العالم.. وفيها مبنى ناطحة سحاب مكون من ٨٧ طابقا يسمونه «برج التليفزيون» وهو تحفة معمارية لا مثيل لها.. فهو على شكل سمكة كبيرة، وفى الأدوار السفلى متاحف عن حضارة الصين عبر التاريخ وتجسيد للحياة فى كل عصر بتماثيل الشمع شديدة الإتقان، وفيها أحياء كاملة طبق الأصل.. وفى أعلى البرج مطعم فاخر، وتحته طابق للزوار يشاهدون منه بانوراما هائلة للمدينة كلها.. وتكاد ترى هونج كونج على مرمى البصر.

وبرج التليفزيون كان ثالث أعلى مبنى فى العالم.. كان المبنى رقم واحد هو مركز التجارة العالمى فى نيويورك، والثانى هو ناطحة السحاب المشهورة فى عاصمة ماليزيا كوالالمبور وهو مكون من برجين مثل مركز التجارة العالمى، وكان المبنى الثالث هو برج التليفزيون فى شنغهاى، وبعد انهيار مركز التجارة العالمى فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أصبح مبنى شنغهاى هو الثانى.. ولكنهم بدءوا فى إنشاء ناطحة سحاب ستكون أعلى ناطحة سحاب فى العالم وتكون رمزا للصين الحديثة.. وسينتهى العمل فيها بعد عامين.

❑ ❑ ❑

ثلث مساحة شنغهاى خضراء.. حدائق وغابات.. وفى المدينة عشرات الأندية والملاعب، وستاد رياضى عالمى، وأكثر من دار أوبرا ومسرح، وعشرات من دور السينما تعرض أفلاما من كل أنحاء العالم، وفيها ١٤ جامعة ومركزا ثقافيا، وفيها صفوة المثقفين وأساتذة الجامعات فى الصين، ويتميزون بحرية الفكر والانفتاح على العالم والاتصال بالجامعات والمراكز الثقافية فى الدول الكبرى والدول النامية، وفيها عدة صحف تصدر باللغة الصينية، وصحيفة مشهورة تصدر باللغة الإنجليزية هى «شنغهاى ديلى».

فى الأسواق والمراكز التجارية كل ما يخطر على البال من السلع والتحف والملابس والعطور وأربطة العنق الصينية والأوربية والأمريكية أكثرها مصنوع فى الصين من إنتاج فروع ومصانع الشركات الأصلية، والقليل منها مستورد بالكامل من الخارج.. فهى- كما يقولون- مدينة كل شىء لأى إنسان..

❑ ❑ ❑

ولأن شنغهاى أكبر مركز ثقافى فإن فيها كل الأفكار، وكل الديانات، وكل الأيديولوجيات.. وفيها أكبر تجمع للمثقفين والمفكرين..

وأهل شنغهاى حريصون على أن تكون مدينتهم مصدر قوة للصين كلها.. ولذلك أصبحت منطقة جذب للاستثمارات الأجنبية حتى إنها جذبت فى ٦ شهور فقط من يناير إلى يونيو ٢٠٠١ أكثر من ٤ مليارات دولار وبدأ الإنتاج فى ١٢٣ مشروعا جديدا باستثمارات أجنبية أو مشتركة، والهدف المحدد لها أن يصل رقم الاستثمارات إلى ٦ مليارات دولار حتى نهاية العام. أما الصادرات من شنغهاى وحدها فقد بلغت فى النصف الأول من عام ٢٠٠١ أكثر من ١٤ مليار دولار.. والولايات المتحدة هى أكبر مستثمر فى شنغهاى وفى الصين عموما، تليها اليابان، وتليها تايوان، ثم الاتحاد الأوربى بصفة عامة.. والمنطقة الجديدة للاستثمارات التى تعتبر امتدادا لشنغهاى هى منطقة «بودونج»، وقد انتهت الأعمال الإنشائية للبنية الأساسية.. مطار دولى كبير جدا تم افتتاحه سنة ١٩٩٩- الطريق المؤدى إليه من شنغهاى فى اتجاهين وكل اتجاه فيه ٦ حارات للسيارات، المياه والكهرباء والصرف الصحى استكملت، والحدائق والغابات والفنادق والأحياء السكنية والملاعب والمدارس انتهى إعدادها، ولذلك بدأ المستثمرون يتوافدون من ٦٧ دولة وبدأت الشركات والمصانع فى العمل، وانتهى بناء أكبر بورصة فى العالم فى هذه المنطقة الجديدة التى أقيمت سنة ١٩٩٠ وأصبحت شنغهاى بها أكبر المراكز الاقتصادية والمالية والتجارية الدولية فى آسيا كلها. وبلغت قيمة صادراتها للخارج ٦ مليارات دولار. وهونج كونج هى المستثمر رقم واحد فى منطقة بودونج الجديدة وبلغت استثماراتها ٩ مليارات دولار، تليها الولايات المتحدة ٤,٦ مليارات دولار، ثم اليابان ٤,٥ مليارات دولار.

❑ ❑ ❑

شنغهاى مدينة لها سحر خاص..هى أكبر مدن الصين على الإطلاق ومن أكبر مدن العالم.. مساحتها ٦٢٠ ألف كيلو متر مربع، وهى فى موقع جغرافى متميز.. على ساحل بر الصين الشرقى، عند مصب نهر

اليانجتسى.. فيها أكبر ميناء فى الصين.. وداخل أراضيها مجموعة من الأنهار والجداول المتشابكة.. مثل نهر هوانجبو الذى يخترق المدينة ثم يتجه إلى الشرق لمسافة ٨٠ كيلومتر إلى أن يلتقى مع نهر اليانجتسى، ويصبان فى بحر الصين الشرقى.. الجو فيها معتدل والرطوبة عالية.. ولأنها قاعدة صناعية كبرى، وبها أكبر صناعات التعدين، والآلات، والسفن، والكيماويات، والإلكترونيات، والغزل والنسيج، وإنتاجها ٧٪ من إجمالى الإنتاج الصناعى فى الصين كلها، وعمليات الشحن والتفريغ للبضائع فى مينائها ٢٣٪ من إجمالى حركة موانى الصين كلها..

❑ ❑ ❑

وشنغهاى مثل باقى المقاطعات والبلديات فى الصين.. لها مجلس لنواب الشعب، ولها حكومة محلية، ومجلس نواب الشعب فيها هو الجهاز المحلى لسلطة الدولة وهو المختص بإصدار القرارات الخاصة بالمدينة، ومراجعة الخطط المحلية للبناء الاقتصادى والمرافق العامة ومراقبة أداء الأجهزة الحكومية، وله حرية إصدار لوائح محلية خاصة بالمدينة ما دامت لاتتعارض مع دستور الدولة وقوانينها. أما الحكومة المحلية فى شنغهاى فهى الجهاز التنفيذى المسئول عن الإشراف على الأجهزة الحكومية وتتولى مختلف الشئون الإدارية فى منطقتها، وهى مسئولة أمام مجلس نواب الشعب ولجانه، ومسئولة أيضا أمام قيادة الدولة الممثلة فى مجلس الدولة (مجلس الوزراء).

وقصة منطقة «بودونج» تهمنا، لأنها نموذج لمناطق الاستثمار كما يجب أن تكون.

فى سنة ١٩٩٠ صدر قرار إنشاء هذه المنطقة شرقى شنغهاى، وبعد تسع سنوات من صدور القرار أصبحت «بودونج» نقطة تحول مهمة فى دفع اقتصاد شنغهاى، وجذب الاستثمارات الأجنبية بمعدلات عالية، حتى أصبحت أولى المناطق جذبا للاستثمارات الأجنبية، ولها سمعة عالمية على

المستويين الاقتصادى والتجارى، خصوصا بعد أن عقد فيها المنتدى الاقتصادى لمجلة «فورشن» الاقتصادية العالمية فى سبتمبر ١٩٩٩، وكان هذا المنتدى بمثابة إعلان عالمى عن القفزة الهائلة التى تحققت فى «بودونج»..

ولم تتحقق معجزة منطقة «بودونج» من فراغ، ولكنها كانت وليدة التسهيلات، والمزايا التى منحتها الحكومة الصينية للمستثمرين الأجانب، كما منحت الحكومة المركزية للسلطة المحلية فى هذه المنطقة صلاحيات واسعة اعتبرها البعض تطبيقا مبكرا لنظرية «دولة واحدة ونظامان» التى طبقت بعد ذلك فى هونج كونج وماكاو بعد عودتهما إلى الصين.

وقرارات مجلس الدولة الصينى فى ديسمبر ١٩٩٧ قسمت المشروعات المقدمة للاستثمار فى منطقة «بودونج» إلى أربع فئات:

الفئة الأولى: المشروعات التى تشجعها الحكومة الصينية فئة «أ» وهى مشروعات التكنولوجيا المتقدمة، ومشروعات تطوير المنتجات القائمة والمساهمة فى تحسين جودة المنتجات المخصصة للتصدير، والمشروعات التى تساهم فى تطوير وتحديث المدينة.

والفئة الثانية: مشروعات فئة «ب» مقيدة بشروط معينة وتشمل: المشروعات التى تستخدم تكنولوجيا متوافرة بالفعل فى الصين أو المشروعات التى تنتج بضائع وسلعاً متوافرة بالفعل فى السوق الصينى، سواء كان إنتاجها فى داخل الصين أو مستوردة من الخارج. والمشروعات التى تستهلك طاقة عالية وبدون استخدام تكنولوجيا متقدمة، أو التى لها قدرة تنافسية محدودة فى السوق المحلى أو الخارجى. والمشروعات التى تخضع لقيود تفرضها القوانين، أو تخالف بعض اللوائح والنظم القائمة.

والفئة الثالثة: فئة «ج» وهى مشروعات محظورة، يتم رفضها مثل المشروعات التى يمكن أن تهدد الأمن القومى، والمشروعات الضارة بالبيئة أو التى لها آثار سلبية على صحة الإنسان.

أما الفئة الرابعة: فهى الفئة «د» وهى المشروعات التى لا تدخل فى نطاق الفئات الثلاث السابقة.

والتسهيلات الممنوحة للمستثمرين فى الضرائب لها نظام :

ضريبة الدخل وقيمتها فى الصين ١٥٪ من الأرباح.. أما الشركات الاستثمارية التى تعمل فى مجالات الطاقة والمواصلات ومحطات الكهرباء، والشركات المعنية بالمطارات والموانئ والطرق السريعة ومحطات توليد الكهرباء فهذه تتمتع بإعفاء كامل من ضريبة الدخل لمدة ٥ سنوات من بدء العمل، وفى السنوات الخمس التالية تحصل على تخفيض ٥٠٪ من قيمة الضريبة، وإذا كانت ستعمل ١٥ سنة فأكثر يتم احتساب سنوات الإعفاء الكامل اعتبارا من السنة الأولى التى تحقق فيها أرباحا حقيقية.

وشركات الاستثمار المشترك إما أن تكون شركة باستثمارات صينية أجنبية، وإما أن تكون شركة باستثمارات أجنبية بالكامل، أو أن تكون فى شكل مؤسسة تعاونية، وتتمتع كلها بإعفاء كامل من ضريبة الدخل لمدة عامين فقط، ثم تحصل على تخفيض ٥٠٪ من قيمة الضريبة لمدة ٣ سنوات أخرى، وإذا كانت ستستمر فى العمل لمدة عشر سنوات فأكثر يتم احتساب الإعفاء الكامل اعتبارا من السنة الأولى لبدء تحقيق أرباح فعلية وليس من سنة بدء العمل.

أما البنوك والمؤسسات المالية فهى تتمتع بالإعفاء الكامل من ضريبة الدخل لمدة عام واحد، وفى العامين التاليين تحصل على تخفيض ٥٠٪، وإذا كان حجم استثمارات البنك أو المؤسسة المالية أكثر من ١٠ ملايين دولار وسيعمل لمدة ١٠ سنوات فأكثر يتم احتساب سنوات الإعفاء الكامل اعتبارا من السنة الأولى لتحقيق أرباح.

والشركات التى تنتج للتصدير تتمتع بإعفاء كامل لمدة عامين، وتخفيض الضريبة ٥٠٪ بعد ذلك لمدة ٣ سنوات ، وإذا كانت الشركة

تستخدم تكنولوجيا عالية يستمر التخفيض ٥٠٪ لمدة ٣ سنوات أخرى، وبعد ذلك تخفض الضريبة عليها لتصبح ١٠٪ (بدلا من ١٥٪) بشرط أن يتم تصدير ٧٠٪ من إنتاجها للخارج.

والشركات التى ليس لها مكاتب فى الصين، ولكنها تحقق أرباحا فى منطقة «بودونج» من أعمال مثل بناء العقارات، أو إقامة المعارض والحفلات، فإن ضريبة الدخل بالنسبة لها ١٠٪.

وإذا قامت الشركات المشتركة Joint Venture بتحويل نصيبها من الأرباح خارج الصين فإنها لا تدفع عن هذه الأرباح ضرائب من أى نوع، وإذا قامت مؤسسة مشتركة بإعادة الاستثمار لبعض أموالها فى ذات المشروع أو فى مشروع جديد يعمل لأكثر من ٥ سنوات فإنها تسترد ٤٠٪ من قيمة الضريبة على الدخل التى دفعتها. وإذا كانت إعادة الاستثمار فى مجالات التصدير أو استخدام التكنولوجيا العالية فإن المؤسسة تسترد كل ضريبة الدخل التى دفعتها.

وهكذا جعلت الصين من الإعفاءات من الضريبة أداة من أدوات جذب الاستثمارات وتوجيهها نحو التصدير أولا، ونحو جلب التكنولوجيا العالية ثانيًا، وبهذا المنطق أيضا قررت الإعفاءات من رسوم الاستيراد وضريبة المبيعات (وهى عندهم ضريبة القيمة المضافة) فالمشروعات التى تستخدم التكنولوجيا العالية تتمتع بإعفاء كامل من رسوم الاستيراد وضريبة المبيعات على المعدات، وكذلك تتمتع بهذا الإعفاء المعدات المستوردة الممولة من قروض أو هبات من حكومات أجنبية أو مؤسسات مالية دولية.

وماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن أنشئت شركات مشتركة مثل شركة «شنغهاى ميتسوبيشى» برأس مال صينى يابانى، ومثل شركة «لانشيخ دايو» برأس مال صينى كورى، وجميع الشركات التى تتواجد داخل المنطقة الحرة فى

«بودونج» تصدر إنتاجها للخارج ولا تدفع أية رسوم أو جمارك، وإذا قامت بالتصدير إلى داخل الصين تدفع الضرائب والرسوم كاملة. وتسمح الحكومة الصينية للبنوك والمؤسسات المالية الأجنبية فى «بودونج» باستخدام العملة الوطنية الصينية فى تعاملاتها وهذه الميزة غير متاحة لأى بنك أجنبى يعمل فى الصين خارج «بودونج».

والمنطقة الحرة فى «بودونج» حرة فعلا.. بحيث يتم دخول الواردات إليها بدون تصاريح استيراد مسبقة، ويتم إعفاؤها من رسوم الاستيراد، وكذلك تعفى من رسوم تصدير البضائع التى تصدر للخارج من المنطقة الحرة وبدون إذن تصدير.. وتمنح إعفاء من الرسوم الجمركية المعدات والمواد المعمارية وتجهيزات المكاتب الخاصة بالاستخدام وبدون تصريح مسبق، فيما عدا التليفون المحمول! والبضائع التى تدخل من داخل الصين إلى المنطقة الحرة تعتبر فى حكم تصدير من الصين وتسدد عنها الرسوم المقررة للتصدير للخارج.

ونظام منح الأراضى للمستثمرين له قواعد وأصول فى الصين ولا تمنح عشوائيا لكل من يدعى أنه مستثمر.

الأرض فى الصين كلها، وكذلك فى «بودونج» لا يمكن شراؤها لتصبح ملكية خاصة لأفراد أو شركات أو مؤسسات، ولكن تمنح لهذه الشركات «حق الانتفاع» لمدد تصل إلى ٧٥ عاما كحد أقصى، وتصل أسعار «حق الانتفاع» فى كل منطقة وفقا لجدول يتراوح بين ٣٠ دولارا فى السنة للمتر المربع فى أرخص المناطق و٦٠٠ دولار للمتر الربع فى أغلى المناطق، ويمكن تأجير الأرض بالمتر لمدة سنة أو أكثر بأسعار تتراوح بين دولارين و١٠ دولارات للمتر.

ومسموح فى الصين الآن شراء المبانى بدون الأرض التى تخضع لحق الانتفاع لمدة أقصاها ٧٥ سنة ويتراوح الإيجار بين ٦٠ دولارا و٤٧٠ دولارا لمتر المبانى، أما إيجار المبانى لمدة سنة أو أكثر فيتراوح بين ٥ و٧٠ دولارا فى السنة.

وقانون منطقة «بودونج» يفرض على شركات الاستثمار أن تدفع للعاملين الصينيين مرتبات أعلى بنسبة ١٢٠٪ من مثيلاتها من الشركات خارج المنطقة الحرة، وتفرض على الشركات التأمين على العاملين.

❑❑❑

وقانون الاستثمار فى منطقة «بودونج» قانون أثبت نجاحه وحقق أهدافه فى جذب الاستثمارات الأجنبية والتكنولوجيا العالية.. ويمكن أن نستفيد من هذه الخبرة بدلا من أن نبدأ التفكير وحدنا من نقطة الصفر فى كيفية جذب الاستثمارات وتشجيع المستثمرين. وهم يشجعون الشركات الاستثمارية على بناء أحياء سكنية ولديهم مخطط لإنشاء مجموعة من المبانى العصرية، وقد دشنت الحكومة فى النصف الأول من عام ٢٠٠١ مشروعات باستثمارات أجنبية خالصة ومشتركة بلغت ١٢٣ مشروعا.

وفى شنغهاى عقد مؤتمر لشباب رجال الأعمال من ٢١ دولة مع المسئولين الحكوميين فى المدينة، وكان الهدف من هذا المؤتمر تعريف شباب المستثمرين فى هذه الدول على التطورات التى تحدث فى الصين وفى العالم، وشهدت شنغهاى قمة رؤساء منظمة «ايبك» APEC وحضرها رؤساء أمريكا وكندا والصين ورئيس وزراء اليابان وقادة ٢١ دولة.

❑❑❑

والأرقام عن حركة التجارة بين مصر وشنغهاى تحتاج إلى وقفة. ففى عام ١٩٩٨ كانت قيمة الصادرات المصرية إلى شنغهاى مليونا و٧٠ ألف دولار وقيمة الواردات المصرية من شنغهاى ٤٤ مليونا و١٦ ألف دولار ، وكان الفرق بين الصادرات والواردات من هذه المدينة ما يقرب من ٤٣ مليون دولار لصالح شنغهاى. وفى عام ٩٩ زادت الصادرات المصرية إلى شنغهاى فأصبحت ٥ملايين و٨٠ ألف دولار والواردات ٤٢ مليون دولار، وفى عام ٢٠٠٠ بلغت الصادرات المصرية إلى شنغهاى ١٧ مليون دولار والواردات ٤٤ مليونا ونصف مليون، وفى

ثلاثة شهور فقط من يناير حتى مارس ٢٠٠١ بلغت الصادرات المصرية ٥ ملايين دولار والواردات من شنغهاى ١٢ مليونا.. وهذا هو الفرق.!

الصادرات المصرية إلى شنغهاى تشمل الرخام، والقطن، ومواد خام للغزل والنسيج، والسجاد.والسيراميك، والخردة، واللدائن، والواردات من شنغهاى إلى مصر تشمل: سيارات وقطع غيارها، وأفرانا، ومعدات، وقطنا، ومنتجات معدنية، وتليفزيونات، وراديو، وأجهزة تسجيل، وملابس، ولعب أطفال.. الخ

❑ ❑ ❑

وتسأل فى الصين: كيف حققتم كل هذا النجاح فى جذب الاستثمارات الأجنبية؟ فيقولون لك: الاستقرار السياسى، السوق الواعدة، إمكانية كبيرة جدا لتطوير العلوم والتكنولوجيا والاقتصاد، تحسن مستمر فى الخدمات والبنية الأساسية، استقرار العملة، تزايد احتياطى النقد الأجنبى، انخفاض تكاليف الإنتاج نسبيا، وهذه العوامل مجتمعة هى التى تخلق مناخ الاستثمار، ولا يخلق هذا المناخ بالقانون وحده، أو بالإعفاءات الضريبية وحدها..

وتسألهم: وماذا حققتم بالضبط؟

فيقولون: فى السنوات الثلاث الأخيرة من القرن العشرين تجاوز إجمالى الاستثمار فى الصين ١٢٠٠ مليار دولار، منها ٨٠٠ مليار دولار لبناء المنشآت الأساسية فقط، وفى هذه السنوات وصل حجم الواردات ٦٠٠ مليار دولار أكثرها رأس مال مشروعات وتكنولوجيا وأجهزة وآلات للمصانع الجديدة.. وخفضنا التعريفة الجمركية.

وتسألهم: ماذا استفدتم.؟

فيقولون: أضافت الاستثمارات الأجنبية عائدات كبيرة إلى الميزانية الصينية، ووفرت فرص عمل لأكثر من ١٨ مليون مواطن، وحصلنا على ٢٦ مليار دولار قيمة الضرائب على الأعمال ذات العلاقة بالأجانب، وساعدت

الاستثمارات الأجنبية فى الإسراع بعملية إصلاح الشركات المملوكة للدولة واستفادت من ذلك ١٢٠ ألف شركة، وكسبنا شيئاً مهماً هو اكتساب الخبرة بالتكنولوجيا العالية والإدارة الحديثة، وأصبح لدينا عمال ومتخصصون وخبراء يتعاملون مع هذه التكنولوجيا العالية والإدارة الحديثة..

وليست شنغهاى وحدها الجاذبة للاستثمارات الأجنبية ولصناعات التصدير والتكنولوجيا.. فهناك مناطق أخرى حققت معجزات لا تقل عن معجزة شنغهاى وبودونج.. وقصة نجاح الصين فى جذب الاستثمارات العالمية والشركات عابرة القارات قصة مثيرة . . ويمكن أن نستفيد منها، ولدينا فرص وميزات لا تقل عما لديها..

قصة نجاح

كل من قابلته فى الصين كنت أسأله : ماذا فعلتم لجذب الاستثمارات الأجنبية لإقامة مصانع متخصصة فى التكنولوجيا الحديثة ؟

وكانت الإجابة دائما : اذهب إلى المناطق الخاصة التى جذبت المستثمرين والشركات العالمية الكبرى.. فستجد أن المسألة ليست سهلة.. المستثمرون لا يأتون إلينا لمجرد أن نقول لهم تعالوا.. ولا تنفع معهم برامج التليفزيون أوالدعوات على العشاء.. أو الاتصال برؤساء الدول.. المستثمرون يبحثون عن «مناخ الاستثمار» أى الظروف التى تجعلهم يحققون ربحا مضمونا وبدون مشاكل أو عقبات.. يبحثون عن تسهيلات بدون رشاوى أو عمولات أو بأقل قدر منها..

وسألت : أين اذهب لأكتشف السر ؟..

قالوا: فى الصين مناطق كثيرة ستجد فيها السر.. اذهب إلى ثلاث منها على الأقل لترى فى كل منها بعض زوايا التجربة..

وهكذا وجدت نفسى ذات مساء فى طائرة متجها إلى مدينة شنجن التى قالوا لى إنها كانت أفقر وأسوأ مناطق الصين، وكانت عبارة عن قرية ساحلية صغيرة مهملة من قرى الحدود مكونة من البيوت الفقيرة ويسكنها ٣٠ ألفا يعيشون على صيد السمك والرعى والزراعة البسيطة.. وقد احتفظوا بأحد أحياء المدينة القديمة وأكواخها من الطين والقش وبعض سكانها، وأمام العشش الماعز وأدوات الصيد.. لكى يظهر الفارق بين الأمس واليوم.

قالوا لى: إن هذه المدينة كانت حتى سنة ١٩٨٠ مساحتها ثلاثة كيلو مترات مربعة فقط لا غير، ولكى يتم تحويلها إلى منطقة جاذبة للاستثمارات الكبرى حدث ما يلى :

أولا : أقيمت شبكات مواصلات حديثة ومنتظمة بريا، وجويا، وبحريا فأنت تستطيع أن تصل إليها من أى مكان فى العالم بسهولة. وتستطيع أن تتصل بأى مكان فى العالم بمنتهى السهولة.. وسيسير مترو الأنفاق فيها بعد سنتين والعبّارات تسير فى خطوط منتظمة من وإلى هونج كونج فى ساعة واحدة، ولذلك فإن بعض الخبراء الأجانب العاملين فى هونج كونج يفضلون الإقامة فى شنجن.

ثانيا : أنشئ فى المدينة مطار دولى على أحدث طراز يتسع لثلاثة أضعاف حجم الطيران والمسافرين الحالى، وهو من أكبر أربعة مطارات فى الصين.

ثالثا : أنشئ ميناء دولى يحتل المرتبة الثانية على مستوى البلاد من حيث حجم النقل والحاويات.

رابعا: أنشئت شبكات من الطرق والمياه والكهرباء والصرف الصحى.

خامسا : تم تخطيط المدينة تخطيطا عصريا وخصصت كل منطقة لنوع من النشاط ووفرت الدولة مساحات من الأرض لكل المشروعات. وأتسعت المدينة حتى أصبحت مساحتها أكثر من ٣٠٠ كيلو متر مربع، وأصبح عدد سكانها أربعة ملايين ونصف مليون من الصينيين والأجانب من كل الجنسيات.. وشمل تخطيط المدينة توفير كل ما يحتاج إليه الأجانب : فنادق ٥ نجوم.. مساكن من مستويات متعددة، ملاعب جولف، مدارس دولية للغات لأبنائهم، أندية، مدينة ثقافية وترفيهية كاملة فيها لعب أطفال تقضى فيها الأسرة إجازاتها فلا تشعر بالملل.

□ □ □

قالوا لى: لقد عملنا – باختصار – على أن تكون هذه المدينة مركزا إقليميا فى مجال الاقتصاد، ومدينة عالمية عصرية بمعنى الكلمة.. راعينا أن

يكون بناء المنشآت الأساسية من الدرجة الأولى عالميا، وكانت أول مشكلة هى النقص فى موارد المياه.. كيف يمكن تحقيق تنمية بدون توفير المياه الكافية للصناعات وللمستهلكين؟.. ولذلك بدأنا بمشروعات لتوفير المياه تكلفت ٦٠٠ مليون دولار..

وبالسيارة قمت بجولة فى أحياء المدينة.. ولم أصدق أن هذه مدينة فى الصين.. فهى أجمل وأكثر تنظيما وتنسيقا من كثير من المدن الأوروبية.

منطقة تجارية فيها مراكز تجارية على مستوى المراكز الكبرى فى أوربا.. ومنطقة للمؤسسات المالية والاقتصادية فيها مبانى البنوك العالمية الكبرى وفيها أيضا بورصة شنجن التى بدأت سنة ٩٠ فى إدارة الأوراق المالية على سبيل التجربة وأصبحت الآن بورصة مليئة بالحركة والحيوية.

ومنطقة صناعية فيها شركات عملاقة.. كل الشركات العالمية فيها.. وصل عدد شركات الاستثمار فى هذه المدينة ٢٠ ألف شركة معظمها يعمل فى التكنولوجيا الحديثة لإنتاج الكمبيوتر وأجهزة الاتصالات الأرضية والفضائية وشبكات الانترنت والتليفزيون واقراص C.D. و D.V.D. والأثاث ومستلزمات الديكور والأدوات الطبية وآلات الصناعة والملابس والساعات.

فى هذه المنطقة تجد مصانع لشركات كومباك وI.B.M. للكمبيوتر، وآلات التصوير السينمائى والفيديو وهيتاشى اليابانية المعروفة وسامسونج وعشرات المصانع لشركات من هذا المستوى.

ويدهشك أن هذه المدينة الصناعية هى فى حقيقتها حديقة كبرى، وكما قال العمدة لى تسى يين - فإن المساحة الخضراء فيها تبلغ ٤٥٪ من المساحة الكلية للمدينة، وفيها وسائل التسلية وقضاء الإجازات وأوقات الفراغ.. فيها ٩ أندية للجولف واستاد رياضى ضخم تقام فيه مباريات دولية مستمرة.. وحدائق جميلة جدا وكبيرة جدا.. ومنظمة جدا.. أجملها قرية

«الثقافة والفلكلور الصينى» وفيها مساحات لكل قومية فى الصين وفى كل منها تُقدم عروض للفنون الشعبية، والقصص والأساطير فى شكل تمثيلى وغنائى ورقصات تعبيرية وحديقة للحيوانات وفيها أيضا حمامات سباحة وشواطئ.. وفى هذه المدينة ١٣٩ فندقا وبلغ عدد الليالى السياحية فيها سنة ٢٠٠٠ حوالى ١٤ مليون ليلة، منها ٤ ملايين ليلة سياحية لزوار من خارج الصين، ولزوار هذه المدينة تمنح تأشيرة الدخول فورا ومجانا للمجموعات السياحية وهذا شجعهم على قضاء بضعة أيام ضمن برنامج السياحة إلى هونج كونج.

فى هذه المدينة أندية للرشاقة والسونا ومراكز تجميل.. وفيها ايضا مكتبة عامة ضخمة والكتب فيها بمختلف لغات العالم.. وفيها متاحف وأندية للعلوم وخمسة مسارح تستضيف فرقا مسرحية وغنائية من مختلف دول العالم وفيها ٧٧ مستشفى و٤٥٠ عيادة طبية وفيها كنائس ومعابد، وباختصار فيها كل ما يحتاج إليه المستثمر الأوربى أوالأمريكى للإقامة بالأسلوب الذى تعود عليه فى بلده دون أن يشعر أن هناك شيئا ينقصه وهذا يغريه بتكرار الزيارة ويغرى الكثيرين بالإقامة مع أسرهم.

□□□

عمدة شنجن «لى تسى يين» يقول: إن قيمة الإنتاج فى المدينة حقق خلال السنوات العشر الأخيرة زيادة سنوية بنسبة ٦٪ وأصبحت المدينة وإنتاجها من التكنولوجيا الحديثة Hightic يمثل ٣٥٪ من إجمالى الإنتاج، وفى الخطة التى ننفذها ستصبح هذه المدينة فى سنة ٢٠١٠ مدينة عصرية دولية بالمعنى الكامل والعمل مستمر فى تطوير صناعات التكنولوجيا الحديثة وربط المدينة بهونج كونج.

ويقول العمدة أيضا: إن أصعب المهام لتحديث البلد هو إصلاح أجهزة الحكومة والشركات المملوكة للدولة، وهذه المدينة بدأت سنة ١٩٤٤ باختيار ٣٥ شركة مملوكة للدولة لتجربة النظام الإدارى الحديث فيها، ثم بدأت فى سنة ١٩٩٧ تطبيق لوائح نظم جديدة لاختصاصات ومسئوليات رئيس مجلس الادارة والمدير العام ومجلس الادارة ولجنة المراقبة. وأصبح لمجلس الإدارة ولرئيس مجلس الإدارة حرية التصرف، وفى نفس الوقت فإن لجنة المراقبة تراقب أعمال مجلس الإدارة، وفى كل شركة مجلس مديرين لتحقيق القيادة الجماعية، ثم ركزنا على إصلاح نظم التسويق، ووضعنا نظاما للحوافز، وفى شركات التكنولوجيا الحديثة أصبح للعمال نصيب من الأسهم، وبذلك ارتبطت مصالحهم بزيادة وتحسين الإنتاج وتحقيق الأرباح، وهذه النظم تطبق الآن فى ١٤٦ وحدة.. كذلك تغير نظام التوظيف.. لم يعد التوظيف بمجرد الحصول على شهادة، ولكن باختيار الشخص الذى تنطبق عليه المواصفات اللازمة للوظيفة، وبامتحان ومنافسة بين المتقدمين لتشجيع المتفوقين والموهوبين..

يقول العمدة: مثلا فى شركة جيندى يتم فصل العمال الثلاثة الذين يحتلون المراكز الأخيرة فى التقييم وهم الذين لا يسايرون التطور، أو يهملون فى عملهم، أو يقل إنتاجهم عن المعدلات الموضوعة لكل منهم..

فى هذه المدينة شركة متخصصة للاستثمار فى العلوم والتكنولوجيا برأس مال مشترك ٦٦٪ منه للحكومة والباقى للمستثمرين الأجانب مقابل التكنولوجيا المتقدمة، وفتح قنوات التسويق الدولية. وهذه الشركة الآن هى الثالثة على مستوى العالم فى إنتاج الرأس المغناطيسى للآلات الحاسبة وتصدر جميع منتجاتها إلى أسواق أوربا وأمريكا.

يقول العمدة أيضا: فى المدينة مجموعات من رجال الأعمال من عدة دول متخصصين فى التكنولوجيا والإدارة والتسويق، ونحن الآن نختار لإدارة شركاتنا أكفأ من يستطيع إدارتها بصرف النظر عن جنسيته ووجود مدير أجنبى على درجة عالية من الخبرة والكفاءة يساعد على خلق كوادر من الإداريين المحترفين.

□□□

الجولة السريعة فى هذه المدينة تجعل الإنسان لا يصدق ما يراه وما يسمعه.. المنطقة المخصصة للصناعات التكنولوجية الحديثة فيها أكثر من ٣٥ شركة عالمية كبرى منها ١٧ شركة من أكبر ٥٠ شركة فى العالم.. وهذا ساعد على إنشاء شركات بأموال صينية قطاع خاص وبخبراء من الصين ومن الخارج منها مثلا شركة «ليجند» للكمبيوتر، وشركة «مجموعة سور الصين العظيم للكمبيوتر» .. وشركات أخرى تعمل فى مجالات تكنولوجيا المعلومات، والأحياء، وعلوم الفضاء، و استثمار البحار، والمواد الحديثة، حتى إن قيمة إنتاج هذه المدينة فى تكنولوجيا المعلومات فقط وصل إلى ٩ مليارات دولار سنويا، وقد حصلت الصين على حقوق الملكية الفكرية لهذه المنتجات من الشركات الأمريكية واليابانية والأوربية..

وتقيم مدينة شنجن معرضا دوليا كل سنة لمنتجاتها التكنولوجية الحديثة وتدعو الشخصيات المشهورة فى صناعات تكنولوجيا المعلومات والمواد الحديثة والصناعات القائمة على استخدام الجينات والهندسة الوراثية.. وفى معرض العام الماضى شاركت ٢٧ دولة منها الولايات المتحدة، وبريطانيا، وألمانيا، واليابان، وفرنسا، وسنغافورة، وشاركت فيه ٢٨٥٦ شركة من الصين.. وعلى هامش المعرض أقيمت ندوة اشترك فيها الخبراء من هذه الدول لبحث مجالات فتح التجارة الإلكترونية، وتحديث نظم

الاستثمار والمخاطر، ومبتكرات التكنولوجيا الحديثة، وكيفية تطوير هيئات التأمين والمخاطر فى تجارة منتجات التكنولوجيا الحديثة.

هذا المعرض وحده انتهى وحجم التجارة التى تمت فيه خلال ٦ أيام ٦ مليارات ونصف مليار دولار.. وبهذا المعرض ظهرت مدينة شنجن على الساحة العالمية.. وزاد تدفق الاستثمارات من الشركات الأجنبية.. شركة لوسينت الأمريكية قررت إنشاء مركز للبحوث واستثمار التكنولوجيا العالية وأعلنت أن هذه المدينة أصبحت قاعدة مهمة لتطوير صناعات التكنولوجيا الحديثة.. وشركة «فوشيكانج» أكبر شركة لإنتاج مكونات الكمبيوتر فى العالم قررت استثمار ٢٠٠ مليون دولار فى إنشاء قاعدة للإنتاج والأبحاث وأعلنت عن مشروع لتطوير هذه القاعدة حتى تصبح مدينة شنجن أكبر مدينة للكمبيوتر فى العالم!

□□□

مع الدكتورة دينج لينا المسئولة عن العلاقات الخارجية فى شنجن استمعت إلى قصص أقرب إلى الخيال عما تحقق فى هذه المدينة فى عشر سنوات فقط.. أصبحت مساحة شنجن ضعف مساحة هونج كونج.. المساكن فى شنجن أرخص بنسبة ٧٠٪ من هونج كونج، ولذلك يفضل آلاف من الخبراء والعاملين فى هونج كونج الإقامة فى شنجن والمسافة ساعة واحدة.. حركة البناء فى منتهى النشاط.. متوسط دخل العاملين فى المدينة ٤ آلاف دولار فى السنة، بينما متوسط الدخل فى الصين ٨٠٠ دولار سنويا، الفنادق عنصر جذب، مثلا فندق «وزهو» ٤٠٠ غرفة ينافس أرقى فنادق نيويورك وباريس ، المدينة تحتل رقم ١١ على مستوى العالم فى حركة الميناء وتسهيلات السفن وشحن البضائع رغم أن هذا الميناء الحديث عمره ٧ سنوات فقط، فى المدينة مكتب واحد لكل معاملات المستثمرين..

الميزة التى تقدمها المدينة للمستثمرين «بيئة خالية من المشاكل» .. قطارات هوائية فائقة السرعة تربطها ببكين والمدن الصينية الكبرى..

فى مدينة شنجن صحيفة يومية زرتها فوجدت المبنى مكونا من ٦٠ طابقًا!

وطبعا أخفيت دهشتى !

❑❑❑

وحاولت أن أخفى دهشتى أيضا عندما زرت شركة «هواوى» للتكنولوجيا.. وهى شركة مملوكة بالكامل للقطاع الخاص برأس مال رجال الأعمال الصينيين يعمل فيها ١٩ ألف مهندس وخبير وفنى وعامل.. تنتج معدات الاتصالات ذات المستوى العالى.. لها ٤٥ فرعا فى أنحاء العالم منها فرع مشترك مع رأس مال برازيلى فى البرازيل، والفرع الثانى برأس مال روسى مشترك ومقره فى روسيا، وفى الشركة خمسة مراكز للدراسات والبحوث تجذب أكفأ الخبراء الصينيين الذين كانوا يعملون فى الشركات العالمية الكبرى فى الخارج، وللشركة ٤٠ مكتب تمثيل فى ٤٠ دولة من بينها مصر، و٣٣ مكتبا داخل الصين، ولها فرعان فى أمريكا وفرع متخصص فى تطوير التليفون المحمول و٥ مراكز بحوث خارج الصين للاستفادة من نتائج التقدم العلمى فى الدول الكبرى، منها مركز للأبحاث العلمية والتطوير فى السويد متخصص فى إنتاج الجيل الثالث من التليفون المحمول بالصوت والصورة، ومركز فى موسكو لأبحاث ترددات الراديو، وأبحاث تطوير إنتاج برامج الكمبيوتر والأقراص المغنطة، ومركز أبحاث فى بنجالور فى الهند متخصص ايضا فى برامج الكمبيوتر.

هكذا تمد شركة واحدة أذرعها فى كل أنحاء العالم بحثا عن تطوير إنتاجها وفقا لآخر ما وصل إليه العلماء فى كل الدول.. ولها أيضا مصانع

فى الخارج - بدلا من التصدير من الصين - لتوفير مصاريف الشحن وتقليل التكلفة، وبذلك تنتصر فى المنافسة وتقدم إنتاجها بسعر أرخص، لها مصنع فى روسيا لإنتاج محولات التليفون بالكمبيوتر ينتج ٦٠٠ ألف محول سنويا، ولها مصنع فى البرازيل، ومصنع فى كولومبيا، ومصنع فى أمريكا لإنتاج مولدات قوى كهربائية، وتصدر لمصر محولات التليفون وأجهزة الاتصال بالانترنت، وتصدر إلى كينيا وزيمبابوى شبكات المعلومات الذكية، وتصنع فى المانيا مكونات المحولات وهى موجودة فى تايلاند، وفيتنام، وسنغافورة وتصدر لها شبكات المعلومات..

قال لى المسئول فى الشركة: سيكون لدينا بعد عامين مركز أبحاث جديد تحت الإنشاء الآن سيضم ١٠ آلاف باحث.. ولدينا الآن ٢١ خط انتاج، وإنتاجنا يبلغ عشرة مليارات دولار سنويا ولدينا طاقة لزيادة الإنتاج، ولكن ظروف السوق الدولية تجعلنا نتوقف عند هذا الحد ونكتفى بالعمل وردية واحدة.. نحن نهتم جدا بالتطوير وبالأبحاث العلمية. فى سنة ٩٨ أنفقنا على الأبحاث ٦٧ مليون دولار، وفى سنة ٩٩ أنفقنا ١٦٢ مليون دولار. وفى سنة ٢٠٠٠ أنفقنا ٢٦٤ مليون دولار.. واهتمامنا بالأبحاث والتطور يتضح من خريطة العمالة فى الشركة؛ الخبراء والباحثون والعلماء يمثلون ٤٥٪ من عدد العاملين وفى التسويق وخدمة المستهلكين ٣٥٪ وفى الإنتاج ١٠٪، وفى الإدارة و الخدمات ١٠٪.. والمستوى العلمى للعاملين فى الشركة مرتفع ٨٥٪ من العاملين بدرجة الدكتوراه والبكالوريوس..

أما مبيعات هذه الشركة فهى فى صعود سنة بعد سنة..

٨٠٪ من الشركة مملوك للعاملين فيها بأسهم داخلية ليست مسجلة فى البورصة، وتطرح الشركة الأسهم الجديدة مرتين فى السنة، لكى تلبى طلب العاملين عليها لأنها تحقق لهم عائدا مجزيا.

إنتاج الشركة متنوع: محولات، شبكات وهوائيات التليفون المحمول، تكنولوجيا الاتصالات، شركة الكاتيل فى المرتبة الأولى، وشركة لوسن الأمريكية فى المرتبة الثانية، وسيمنس الألمانية فى المرتبة الثالثة، وشركتنا ترتيبها ١٢ على مستوى العالم، مع أن عمر الشركة ١٢ سنة فقط.. ننتج الآن شبكات للترددات الواسعة لإسراع التعامل مع الانترنيت؛ والسوق فى الصين تستوعب جانبا كبيرا منها مع انتشار استخدام الانترنيت.. ننتج شبكات «الفيديو كونفراس» ومحولات الصورة ورقائق الكمبيوتر ونصدرها لأمريكا..

كل هذا فى مدينة واحدة.. فهل هى المدينة الوحيدة التى أصبحت تتحدث عن نفسها تحت عنوان «صدق أو لا تصدق» ؟.

❑ ❑ ❑

وطبعا ليس مصنع « هواوى » وحده الذى أذهلنى.. أذهلنى مصنع آخر اسمه «ليوتشو» لإنتاج الآلات الهندسية، يحتل المركز الأول من حيث كمية الإنتاج وقيمة المبيعات.. هذا المصنع ينتج ٢٠٪ من إنتاج الصين من سيارات النقل والحفارات والجرافات والبلدوزرات. ويصدر إنتاجه إلى ٣٠دولة، وأسهمه فى البورصة، وأنشأ شركة استثمارات مشتركة مع شركة ألمانية لإنتاج أجزاء توصيل الحركة للآلات ، ومما يلفت النظر أن كل شركة فى الصين فيها قسم كبير للأبحاث والتطوير ومتابعة الجديد فى العالم فى مجال عملها.. هذه الشركة أيضا فيها قسم للبحث العلمى يعمل فيه عدد كبير من الخبراء الصينيين الحاصلين على الدكتوراه من دول أوربية.

ومصنع آخر تابع لمجموعة «ليوتشو» يصنع سيارات النقل وسيارات الميكروباس، فى سنة ٩٨ وصلت مبيعاته إلى ١٠٠ ألف سيارة.. ولذلك قال مدير المصنع بثقة: إن ترتيبنا الأول فى الصين من حيث الإنتاج، ولكن نحن

نعمل بكل طاقتنا لتحسين وتطوير إنتاجنا وزيادة الإنتاج ليصل إلى ١٥٠ ألف سيارة للتصدير.

ليس هذا فقط، فقد قال مدير هذه الشركة أيضا: أنا وكل العاملين ندرك أن أمامنا اختبارات صعبة، ونحن نستعد لمرحلة انضمام الصين إلى منظمة التجارة العالمية، وليس من السهل منافسة السيارات الأوروبية والأمريكية التى اكتسبت شهرة.. ولكننا نقبل التحدى وسندخل المنافسة فى السوق العالمى..!

وفى شركة «ليوتشو» للحديد والصلب قال مديرها: إنها كانت تخسر حتى سنة ١٩٩٨ وكانت خسائرها ٣٥ مليون دولار واستمر هذا الوضع حتى زادت أزمة الشركة مع انهيار أسعار الصلب فأصبحت الخسائر ١٤٠ مليون دولار ووقعت الشركة فى ورطة كبيرة.. وبدأنا برنامجا للإصلاح المالى والإدارى للشركة ظهرت نتائجه فى سنة ١٩٩٨ حيث تحولت الشركة من الخسارة إلى الربح، وبلغت أرباحها ٨ ملايين دولار بعد سداد الخسائر.

ولم نفعل إلا ما هو ضرورى.. خفضنا تكاليف الإنتاج.. وخفضنا عدد العاملين من ٢٠ ألف عامل إلى ١٠ آلاف.. وقمنا بإعادة توزيع الموظفين فى إدارات الخدمات.. وأوقفنا نزيف الإسراف فى كل صوره..

الذهول لم يفارقنى وأنا أتابع ما قيل لى عن شركة أخرى اسمها «وين تك» للإلكترونيات تنتج كمبيوتر محمولا للجيب واجهزة للاتصال بالإنترنت، وتبادل المعلومات والاتصال بين أجهزة الكمبيوتر الشخصى..

صدق .. أو لاتصدق !

❑❑❑

الشىء الذى يلفت النظر فى الصين أن الانفتاح أدى إلى توسيع الطبقة الوسطى ونشأة طبقة رجال المال والأعمال.. وفى خارج الصين هناك عشرات

الآلاف من الصينيين حققوا ثروات وأصبحوا فى مواقع مهمة فى المراكز العلمية والشركات والجامعات.. هؤلاء جميعا ولاؤهم للصين.. يستثمرون أموالهم داخل الصين.. ولايلجئون إلى الكسب السهل السريع.. يركزون جهدهم على الاستيراد والتجارة، ولكنهم يعملون فى الصناعات الدقيقة والتكنولوجيا العالية، ويفتحون الأسواق للتصدير ويستعينون بكل من يساعدهم فى أى مكان فى العالم.. ولذلك يستقدمون خبراء من ا لخارج ليشاركوا فى إدارة الشركات ومراكز الأبحاث.. وينقلوا الخبرة من الدول المتقدمة.. وكل خطة يضعونها ينفذونها بالكامل وبكل دقة.. الكلام عندهم يعنى العمل.. والوعود عندهم لابد أن تنفذ.. والحساب عسير لمن يتكلم ولا يعمل.. ولمن قدم وعدا ولم ينفذه!.

تلمس من كل من تقابله الجدية.. والعزيمة.. والطموح.

الروح المعنوية عالية جدا لدى كل من قابلتهم من المسئولين وغير المسئولين وتلمس ذلك فى الشارع وفى المصنع وحتى على وجوه الشيوخ على المعاش الذين يتجمعون فى الحدائق ليتبادلوا الأحاديث والسمر ويلعبوا مع أحفادهم..

ومعركة الصين هى جذب الأموال من الخارج للتنمية.. وتحصل على الأموال من قروض من حكومات أجنبية، ومؤسسات مالية دولية، وتصدر سندات وأسهما فى الأسواق الخارجية، كما تجذب المستثمرين الأجانب.. وتقدم لهم كل الخدمات التى يحتاجون إليها بحيث لايشعرون بالنقص.. تؤجر لهم مناطق حرة.. تعطيهم الحرية الكاملة فى تجارة الترانزيت مع رقابة شديدة جدا لمنع التهريب للداخل وتسهل لهم استيراد مكونات الصناعة لتجميعها وإعادة تصديرها..

والنتيجة أن الصين حصلت فى ١٩ سنة فقط - من ١٩٧٩ إلى ١٩٩٧ - على رأس مال أجنبى بلغ ٣٤٨ مليار دولار منها ٢٢٠مليار دولار استثمارًا أجنبيًا مباشرا موجها كله للصناعات المتقدمة.

الصين الآن فى المركز الأول بين الدول النامية، وفى المركز الثانى على مستوى العالم بعد أمريكا فى جذب الاستثمارات الأجنبية..

هى قصة نجاح فى التنمية..

قصة يطول شرحها..

ولكن لابد أن نعرفها.. بكل تفاصيلها ودقائقها.. لنتعلم منها..

وما أحوجنا لأن نتعلم ! ..

معجزة الانفتاح

نموذج الإصلاح الاقتصادى فى الصين نموذج خاص جدا وليس له مثيل فى العالم.. وإذا قمنا بدراسته وتحليل نتائج الإصلاح الاقتصادى فى كل الدول النامية، فلن نجد دولة استطاعت تحقيق كل هذا النجاح الذى حققته الصين.. حتى إن كل الذين كتبوا عن الصين من الغرب والشرق قالوا إنها حققت معجزة، ولذلك كان أول ما أردت معرفته فى رحلتى هو: كيف حققت هذه المعجزة..؟ وهل هى قابلة للتكرار؟ وهل يمكن لنا أن نستفيد منها؟

الصين بدأت تنفيذ سياسة الانفتاح الاقتصادى على الغرب فى سنة ١٩٧٨.. ولم يكن هذا الانقلاب فى السياسة الاقتصادية من الانغلاق إلى الانفتاح وليد لحظة من لحظات الإلهام.. أو استجابة لرغبة فى تحقيق «صدمة كهربائية» للمجتمع الصينى أو للغرب.. ولكنه جاء بعد دراسات ومناقشات استغرقت وقتا طويلا، ثم أعيد بحثها فى الدورة الثالثة الكاملة للحزب، وتبلورت الدراسات والمناقشات فى نظرية جديدة غيرت المفاهيم الأساسية فى سياسات الصين الداخلية والخارجية، أسموها « النظام الاشتراكى ذا الخصائص الصينية» وهو نظام يجمع بين بعض آليات السوق، ويسمح لبعض المناطق بحرية العمل لتطبيق آليات السوق بالكامل، مع الإبقاء على سلطة الدولة، والالتزام بالتخطيط الشامل الذى يسير بدقة وتنفذ فيه الخطط الخمسية بالكامل.

الانفتاح فى الصين لم يتحقق بخطوة واحدة ولم يفتح الباب على مصراعيه للاستثمارات الأجنبية بين يوم وليلة، ولكن النظرية كانت

قائمة على مبدأ «الإصلاح المتدرج فى كل الاتجاهات وكل المجالات»، إصلاح النظم الإدارية وتطوير عقلية الموظفين والأخذ بسياسة الحساب والثواب والعقاب.. إصلاح التشريعات الاقتصادية.. وإصدار قوانين تحدد بوضوح الإطار الذى يعمل فيه الاستثمار الأجنبى.. وإصلاح هياكل الدولة بالاعتماد على كوادر من الخبراء والمتخصصين وأصحاب المواهب والقادرين على تنفيذ السياسة الجديدة بعقلية متفتحة.. وإصلاح نظم الرقابة والمحاسبة لأن الانفتاح الاقتصادى يفتح الباب عادة للفساد.. والانحراف الإدارى.. وبعد ذلك بدءوا فى إنشاء مناطق جديدة..

فى سنة ١٩٧٩ وتقريبا فى الوقت الذى بدأنا فيه اعتبار بورسعيد مدينة حرة أنشئوا خمس مناطق اقتصادية خاصة تقع معظمها فى جنوب شرقى الصين، واعتبروها بوابة الانفتاح على العالم الخارجى، وحددوا هدفها بجذب الاستثمارات الأجنبية.. ومنحوا المستثمرين تسهيلات فى الضرائب وغيرها.

وفى سنة ١٩٨٤ - أى بعد ٥ سنوات - زادت المناطق الخاصة فأصبحت ١٤ مدينة ساحلية تتعامل مباشرة مع العالم الخارجى بحكم موقعها وسهولة المواصلات والاتصالات بينها وبين أمريكا وأوروبا.. ومن هذه المدن شنغهاى.. وداليان.. وتيانجين.. ونينبو.. الخ.

بعد ذلك فى سنة ١٩٨٥ وسعوا مساحات مناطق الانفتاح والاستثمار فاختاروا ٧ مناطق ساحلية تضم فى معظمها كل هذه المدن الأربع عشرة كما تضم عواصم بعض المقاطعات مثل دلتا نهر اليانجتسى جنوب شرق الصين، ونهر اللؤلؤ بالقرب من مكاو.

وفى سنة ١٩٩٠ أى بعد ٥ سنوات أخرى أنشئوا منطقة جديدة قريبة من شنغهاى مساحتها ٣٥٠ كيلو متر مربع لتكون مركزا جديدا ومتطورا لقيادة مدينة شنغهاى، وتساير أحدث ما فى العصر من تكنولوجيا ومن تقدم حضارى، وتتمتع بأفضل امتيازات الاستثمار الأجنبى.

وفى سنة ١٩٢٢ جعلوا المدن الواقعة على حدود الصين مع جيرانها تتمتع بخصائص ومزايا مدن الانفتاح، لإعطاء تسهيلات للتجارة والاستثمار المشترك بينها وبين جيرانها.

وفى نفس السنة - ١٩٩٢ - أنشئوا ١٣ منطقة تجارة حرة على مستوى الدولة كلها.

وأيضا أنشئوا مناطق تنمية الاقتصاد والتكنولوجيا وتشمل ٣٢ منطقة لتطوير اقتصاد المدن واستيعاب التكنولوجيا الحديثة، ولإعطاء الفرصة للمستثمرين الذين يستخدمون التكنولوجيا المتفوقة High Tec. ومعها أنشئوا ٥٢ منطقة للصناعات التكنولوجية فى المدن الكبيرة والمتوسطة. وأنشئوا منطقة «يانجبو» على نموذج المناطق الحرة فى الدول الأجنبية.. واعتبروا عواصم المقاطعات ومناطق الحكم الذاتى والبلديات مدنا مفتوحة وعددها ٣١ منطقة.

□□□

وفى الصين عشرات النماذج للنجاح فى تنفيذ سياسة الانفتاح وجذب الاستثمارات الأجنبية والزيادة فى حجم التصدير، ومقاطعة جيانجسو مثال على ذلك، فقد أصبحت خلال عشرين عاما من العمل الجاد من المقاطعات المتقدمة اقتصاديا وتكنولوجيا، وتحقق أعلى معدل نمو اقتصادى بين مقاطعات الصين.

وكانت هذه المقاطعة قد بدأت فى سنة ١٩٩٠ تنفيذ استراتيجية الانفتاح، وكانت جملة صادراتها فى سنة ١٩٧٤ فى حدود ٧٧ مليون دولار، ارتفعت فى عام ١٩٩٠ فأصبحت ٢٩٤٩ مليون دولار، ثم قفزت فى عام ١٩٩٦ لتصل إلى عشرة مليارات دولار، ومن يناير إلى أكتوبر عام ٢٠٠٠ أى خلال عشرة شهور فقط، وصلت الصادرات إلى ٢١ مليارا و١٣ مليون دولار.. ومع ذلك فإن المسئولين فى جيانجسو يتحدثون بتواضع عن هذه الأرقام المذهلة، ويقولون

إذا كانت الصادرات قد وصلت خلال ٢٣ سنة إلى ما يزيد على ١٠ مليارات دولارا سنويا وارتفع رقم الصادرات من ١٠ إلى ٢٠ مليار دولار سنويا فى أقل من ٤ سنوات، فإن هذا يدل على أننا نستطيع أن نحقق ما هو أكثر !

ومقاطعة جيانجسو على الساحل شرق الصين قفزت بصادراتها من المركز الخامس إلى المركز الثانى على مستوى الصين، وتحولت صادراتها من السلع التقليدية إلى المنتجات الصناعية ذات التكنولوجيا المتقدمة، وبعض شركاتها خرجت لإقامة فروع لمصانعها فى دول أخرى مثل مجموعة «قواندا» التى أنشأت مصنعا فى كمبوديا ومجموعة «جيانجكوى» التى أقامت مصنعا فى الولايات المتحدة لتجميع أجهزة .D.V.D ومجموعة «جينشنج» التى أنشأت مصنعا لتجميع الدراجات البخارية فى كولومبيا، وشركة «جيانجسو» لإنتاج اجهزة القياس التى أنشات مصنعا فى الاكوادور.. وبذلك تصل الصناعات الصينية إلى داخل الأسواق فى الدول الأخرى، وتنافس بأسعار أقل من السلع المثيلة، وفى نفس الوقت تصدر هذه المقاطعة الأجهزة التكنولوجية الجاهزة للخارج..

وحتى أكتوبر عام ٢٠٠٠ أنشأت مقاطعة «جيانجسو» ٤٠٠٥٣ شركة باستثمارات أجنبية ومشتركة وفيها ١٢ شركة يزيد حجم صادرات كل منها على مائة مليون دولار..

وفى هذه المقاطعة مناطق للتنمية التكنولوجية المتقدمة، ومركز لأبحاث تطوير التكنولوجيا، وفيها ٢٢٠٠ مؤسسة كبرى للتجارة الخارجية، و٢٤٦٠ شركة ومكتبا للتصدير، والهدف الآن أمام هذه المقاطعة أن يصل حجم صادراتها عام ٢٠٠٥ إلى ٤٠ مليار دولار.. وعندما يأتى عام ٢٠٠٥ وتحقق رقما أقل من ذلك فسوف يكون الحساب عسيرا لكل المسئولين فى هذه المقاطعة.

❑❑❑

وفى الصين تسمع وترى وتلمس من المسئولين عن تحديث البلاد وتنفيذ سياسة الإصلاح والانفتاح والتكنولوجيا ما يدل على الجدية الشديدة، مثلا مدير عام شركة لإنتاج شاشات التليفزيون يخصص إنتاجها بالكامل للتصدير قال: إن السر فى تقدم الصين أنها أصبحت تحترم أصحاب الخبرة والكفاءة، والمجتمع الذى لايحترم أصحاب الكفاءة ولا يقوم بإعداد أصحاب الكفاءة العالية سيظل مجتمعا متخلفا عن غيره ولن يتقدم أبدا، والمجتمع الذى يعتمد على استيراد التكنولوجيا الجاهزة من الآخرين ولا ينتقل إلى مرحلة إنتاج التكنولوجيا ويعمل على تكوين الخبراء والعلماء والمهندسين بالمستوى العالى سيظل مجتمعا كسيحا يزحف وراء غيره إلى الأبد وينتظر الصدقات من القادرين.

وقد تأثرت بهذه الكلمات واعتبرت أننى وضعت يدى على أحد أسرار المعجزة الصينية.

❑❑❑

هكذا نفذوا سياسة الانفتاح بالتدريج.. خطوة خطوة.. وكلما تأكدوا من نجاح تنفيذ مرحلة انتقلوا إلى المرحلة التالية.. تطبيقا للحكمة الصينية التى تقول وأنت تعبر النهر يجب أن تتأكد أن قدميك تلمسان الأحجار فى القاع. وهى حكمة تماثل الحكمة المصرية القديمة التى لا ننفذها والتى تقول يجب أن تتأكد وأنت تسير أنك تقف وتسير على أرض صلبة.. أو الحكمة العربية التى تقول : « قدرٌ لرجلك قبل الخطو موضعها» وكانت فلسفتهم فى التدرج هى اختبار آليات السوق فى نطاق محدود لمعرفة تأثيراتها الاقتصادية والاجتماعية، للاستفادة من الإيجابيات والسلبيات وتفادى الأخطاء عند الخطوة التالية فى التوسع، وعندما يتأكد نجاح التجربة فى بعض المناطق تكون هذه التجربة هى القاطرة التى تسحب باقى عربات القطار.. ولذلك بدءوا الانفتاح بالمناطق الاقتصادية الخمس ،

ثم أعقبتها المدن الساحلية ذات الاتصال المباشر بالعالم الخارجى منذ فترات طويلة بحكم الموقع، وقد حققت هاتان الخطوتان نجاحا كبيرا فى جذب الاستثمارات الأجنبية، وتحققت فى هذه المناطق الخمس معدلات غير مسبوقة فى التنمية، نتيجة لإعطاء الحكومة صلاحيات اقتصادية وإدارية للسلطات التنفيذية لهذه المدن.. والنجاح يقود إلى مزيد من النجاح.. وهكذا تشجعت الحكومة الصينية على خوض التجربة بصورة أكثر حماسا وجرأة فى سنوات التسعينات.. وبدأت فى قبول التحدى.. بالسعى إلى استيراد ونقل التكنولوجيا الحديثة وخاصة فى مجالات الإلكترونيات والصناعات الدقيقة لكى تحقق طفرة تشجع باقى المدن والمقاطعات على تحقيق الحلم بدخول عصر التكنولوجيا المتقدمة.. وجعلوا من المناطق الجديدة مثل منطقة «بودونج» رمزا للسياسات التفضيلية فى تجربة الانفتاح والإصلاح الاقتصادى.

□ □ □

هذه الكيانات التى «تطبق سياسة الإصلاح والانفتاح» لم تكن منفصلة بعضها عن بعض، ولكن بينها تداخل كبير.. فالمناطق الاقتصادية الخاصة الحديثة تقع داخل أربع مقاطعات، والمدن الساحلية التى تطبق فيها سياسات الانفتاح تضم مناطق للتجارة الحرة، ومناطق لتنمية الاقتصاد والتكنولوجيا، ومنطقة جديدة مثل «بودونج» هى ضاحية جديدة أضيفت إلى مدينة شنغهاى.. وهكذا نفذت سياسة الإصلاح والانفتاح فى حلقات متداخلة جغرافيا وإداريا تتوزع بين المقاطعات، والبلديات، ومناطق الحكم الذاتى، وفى النهاية فإن الدولة حاضرة دائما وليست غائبة، وفى منتهى اليقظة وليست نائمة!

والصينيون يعتبرون أن المناطق الاقتصادية الخاصة هى الأساس الذى تم البناء عليه فى تجربة الإصلاح الاقتصادى والانفتاح، وهذه المناطق نجحت

نجاحا مذهلا فى جذب الاستثمارات الأجنبية، وتشجيع قيام شركات ومصانع يخصص إنتاجها للتصدير.

وهذه المناطق الخاصة التى بدأت بخمس مناطق ظل إنتاج مصانعها مخصصا للتصدير للخارج ، وتتجمع فيها مراكز البحث العلمى لتطوير الإنتاج، والمصانع ذات التكنولوجيا العالية، ومراكز التجارة والبنوك والاتصالات والخدمات المتصلة بالتجارة والنقل والشحن والتصدير، والخدمات اللازمة للمستثمرين. وفى هذه المناطق نظام خاص للإدارة الاقتصادية.. وتشجيع المستثمرين الأجانب يصل إلى حد منحهم أفضلية فى الضرائب أكثر مما فى المناطق الأخرى، وفيها أيضا تسهيلات فى الدخول إلى الصين والخروج منها لا تخضع لشروط ونظام الدخول والخروج فى سائر أنحاء الصين.. وأعطت الحكومة لهذه المناطق صلاحيات واسعة فى مجال الإدارة الاقتصادية وعينت فيها سلطة خاصة لإدارتها تتمتع بالمرونة وحرية الحركة.. وتخضع فى النهاية للحساب على النتائج!

ومن خلال هذه المناطق استطاعت الحكومة الصينية تجربة النظام الرأسمالى وآليات السوق لكى تقرر ما ستفعله بعد ذلك لتطوير وتنمية باقى الأقاليم، وجذبت الاستثمارات الأجنبية بصورة مباشرة ومن خلال تعاون مشترك بين رأس المال الصينى والأجنبى، ونجحت فى استيراد التكنولوجيا المتقدمة، واستعانت بخبراء فى الإدارة من أوربا واليابان، وتوسعت فى المعرفة والاحتكاك بالأسواق العالمية، وبالنظم المالية والمصرفية العالمية الحديثة، وحققت زيادة هائلة فى الصادرات وزيادة فى الدخل من العملات الأجنبية، وفتحت طريقا آمنا لزيادة التعاون الاقتصادى والتجارى على المستوى الدولى.

□ □ □

وإذا أردنا أن نستفيد بأكثر النماذج نجاحا فى تجربة الانفتاح فى الصين، وأكثرها تشابها مع منطقة شمال غرب خليج السويس فى مصر

فعلينا أن ندرس نموذج منطقة «بودونج» وهى تقع على ضفاف نهر اليانجتسى بمساحات من الأرض واسعة وموارد طبيعية متنوعة، وكثافة سكانية، وتتوافر فيها البنية الأساسية اللازمة للمشروعات الصناعية والزراعية.. والأرض والأيدى العاملة رخيصة.. وفيها أعداد كبيرة من العلماء والكوادر الإدارية والفنية المدربة.

ويقولون إن جوهرة منطقة دلتا نهر اليانجتسى هى مدينة شنغهاى، ومعهم حق لأن شنغهاى قريبة الشبه بمدينة نيويورك، الخدمات فيها على أعلى مستوى.. وناطحات سحاب.. وكل بنوك العالم الكبرى.. ولكن المهم أن منطقة بودونج الجديدة التى أنشئت مؤخرا شرقى شنغهاى اصبحت هى المركز الرائد فى هذه المنطقة وأكثر مناطق الصين انفتاحا الآن، وسيؤدى وجودها إلى تحويل شنغهاى إلى مركز اقتصادى ومالى وتجارى عالمى ينافس نيويورك، وفرانكفورت، ولندن، وتتحقق بذلك طفرة فى اقتصاديات دلتا نهر اليانجتسى وهى الآن أكثر المناطق الصينية جذبا للاستثمارات الأجنبية.

وقد اختاروا منطقة بودونج بالذات لتستفيد من موقع شنغهاى وفيها ميناء تجارى عالمى، وأيضا لتوافر الكوادر الفنية والعمالة المدربة الماهرة الرخيصة.. شنغهاى هى قبلة العقول والخبرات من كل أنحاء الصين وفى جميع المجالات.

وهذه منطقة « بودونج» الجديدة منحت الحكومة للمستثمرين فيها مزايا تفصيلية أكثر من المزايا الممنوحة فى المناطق الأخرى.. فالرسوم الجمركية أقل على بعض السلع وبعض السلع الأخرى تتمتع بالإعفاء الكامل من الرسوم الجمركية، وكذلك يتمتع المستثمرون فيها بإعفاءات

مـن الضريبـة الصناعيـة والتجاريـة ، وضريبـة الدخـل، والضرائـب المحليـة، ورسوم تراخيص الاستيراد والتصدير.. الخ.

وأكثر من ذلك تسمح الصين لرجال الأعمال الأجانب بإنشاء مؤسسات مالية، وفتح محال ومراكز تجارية، وشركات للخدمات، وتقوم بإدارة هـذه المنطقة سلطة خاصـة مستقلة لا تخضع لحكومـة شنغهاى، وتديـر سلطات المدينة أمورها بحرية كاملة ولا ينطبق عليها ما ينطبق علـى المدن الكبـيرة والمتوسطة خضوع للسلطة المركزيـة فـى بكين.. ويـرأس سـلطة منطقـة بودونج عمدة.

ومنطقة بودونج الجديدة تتكون من ٩ أحياء أو مناطق أساسية :

منطقـة للتجارة والبنـوك والمؤسسات الماليـة الكـبرى، ومنطقـة لتصنيـع منتجات التصدير، ومنطقـة للتجارة الحـرة، ومنطقـة للصناعـة، ومنطقـة للصناعات التكنولوجية الدقيقة، ومنطقـة للزراعـة الحديثـة التـى تستخدم الأساليب العلميـة، ومنطقـة سكنية غايـة فـى الجمـال ومليئـة بـالحدائق والنافورات والتماثيل وبالمدارس والملاعـب والأنديـة والكازينوهات والمطاعم، ومنطقـة ثقافيـة وسـياحية مليئـة بالمكتبـات والجامعـات والمـدارس ودور السينما والمسارح ومدينـة الملاهـى، ومنطقـة الحديقـة المركزيـة وهـى جنـة علـى الأرض يمكـن للأطفـال أن يلعبـوا فيـها اليـوم كلـه دون ملـل، ويمكـن للكبار أن يقضوا فيها وقتا جميلا ويتنفسوا هواء نقيا.. باختصـار إن منطقـة «بودونج» فيـها كـل مـا يطلبـة المستثمر الأمريكـى أو الأوروبـى أو اليابـانى، بحيث لا يشعر بـأى فـارق أو نقـص فـى مستوى التعـامل والمعيشـة والنظافـة عمـا تعـود عليـه فـى بلـده حتـى ملاعـب الجولـف وأنديـة ركـوب الخيـل والسباق.. الخ.

والنتيجة أن منطقة التجارة والمال فى وسط بودونج ومساحتها ٢٨ كيلـو متر مربع أصبح فيها ٧٥ مؤسسة مالية منها ٤٥ مؤسسة مالية أجنبيـة تشمل

٢٠ بنكا أجنبيا من أكبر البنوك فى العالم ومسموح لها بالتعامل بالعملة المحلية فى معاملاتها، وطبعا لها كامل الحرية فى تحويل النقد الأجنبى دخولا وخروجا، وهناك ٦ أسواق للأوراق المالية على المستويين المحلى والإقليمى، وفيها فروع لشركات الاتصالات العالمية الكبرى مثل الكاتيل، وسيمنز، وغيرهما من الشركات متعددة الجنسيات،، وفيها مراكز تجارية.. وفيلات وقصور للمليونيرات من المستثمرين.. وكل مستثمر يجد كل ما يطلبه!

والمنطقة الصناعية فى بودونج التى يخصص كل إنتاجها للتصدير تقع فى القلب ومساحتها ٢٠ كيلومتر مربع، و فيها ٣٥٠ مشروعا صناعيا برأسمال صينى خالص، أو أجنبى خالص، أو مشترك، والاستثمارات فيها تبلغ عشرة مليارات دولار، ورأسمال أى مشروع فيها لا يقل عن ٢٥ مليون دولار.. وفيها أيضا ١١٥ مشروعا صناعيا تعمل كلها بكامل طاقتها الإنتاجية ويحقق إجمالى إنتاجها ما يعادل ٤ ملايين دولار، و٧٧٪ من هذه المشروعات تستخدم أحدث الأجهزة المتطورة وتكنولوجيا عالية من أشهر الشركات التى أقامت مصانع لها فى هذه المنطقة، وأكثر الصناعات متخصصة فى صناعات الاتصالات، والإلكترونيات، والأجهزة الطبية الدقيقة، والهندسة الوراثية، والكمبيوتر، وإنتاج السيارات من معظم الشركات الألمانية والإيطالية والأمريكية واليابانية.

اما المنطقة المخصصة للتكنولوجيا العالية فتبلغ مساحتها ١٧ كيلو متر مربع، وفيها معامل البحث العلمى، والمصانع التى تستخدم التكنولوجيا فى مجالات جديدة على الصين مثل الأدوية الحيوية والجينية، والشرائح الإلكترونية الدقيقة، وتكنولوجيا المعلومات، وأقيم فيها حتى الآن ١٧ مشروعا تستخدم تكنولوجيا حديثة جدا من ٤٨ مشروعا حصلت على الترخيص

بالعمل فى هذه المجالات الدقيقة ومنها مجال إنتاج البرمجيات، وبلغ الإنتاج فى مجال تكنولوجيا المعلومات أكثر من ١٥٠ مليون دولار.

أما منطقة التجارة الحرة فى بودونج فهى قريبة من مصب نهر اليانجتسى ومساحتها عشرة كيلو مترات مربعة وفيها مخازن الشركات العملاقة متعددة الجنسيات مثل I. B. M. للكمبيوتر، وJ.V.C. وفيليبس، وموتورولا، وميتسوبيشى، وفيها عدد كبير من صالات العرض التجارية ومصانع منتجات التصدير. وفيها ٣٧٠٠ مشروع برؤوس أموال ٤ مليارات دولار من بينها مليارا دولار استثمارات أجنبية مباشرة.. ووصل حجم التجارة من صادرات وواردات هذه المنطقة الحرة فقط ثلاثة مليارات و٥٠٠ مليون دولار.. ولزيادة حجم التجارة الخارجية لهذه المنطقة بلغت خطوط شحن وتفريغ السفن ٦ خطوط طاقتها ٦٧٥ ألف طن سنويا زادت ٣٧٪ فى سنة واحدة.

هكذا حققت بودونج أهدافها بنجاح.. جذبت الاستثمارات الأجنبية بصورة مدهشة.. وأقيمت فيها مشروعات جعلتها منطقة جذب عالمية.. ومنطقة تصدير هائلة.. بالإضافة إلى ما حققته من زيادة دخول العاملين فيها من أبناء الصين، وزيادة نصيب البلاد من العملات الأجنبية.

وهذا ما يجعلنا ندرك كيف استطاعت الصين أن تصل برقم الاحتياطى من النقد الأجنبى إلى ١٩٠ مليار دولار.

هكذا فعلت الصين فى المناطق الحرة ما لم نفعله نحن فى بورسعيد وفيها مقومات نجاح لم نحسن استغلالها، وما لم نفعله فى عشرات المناطق الحرة التى تحولت عندنا إلى مجرد مخازن، ومنافذ للتهرب من الرسوم الجمركية والضرائب، وتهريب السلع إلى السوق المحلية من الأبواب الخلفية.

ومع ذلك ، ما زالت أمامنا الفرصة لنستفيد من تجربة الصين ونعيد بورسعيد مرة أخرى لتكون مدينة حرة للصناعة والتصدير للخارج ، وليست مدينة للاستيراد من الخارج والتهريب إلى السوق المحلية.. أمامنا الفرصة بشروط .

ونستطيع أن نجعل المنطقة الحرة التى يجرى إنشاؤها الآن فى شمال غرب خليج السويس مثل المنطقة الحرة فى بودونج ؟

أعتقد أننا نستطيع - ولم لا ؟! - إذا فعلنا ما فعلته الصين.

فالمعجزة قابلة للتكرار.. إذا تكررت عوامل وجودها .

التعليم هو البداية

كان موعدى مع وزيرة التعليم مقررا ضمن البرنامج قبل الزيارة بشهور، ولكنى فوجئت عندما وصلت إلى بكين باعتذار من مسئول من الوزارة لأن الوزيرة خارج بكين وقد التحقت بدورة دراسية فى الحزب.. وقلت لمحدثى مازحا: أرجو أن تنجح الوزيرة فى الامتحانات.. ثم سألته: وماذا يحدث إذا لم تنجح ؟

قال محدثى جادا : لا.. إذا لم تنجح فهذه مشكلة.. الوزير الذى لا ينجح فى دراسة مبادئ وفلسفة وبرنامج الحزب يفصل فورا.. منصب الوزير منصب سياسى.. فكيف يتولى هذا المنصب وكيف يستمر فيه من لا يملك عقلية سياسية، ورؤية سياسية، وخبرة سياسية؟.. أعتقد أن هذا عندكم ايضا.

قلت له: طبعا.. عندنا ما هو أكثر.. الوزراء عندنا قيادات سياسية ويتمتعون بخبرة سياسية نادرة ، وقلت لنفسى : أرجو ألا يكون على علم بالحقيقة!.

وكان موعدى فى هذا اليوم فى وزارة التعليم لألتقى بالمسئول عن تطوير التعليم فى الصين البروفيسور مانشنج زهو، وكان شاغلى أن أتعرف على سر المعجزة التى حققتها الصين.. المعجزة التى جعلتها تنتقل من بلد متخلف، جاهل، أمى، إلى بلد صناعى وتكنولوجى فيه مئات الآلاف من حملة الدكتوراه فى الذرة والاتصالات والصناعات الدقيقة ذات التكنولوجيا العالية.. ماذا فعلوا حتى وصلوا إلى درجة المنافسة فى البحوث العلمية مع أمريكا ودول أوربا؟.

فى نفس اليوم كان لشبكة «الصين اليوم» تقرير بعنوان « الصواريخ الموجهة الصينية أصبحت فى المقدمة عالميا» .. قالت فيه إنه بعد أربعين عاما من العمل الشاق، والابتكار، والتطوير أصبحت الصواريخ الموجهة الصينية فى المقدمة، وجاء هذا تتويجا للعمل الجاد وبخطة طويلة المدى، فى سبتمبر ١٩٦١ أنشئ المعهد الثالث للعلوم وصناعات الفضاء كقاعدة للبحوث العلمية، والتصميم، والإنتاج التجريبى للقذائف الصاروخية الموجهة، وبدأت هذه البحوث فى ظروف صعبة للغاية، فلم تكن هناك سابقة خبرة، ولم يكن ممكنا الحصول على المعرفة والتكنولوجيا من الدول المتقدمة التى تفرض السرية على أسرار التقدم العلمى والاختراعات وتفرض الحظر على وصول أية معلومات تساعد الدول النامية على تحقيق أية خطوة لها قيمة فى تقدمها العلمى، ومع ذلك فقد نجح هذا المعهد، خلال خمس سنوات، فى إنتاج الجيل الأول من القذائف الموجهة أرض – بحر، واستغرق الوصول إلى هذا النجاح نصف الوقت الذى توصلت فيه الدول المتقدمة إلى إنتاج هذا الصاروخ.. وعلى أساس حصيلة البحوث والنتائج فى هذه المرحلة نجح المعهد فى إنتاج أكثر من عشرين طرازا من عدة أنظمة للقذائف الفضائية الموجهة وصلت إلى المستوى العالى وفى استخدامات متعددة، وتم تطوير هذه الصواريخ حتى أصبحت صغيرة الحجم، وعالية الدقة، ولديها القدرة على مقاومة التشويش، والانطلاق على ارتفاعات منخفضة جدا.. وكان هذا نجاحا جعل الصواريخ الموجهة التى تنتجها الصين فى المقدمة على مستوى الدول الكبرى.

وقال لى أحد خبراء أكاديمية البحث العلمى فى بكين إنه بعد تطبيق سياسة الإصلاح والانفتاح، دخلت صناعة الصواريخ الموجهة مرحلة جديدة من التطور، فبعد نجاحنا فى إنتاج الجيل الأول من القذائف الموجهة جو – بحر، والجيل الأول من القذائف الموجهة المضادة للسفن الحربية وهى قذائف

ذات محرك تستخدم نوعا من الوقود الصلب من إنتاجنا، بعد ذلك وصلنا إلى إنتاج قذائف موجهة على ارتفاعات منخفضة جدا، وتنطلق بسرعة أكبر من سرعة الصوت، ثم أنتجنا نوعا آخر من هذه الصواريخ تصل إلى مدى أبعد.. وأصبحت لدينا «أسرة كبيرة» من الصواريخ الفضائية الموجهة متعددة الطرازات والأنظمة..

بعد ذلك حققت الصين مرحلة أعلى في تطوير القذائف الفضائية الموجهة معتمدة في ذلك على قدراتها، وعلى علمائها ومعاملها، وحولت المعهد الثالث للعلوم والصناعات الفضائية إلى معهد من نوع آخر.. كانت مهمة هذا المعهد في البداية إعداد البحوث والتصميمات وإجراء التجارب لحركات الصواريخ، والقوى المحركة الهوائية، فأصبح معهدا للبحوث في تصميم وإنتاج واختبار الصواريخ بكميات كبيرة.. سواء الصواريخ الفضائية الموجهة المضادة للسفن الحربية أرض بحر، وبحر-بحر، وجو-بحر، والصواريخ الموجهة من عمق المياه إلى سفن حربية.. وعرضت بعض هذه الأنواع في العرض العسكري الذي اقيم في العيد الوطني الخامس والثلاثين والعيد الوطني الخمسين.. وتم استخدامها جميعا في المناورات العسكرية وحققت نجاحا في الدقة وأصابت كلها الأهداف.

وللصين الآن عدد من الأقمار الصناعية في الفضاء، صناعة صينية مائة في المائة.

❑ ❑ ❑

وكان طبيعيا أن يكون هذا المعهد هو البداية لمعرفة كيف حققت الصين هذه النهضة الكبرى التي يعتبرها بعض المراقبين معجزة.. وقيل لي إن هذا المعهد وحده حقق الكثير من الإنجازات وله إنتاج ملموس.. حتى إنه فاز بأكثر من ألف جائزة للتقدم العلمي والتكنولوجي على مستوى الدولة، وعلى مستوى وزارة الصناعات الفضائية.. (وبالمناسبة في الصين وزارة

متخصصة فى صناعات الفضاء وهى صناعات متعددة ومعقدة وليست صناعة واحدة وحققت طفرات أدهشت بها العالم)، كذلك فاز المعهد الثالث للعلوم والصناعات الفضائية بعدد كبير من جوائز الدولة للتقدم العلمى والتكنولوجى، وأصبح مصدرا من المصادر الأساسية لتوفير الاحتياجات العسكرية للصين، كما أصبح مصدرا مهما لتطوير الاقتصاد الموجه للخارج، وأقام علاقة جيدة للتبادل التكنولوجى والتعاون مع الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وروسيا.

□□□

وفى صحف الصباح كان هناك خبر عن تحديث مؤسسات إنتاج برامج الكمبيوتر، و«السوفت وير» وتخصيص اعتمادات كبيرة لهذا المشروع، وقال الخبر إن بكين وحدها فيها أكثر من ١٥٠٠ مؤسسة لإنتاج برامج الكمبيوتر قيمة إنتاجها ثلث الناتج الوطنى الإجمالى، وقيمة صادرات هذه المؤسسات بلغ ثلثى حصيلة الصادرات من «السوفت وير».

وتحت عنوان «السيارة الصينية قد تصبح عالمية» قالت الصحف إن أحد أنواع السيارات التى تنتجها الصين وأسمها «العلم الأحمر» نفذت برنامجا لتطوير إنتاجها لكى تصل إلى مستوى منافسة السيارات الأوروبية واليابانية ويكون لها وضع أقوى فى السوق العالمية! وقال رئيس الشركة المنتجة لهذه السيارة إن التطوير سيتم بالتعاون مع شركات السيارات العالمية العملاقة للاستفادة بالتكنولوجيا ورأس المال، وهذه السيارة تنتجها الصين منذ سنة ١٩٥٨ وكانت تعتبر السيارة السياسية أو سيارة البروتوكول لأنه لم يكن مسموحا لأى مسئول رسمى أن يركب سيارة من إنتاج بلد آخر غير الصين، وكان الرئيسان ماوتسى تونج، ودنج سيا بنج لايركبان غير هذه السيارة، وعندما زار الرئيس نيكسون الصين فى الزيارة التى أعتبرت زيارة تاريخية

وجد هذه السيارة الصينية فى انتظاره ولم يركب الرئيس الأمريكى سيارة غيرها على أرض الصين.

وكانت هذه السيارة أقل من السيارات الأمريكية والأوربية، ولكن فى السنوات العشر الأخيرة بدأت الشركة المنتجة لها فى تطويرها تطويرا شاملا، وأنتجت موديلات جديدة منها معتمدة على التكنولوجيا الأجنبية الحديثة، وأصبح إنتاجها يراعى متطلبات السوق وأذواق العملاء وقدراتهم المالية، فأنتجت موديلات تتفاوت اسعارها ابتداء من السعر الذى يناسب المواطن العادى إلى السعر الذى يناسب الطبقة الجديدة التى تبحث عن الفخامة والكماليات.

وهكذا قبل أن أبدأ لقائى مع مسئول تطوير التعليم، ومع رئيس أكاديمية البحث العلمى وجدت أمامى الحقيقة: إن الصين دخلت عصر العلم والتكنولوجيا بقوة، وأصبحت لديها القدرة على المنافسة العالية، واستعدت لتحديات العولمة بدون كلام كثير وطنطنة فارغة.

❑ ❑ ❑

بدأ المسئول عن تطوير التعليم فى الصين بإعطائى فكرة عن أوضاع التعليم عموما، فقال إن الصين فيها ٨٢٦ ألف مدرسة فى مراحل التعليم العام، و١٧٦ ألف مدرسة رياض الأطفال، وعدد الطلبة ٢٤٤ مليون طالب منهم ٢٢ مليون طفل، وهناك ملايين يتلقون تعليما منتظما دون أن يكونوا ضمن تلاميذ المدارس.. ولذلك فإن مشاكل التعليم فى الصين هى أكبر مشاكل من نوعها فى العالم من حيث الحجم والنوعية.. ومع ذلك فإن عملية تطوير التعليم تسير بقوة وجدية وبسرعة لأننا نسابق الزمن ونريد أن نلحق بالدول المتقدمة.

وقال لى إن الحكومة طرحت استراتيجية جديدة للنهوض بالتعليم والبحث العلمى فى سنة ١٩٩٥، وتقرر اعتبار تطوير التعليم هدفا قوميا أساسيا، لرفع كفاءة الاستعداد القومى، وتربية الكوادر، وعقد مجلس الدولة (مجلس الوزراء) مؤتمرا فى شهر يونيو ٢٠٠١ لدراسة ما تم تنفيذه وأصدر المؤتمر قرارا بإعطاء الأولوية فى الدولة للتعليم، واعتبار التعليم الأساسى هو أهم مشروعات المرافق والبنية الأساسية للصين.. وقد بلغت نسبة المنتظمين فى المدارس الابتدائية ٩٩,١٪ ونسبتهم فى المدارس الإعدادية ٨٨٪ ونسبة الأمية أصبحت ٥٪ فقط لمن هم أقل من ٤٥ سنة ونسبة الأمية فى الصين عموما فى كل الأعمار ١٣٪.

والتعليم إجبارى لكل طفل وطفلة فى الصين لمدة ٩ سنوات، ومشروع محو الأمية ينفذ إجباريا، والاهتمام الآن بالتوسع فى التعليم الثانوى العام والمهنى بعد المرحلة الإعدادية، كما تشمل خطة الدولة زيادة فرص الالتحاق بالجامعات والتعليم العالى، والآن ربع سكان الصين يتلقون التعليم والتدريب - وربع السكان أى ٣٠٦ ملايين مواطن- فهذا أكبر نظام تربوى فى العالم.. ومن المتوقع أن يصل معدل القبول فى التعليم أكبر مما هو عليه الآن خلال ٥ سنوات لأننا نعتبر أن المدخل لتحديث الصين هو التعليم.

ولكن التعليم فى الصين — كما فى كل الدول — يواجه مشكلات، أولها انخفاض مستوى التعليم عموما، فالأرقام كبيرة، ولكن المسألة ليست بالكم. التقدم لايتحقق إلابتحسين نوعية التعليم، وتحسين نوعية الخريجين، ومدى صلاحيتهم للتعامل مع التكنولوجيا الحديثة واحتياجات السوق، والسوق الآن لا تحتاج إلى مجرد خريج متعلم، ولكنها تحتاج إلى كفاءة عالية فى استخدامات الكمبيوتر ووسائل الاتصال الحديثة، وفى التسويق، وإدارة الإنتاج، والتعامل مع الأجهزة الحديثة، نحن نركز الآن على إعداد خريج يقدر على أداء العمل الذى تعلمه بكفاءة، المشكلة أن هذا يحتاج أموالا

كثيرة جدا.. جدا.. ولذلك فإن عملية إصلاح التعليم تقوم على أن تتحمل الدولة المسئولية الأكبر فى التمويل والاستثمار والإدارة لمراحل التعليم الإجبارى، أما التعليم غير الإجبارى، فإن الدولة تشرف عليه ولكن لا تتحمل التكلفة بالكامل، فى المدارس والجامعات الحكومية يتحمل الطالب جزءا من تكلفة الدراسة، وفى المدارس والجامعات الأهلية يتحمل التكلفة بالكامل، والفكرة الآن أنه بالنسبة للمجالات التربوية التى لاتقدر الحكومة على الإشراف عليها حاليا، يجب على الحكومة أن تترك للقطاع الأهلى العمل فيها. وهذا النوع من المدارس نسميه مدارس شعبية أو مجتمعية لأنها لا تهدف إلى الربح. وعلى الحكومة أن تركز على إصلاح النظام القائم فى إدارة التعليم وإدارة المدارس والجامعات.. ووضعت الحكومة تنظيما جديدا لإنشاء وإدارة المدارس الأهلية غير الحكومية، وهى الآن تمثل ٥٪ من حجم المدارس، والحكومة تشجع إنشاء مدارس أهلية فى جميع المراحل، لتخفيف الأعباء المالية الضخمة عن كاهلها، وفى نفس الوقت تواصل زيادة الاستثمار فى التعليم وخاصة فى مراحل التعليم الإجبارى.. وتتحمل الحكومة جزءا من تكلفة التعليم الجامعى والعالى والتعليم الثانوى العام والفنى ويتحمل الطالب جزءا من هذه التكلفة، ومع هذا النظام لم يعد التعليم الثانوى والجامعى مجانا مائة فى المائة ولكن تقدم الحكومة منحا مجانية للمتفوقين، وتنفذ نظاما للقروض للدراسة، وتعطى للطلبة الفقراء فرصة التعليم مع إعفائهم من دفع نصيبهم فى التكلفة، والحكومة تشجع المجتمع المدنى على الاستثمار فى التعليم.. ونحن نعيد النظر فى المقررات والمناهج الدراسية وتطورها لتناسب العصر وتتفق مع أهداف الدولة فى النهوض بالصين.. نهتم بالتعليم المستمر مدى الحياة.. ونهتم بالربط بين الدراسة النظرية والتدريب العملى.. نحن نهتم بالربط بين الإنتاج والبحوث العلمية والتعليم فى المدارس والجامعات.

فى الصين الآن أكثر من ١٠٠٠ جامعة رسمية و٨٠٠ جامعة أهلية، والاهتمام كبير بالمكتبات، والمعامل وتوفير أجهزة الكمبيوتر فى المدارس والجامعات بأعداد كافية.

❑❑❑

قلت مندهشا: لم أسمع من قبل أن التلميذ فى الصين يدفع جزءا من تكلفة الدراسة. كم يدفع التلميذ من هذه التكلفة ؟

قال المسئول عن تطوير التعليم فى الصين:

أرجو أن تتصور الأعداد الهائلة التى تدخل كل سنة المدارس والجامعات.. إن عدد المقبولين فى الجامعات هذا العام بلغ مليونين و٥٠٠ ألف طالب، فهل يمكن أن تتحمل الدولة كل التكلفة، مع تكلفة ٢٤٤ مليون طالب منتظم فى مراحل التعليم الأساسى والثانوى؟.. الالتزام الآن بتوفير التعليم الأساسى لمدة تسع سنوات مجانا وتتحمل الدولة التكلفة بالكامل، والدولة تتبنى مجانية التعليم الأساسى حيث لايدفع التلميذ سوى ثمن الكتب الدراسية فقط، والمناطق الفقيرة فى ٥٩٢ محافظة لها نظام خاص تقدم فيه الدولة تسهيلات للتلاميذ.. ونتيجة للتغير الاجتماعى مع سياسات الإصلاح والانفتاح ارتفعت مستويات المعيشة لقطاعات وفئات غير قليلة فى المجتمع الصينى وهؤلاء يفضلون إلحاق أبنائهم بالمدارس الثانوية الشعبية والأهلية.

وقد بلغ عدد هذه المدارس حتى الآن ٥٠ ألف مدرسة، منها ٤٠ ألف مدرسة لرياض الأطفال، و ٧ آلاف مدرسة ثانوية، والمدارس الثانوية ليست ضمن التعليم الإجبارى، ولذلك فإن الطالب يدفع تكاليف الدراسة فيها بالكامل وهى فى المتوسط من ١٤٠٠ إلى ١٥٠٠ يوان (الدولار يساوى ٨ يوانات).

وقال : كذلك يدفع الطالب فى الجامعة بين ٢٥٪ و٤٠٪ من تكلفة التعليم بما يساوى مبلغا يتراوح بين ٤ آلاف يوان (٥٠٠ دولار) و١٠ آلاف يوان (١٢٥٠ دولارا) سنويا. باختلاف الجامعات والتخصصات، كما يدفع ثمن الكتب

وتكاليف الإقامة إذا كان مقيما فى مساكن الجامعة، والحكومة تقدم منحا دراسية مجانية للمتفوقين، وتقدم القروض للطلبة المحتاجين لقروض.. وكان فى الصين ٣٠٠ جامعة تخضع للإشراف المركزى أصبحت الآن ١٥٠ جامعة، وهناك ٧٠ جامعة تشرف عليها حكومات المقاطعات.

وقال : أما الدراسات العليا فهذا موضوع آخر.. فالدولة تتحمل نفقات الدراسة والأبحاث والتدريب لطلبة الماجستير والدكتوراه.. وقد بلغ عدد رسائل الماجستير ٢٠٠ ألف رسالة حتى الآن، لأن الدولة تشجع أصحاب المواهب العلمية والقادرين على البحث والابتكار فى جميع المجالات. وفى الصين ٧٨٧ مركزا للأبحاث بعد الدكتوراه، ووصل عدد الباحثين بعد الدكتوراه إلى ٩٧٠٠ باحث، وهناك ٦٢ مركزا آخر للبحوث الخاصة بالإنتاج وتطوير الصناعات، وكثير من هؤلاء أصبحوا ركائز لبحوث وطنية وروادا فى الأوساط الأكاديمية والتكنولوجية وحصل ٢٠٪ منهم على جوائز لإنجازاتهم العلمية، وتأسس صندوق لدعم شباب العلماء.

وقال المسئول عن تطوير التعليم فى الصين :

إن عدد الذين يعملون فى مجال التعليم فى الصين الآن يبلغ ١٤ مليونا بين معلم وموظف وإدارى، وعدد تلاميذ الفصل فى الابتدائى ١٨ تلميذا، وفى الإعدادى ١٦ تلميذا، والإصلاح فى التعليم شمل إصلاح المناهج لتناسب التطورات العلمية فى العالم، وإصلاح نظام الامتحانات، وإدخال نظم تكنولوجيا المعلومات وتطبيقها، وإصلاح الإدارة التعليمية وهذه مسألة مهمة جدا فى هذه المرحلة.

□□□

وقال المسئول عن تطوير التعليم أيضا :

إن الجامعات فى الصين لا تعتمد كلية على الدولة لتمويل احتياجاتها وكل جامعة لها موارد من أنشطة تقوم بها لتحصل على المال بإجراء أبحاث وتقديم خدمات للشركات والمصانع، وإقامة دورات تدريبية .

وقال :

كانت الحكومة تتحمل مسئولية تشغيل جميع الخريجين من الجامعات.. الآن أصبح كل خريج يبحث لنفسه عن العمل الذى يصلح له حسب احتياجات السوق.. ولم يعد هناك التزام من الدولة بإيجاد عمل لكل خريج ، وفرص العمل موجودة لمن تتوافر فيهم الكفاءة المطلوبة .

❑ ❑ ❑

وقال لى أيضا :

عندنا ٨٠٠ ألف كمبيوتر فى ٧٠ ألف مدرسة متصلة بالإنترنت وعندنا ١٠ ملايين تلميذ يتعاملون مع الكمبيوتر يوميا أثناء الدراسة، وأصبح التعليم بالتليفزيون عن طريق الأقمار الصناعية جزءا من عملية التطوير، وعندنا ١٠٤ محطات تليفزيونية تعليمية على مستوى المقاطعات والمدن و٣ قنوات تعليمية تغطى الصين كلها عن طريق الأقمار الصناعية.

❑ ❑ ❑

قلت: عندنا يشكو الآباء من ثقل حقيبة المدرسة.. ويطالبون كل سنة بتقليل المناهج وتقليل عدد الكتب والواجبات المدرسية.. هل هذه الشكوى عندكم أيضا؟

- لعلك لاحظت فى الساعات الأولى من الصباح يملأ التلاميذ الشوارع بخطوات سريعة حاملين على أكتافهم حقائب ثقيلة، وبالدراسة وجدنا أن حقيبة تلميذ الابتدائى وزنها من ٥ إلى ٨ كيلوجرامات، وحقيبة تلميذ الإعدادى أكثر من ١٠ كيلوجرامات، وفى كل حقيبة بالإضافة إلى ذلك

كراسات الواجب المنزلى وأوراق اختبار ومفكرات جيب.. والتلاميذ يتحملون ما هو أكثر من ثقل الحقائب.. إنهم يتحملون القيام بواجبات منزلية وامتحانات تجريبية كثيرة جدا.. واليوم الدراسى فيه ٧ أو ٨ حصص بالإضافة إلى فترة قراءة إجبارية خارج المقررات قبل الدراسة وبعد الدراسة.. وبعض التلاميذ يحضرون دروسا اضافية مجانية فى يومى الراحة، والأعياد والعطلة الصيفية وإجازة نصف السنة، وبعض المدرسين يعاقبون التلاميذ بإجبارهم على نسخ نصوص الكتب عشرات المرات.. حقيقة إن كثرة الواجبات جعلت التلميذ مثقلا ولايتمتع بأوقات فراغ، خصوصا مع اقتراب الامتحانات حيث تزداد كميات الواجبات المنزلية، فيصعب على التلاميذ حتى الحصول على الوقت الكافى للنوم، وهذه الحقائق ظهرت لنا من نتيجة دراسة إحصائية قام بها مركز بحوث الشباب والأطفال عام ٩٩.. ومن هذه الحقائق أن أوقات أداء الواجبات المنزلية يوميا تجاوزت كثيرا المعيار الذى حددته الدولة. فالدولة حددت أن تكون الواجبات المنزلية لتلميذ الابتدائى فى حدود نصف ساعة يوميا، ومن الصف الرابع إلى السادس تصل إلى ساعة كاملة، وفى الإعدادية تكون الواجبات المنزلية فى حدود ساعة ونصف الساعة يوميا، وحددت الدولة أن يحصل الطالب على ٩ ساعات نوم يوميا، ولكن ظهر أن نسبة غير قليلة تتجاوز واجباتهم هذه الحدود بكثير وتقل ساعات نومهم عن ٧ ساعات. وقد اعترف المسئولون فى وزارة التعليم بأن تخفيف أعباء التلاميذ ليس موضوعا جديدا، بل إنه قضية يهتم بها كل وزير للتعليم، ولكن لم تجد حلا رغم مرور سنوات على إثارة هذا الموضوع.. قامت وزارة التعليم بتصفية الكتب وإلغاء ٣٩ كتابا، وقررت أن يقوم التلميذ بالإنتهاء من الواجبات فى داخل المدرسة.. وعلماء الاجتماع والتربية قالوا إن كثرة الواجبات والمذاكرة سوف تظل ما دام نظام التعليم موجها للامتحانات فقط، ونادوا بإصلاح النظام الحالى للامتحانات وتقييم التلاميذ.. المشكلة أن كل أب يريد أن

يدخل ابنه الجامعة.. ولذلك يضغط الآباء والمعلمون على التلاميذ لرفع مستواهم ليحصلوا على درجات عالية تؤهلهم لدخول الجامعات... وعموما فالموضوع يمثل إحدى المهمات والتحديات أمام التعليم فى الصين فى القرن الجديد.. ولكن لابد أن نضع فى اعتبارنا أن الصين تريد أن تتفوق.. وتريد أن يكون أبناؤها على درجة عالية من التعليم والإلمام بما يستجد فى العالم فى مجالات العلوم.. القرن الجديد ليس فيه مكان لأنصاف المتعلمين.. أو أنصاف الأكفاء.. إنه قرن العلم، والقوة، والتفوق، والكفاءة، والتعليم الجيد هو الذى يحقق لنا ذلك.

❑❑❑

قلت : والعلاقات التعليمية بين مصر والصين ؟

قال : هناك تعاون كبير.. وزير التعليم المصرى معروف فى الصين جيدا، وقد زار الصين أكثر من مرة واشترك فى مؤتمرات دولية عقدت فى بكين، وطرح الإنجازات التى حققتها مصر لتطوير التعليم، وكان حديثه موضع اهتمام وفود الدول المشاركة فى هذه المؤتمرات، وكذلك تمت ترجمة كتابه عن التعليم والمستقبل واستفدنا كثيرا من هذا الكتاب، وبين مصر والصين اتفاق ثقافى منذ سنة ١٩٦٢ ويتم تجديده كل ٣ سنوات وكان آخرها فى ديسمبر ٢٠٠٠ ويسرى حتى ٢٠٠٤، ووفقا لهذا البرنامج يتبادل البلدان ٢٠ منحة تعليمية سنويا، وتخصص المنح المقدمة من الصين لدراسة اللغة الصينية ولدراسة الماجستير والدكتوراه فى المجالات العلمية المختلفة، وكلما انتهت منحة أحد الدارسين يحل محله دارس آخر وهكذا.. والمنح المصرية تخصص للدراسة فى الأزهر الشريف، ويرشح لها الطلبة من الجمعية الإسلامية الصينية وهى منح سنوية.. وقد تطورت العلاقات المصرية الصينية فى مجال التعليم فى السنوات الأخيرة بتشجيع من الرئيس مبارك والرئيس زيمن.

❑❑❑

هكذا كان الحديث مليئا بالمفاجآت..

فى ا لصين مدارس غير حكوميـة.. وفى الصين (آخر قلعة للاشتراكية فى العالم) يدفع التلميذ جزءا من التكاليف بعد المرحلة الإلزامية.. لم يعد التعليم عندهم مجانا كالماء والهواء.. ماذا حدث فى البلد الاشتراكى الوحيد فى العالم الآن ؟!

جاءتنى الإجابة من الصحفى «هاو لى ونج» وهى أن المفاهيم حول التعليم تغيرت تدريجيا فى السنوات العشرين الأخيرة نتيجة التغيرات الاقتصادية.. كانت الحكومة وحدها هى التى تنشئ وتدير وتمول جميع المدارس فى جميع مراحل التعليم حتى الجامعات.. الآن أصبح الأفراد ينشئون جامعات كأفراد أو كجماعات، ويحصلون على دعم جزئى من الحكومة، وأكثر من ذلك تسمح الصين الآن بوجود مؤسسات تعليمية أجنبية.. التغير الآخر يحدث الآن فى المفاهيم والقيم الاجتماعية حول التعليم.. كان الطالب الذى لا يجد فرصة للتعليم الجامعى، يصعب عليه أن يجد هذه الفرصة مرة أخرى طوال حياته، ويصعب عليه الحصول على عمل محترم، ويصعب عليه أن يجد مكانا فى التيار الرئيسى فى المجتمع، ولايكون أمامه إلا أن يرث مكانة والديه الاجتماعية وينضم إلى صفوف العمال الزراعيين، أو الحرفيين وغيرهم من فئات المجتمع الدنيا، ولذلك يبذل الأبوان كل ما يملكانه ويحرمان نفسيهما من كل شىء لتوفير فرصة التعليم الجامعى للابن (بالمناسبة ليس مسموحا لكل أسرة بأن يكون لها إلا طفل واحد فقط) ومع مئات وعشرات الملايين من التلاميذ فإن الفرصة محدودة، والامتحانات صعبة لكى تفرز أفضل العناصر للتعليم الجامعى، وفى ظل هذا الوضع ظهرت الجامعات الأهلية منذ عشر سنوات كفرصة أخرى لمن لم يجدوا فرصة فى الجامعات الحكومية.. والجامعات الأهلية فى الصين تواجه مشاكل تجعل مستوى الدراسة فيها أقل من مستوى الدراسة

فى الجامعات الحكومية.. نقص الاساتذة ونقص الكفاءات الإدارية.. ونقص الخبرة للموظفين.. ولكنها مع ذلك تسير وتتحسن سنة بعد سنة.. وأصبح الاباء يعيشون حياة متقشفة ليوفروا مصاريف التعليم لأبنائهم.

وعندما زرت مدينة شيان عاصمة مقاطعة شنشى فى غرب الصين قالوا لى إن فى هذه المدينة (التى يعتبرونها من المناطق المتخلفة) أربعين جامعة أهلية قبلت هذا العام ١٢٠ ألف طالب جديد، وفيها ايضا معهد أهلى للترجمة يقبل الطلبة بعد الثانوية، وفى هذه المدينة متوسطة الحجم أربعون كلية أخرى حكومية يدرس فيها ٢٠٠ الف طالب.. وقالوا لى إن الحكومة مازالت تشدد فى التصريح بإنشاء جامعات أهلية جديدة وتضع لها شروطا لضمان مستوى التعليم فيها، ومع ذلك فإن خريجى هذه الجامعات الأهلية يعتبرون من الدرجة الثانية بالنسبة لخريجى الجامعات الحكومية.

وقال لى مرافقى فى مدينة «شيان» :

عندنا مثل يقول إذا أردت أن تحسن عملك فعليك أولا بإعداد آلة جيدة لتعمل بها، والآن نقول إذا أردت للصين أن تتقدم فلابد من البدء بإعداد الإنسان أولا.. ونحن نعيش فى عصر العولمة.. واقتصاد السوق.. والبقاء للأصلح.. وفى المنافسة العالمية لابد أن يكون الإنتاج الصناعى والزراعى والتكنولوجى على أعلى مستوى وإلا خرج من السوق العالمية.. فما بالك إذا كان المنتج هو الإنسان؟!

إلى هذا الحد تغيرت الصين ! . . .

والصين الآن سوف تتغير أكثر وأكثر.. الذين رأوها منذ خمس سنوات سوف تفاجئهم التغيرات الهائلة التى حدثت فيها.. والذين سيزورونها بعد سنة واحدة تنتظرهم مفاجآت أكبر.. لأنهم فى الصين يعملون.. ويعملون.. وعيونهم على المستقبل.

سر التقدم

فى أغسطس ٢٠٠١ أقيمت فى بكين دورة الألعاب الأولمبية العالمية لشباب الجامعات واشتركت فيها أكثر من ١٠٠ دولة، وفى حفل افتتاح الدورة فوجئت وفود الدول المشتركة، كما فوجئ مشاهدو التليفزيون فى أنحاء العالم بانطلاق صاروخ أمامهم يحمل قمرا صناعيا، ارتفع إلى مسافة خمسة كيلو مترات فى الفضاء، ثم هبط من القمر الصناعى صاروخ مندفع فى اتجاه الاستاد إلى أن وصل بالضبط إلى الشعلة فأصابها، فأضاءت الشعلة معلنة بدء الدورة.

وكانت هذه أول مرة يشاهد العالم هذه الطريقة لإضاءة شعلة بدء دورة رياضية، إذ تقوم كل الدول المتقدمة بإضاءة الشعلة بلهب يحمله بعض اللاعبين أو بإطلاق أشعة الليزر. ولكن الصين أرادت أن تقدم أمام هذا التجمع الدولى حدثا يؤكد أنها وصلت إلى مستوى متقدم جدا فى علوم وتكنولوجيا الفضاء، حتى إن بعض المعلقين قالوا إنها، أرادت أن تعلن أنها أصبحت مستعدة لحرب الفضاء، وأن لديها تكنولوجيا متقدمة للصناعات الخاصة بهذه الحرب.

وفى المعرض الدولى لتكنولوجيا المعلومات الذى تنظمه وزارة صناعة المعلومات تقدم الصين سنوياً آخر منتجاتها فى صناعة تكنولوجيا المعلومات، والكمبيوتر، والبرمجيات، والوسائط المتعددة، و«الفيديو كونفراس»، والاتصالات السلكية واللاسلكية، وشبكات الإنترنت، والجيل الجديد من التليفون المحمول، والأجهزة المنزلية بتكنولوجيا جديدة.

وهذا يعنى أن الصين وصلت إلى درجة من التقدم العلمى والتكنولوجى جعلتها قادرة على التحدى والمنافسة وإقامة معرض تقدم فيه مع الدول الكبرى آخر ما وصلت إليه من تقدم فى تكنولوجيا المعلومات وتقف معها موقف الند وتقول للعالم: لم تعد الفجوة بيننا وبين الدول الكبرى واسعة فى الابتكارات العلمية وإنتاج التكنولوجيا المتقدمة.

وهذا المستوى الذى وصلت إليه الصين لم يأت مصادفة، ولكنه جاء بعد عمل شاق وصامت عشرين عامًا أقامت خلالها العديد من المراكز العلمية بأحدث الأجهزة والمراجع، وأعدت كوادر للبحث العلمى والتكنولوجى مؤهلين ومدربين وحاصلين على أعلى الدرجات العلمية من الجامعات الكبرى فى الدول المتقدمة، وهم ثمرة سياسة التوسع الكبير فى إيفاد البعثات للحصول على الدكتوراه والتدريب فى الولايات المتحدة ودول أوربا، حتى إن عدد العاملين فى ميادين العلوم والتكنولوجيا وصل الآن إلى ما يزيد على مليونين و١٠٠ ألف، منهم مليون ونصف مليون من العلماء والمهندسين. ويزيد الإنفاق الحكومى على هذه المراكز العلمية والتكنولوجية على ١٦ مليار دولار سنوياً.

ونتيجة لذلك نجحت الصين فى عام ١٩٩٩ فى إطلاق أربعة أقمار صناعية وتصنيع الصواريخ من مختلف الأنواع، كما نجحت فى إطلاق أول سفينة فضاء صناعة صينية ١٠٠٪ أطلقت عليها اسم «شين تشو» تم إنتاجها بناء على أبحاث وتصنيع صينى، وجعلت ذلك رمزا إلى ما وصلت إليه من تقدم فى أبحاث وتكنولوجيا الفضاء، وقدرتها على إرسال إنسان إلى الفضاء فى عام ٢٠٠٥ كما هو مقرر. وبذلك تكون ثالث دولة فى إرسال بشر إلى الفضاء بعد الولايات المتحدة وروسيا، بعد أن أطلقت سفينتىّ فضاء عامى ١٩٩٩ و ٢٠٠١ تحملان حيوانات.

❑❑❑

وهذا التقدم في البحث العلمي والتكنولوجي صاحبه تركيز على تطبيق معايير الجودة على المنتجات حتى بلغ عدد الهيئات المختصة بفحص الجودة ٥٥٠٠ هيئة مركزية على مستوى الصين كلها وعلى مستوى المقاطعات والمحافظات والمدن الصناعية.

وعندما أردت زيارة وادى السيلكون فى الصين اكتشفت أنه ليس واديًا واحدًا أو اثنين ولكن عدة أودية تكنولوجيا منها مثلاً وادى السيلكون فى منطقة «تشونجوانتسون» .. وهى من أشهر معالم بكين باعتبارها مركز تجمع لعدد كبير من شركات العلوم والتكنولوجيا المتقدمة، ومنها أيضاً وادى السيلكون فى جنوب غرب الصين فى مدينة «تشنجدو» الذى أقيم فى عام ١٩٩٠ لتكنولوجيا المعلومات وصناعة الأجهزة الخاصة بها. وفى هذا الوادى معهد فرعى للأكاديمية الصينية للعلوم، و ٧٠ كلية ومعهدًا عاليًا وأكاديمية للبحوث وأشهرها كلية «سيتشران» باسم المقاطعة التى يقع فيها هذا الوادى . وبفضل ما يحققه وادى السيلكون من ابتكارات أصبحت مدينة تشنجدو أكبر سوق تجارية للمنتجات الإلكترونية وتكنولوجيا المعلومات، والمبتكرات فى الأجهزة الإلكترونية للمكاتب والشركات، ومنتجات الكيمياء الحيوية، وفى هذا الوادى مركز للاستشارات الفنية والتكنولوجية، ومركز لإعداد الكوادر، وسوق تجارية كبيرة لمنتجات المصانع المقامة فى الوادى، وهى تعتبر ثانى أكبر سوق للكمبيوتر فى الصين، بعد سوق وادى السيلكون فى غرب بكين، وفى هذا الوادى عشرات الشركات المتخصصة فى إنتاج الأجهزة التكنولوجية والإلكترونية الدقيقة، والكمبيوتر، وشهد هذا الوادى مهرجان الكمبيوتر الدولى الأول عام ١٩٩٨ والمهرجان الثانى عام ٢٠٠٠، وأصبح من المهرجانات الدولية، والجديد فى هذا الوادى أن الجامعات شريكة فى إنشاء شركات إنتاجية لضمان التكامل بين البحث العلمى وتطبيقاته

العلمية فى تطوير الصناعات الدقيقة والحديثة وإنتاج معدات وأجهزة جديدة بتحويل براءات الاختراع إلى واقع.

❑ ❑ ❑

وبجانب كل هذا فإن فى وادى السيلكون فى مدينة «تشنجدو» صناعات ضخمة للأدوية الصينية ، وبجانبها معهد لأبحاث العقاقير والأدوية والأعشاب التقليدية، وفى هذا الوادى أيضاً مركز للتجارب الذرية، ومصانع لإنتاج الأدوية البيولوجية، وقطع غيار السيارات، والدراجات البخارية، وفيه كذلك ٨٤٦ مشروعا إنتاجيا أقيمت باستثمارات أجنبية، وتحولت المنطقة كلها من منطقة زراعية إلى منطقة صناعية متقدمة، وخصصت فيها منطقة للزراعة النموذجية بالتكنولوجيا الحديثة، وفى هذه المنطقة أيضاً ٥ كليات متخصصة للدراسات العليا للدكتوراه وما بعد الدكتوراه، وتنظم الشركات فى هذه الوادى الملتقى السنوى لشركات الإنترنت. وبكل هذه الإمكانات تجذب رجال الأعمال الأجانب ليستثمروا فيها باعتبارها نموذجًا ناجحًا للتزاوج بين ابتكارات البحث العلمى وتطبيقها فى صناعات جديدة، حتى بلغ عدد البحوث العلمية التى تحولت عمليا إلى منتجات أكثر من ٢٠٠ مشروع، وفى هذا الوادى أكبر شركة متخصصة فى شراء حقوق الملكية الفكرية مثل إنتاج أجهزة التليفون العمومى بالبطاقات الذكية، وفى هذا الوادى مصنع لشركة سيمنز المعروفة لإنتاج الكابلات الخاصة بالأجهزة المرئية، وفى مشروع تنمية هذا الوادى يجرى إنشاء «مدينة التعليم» وتضم مجموعة الجامعات والمعاهد ومدينة سكنية متكاملة مساحتها ٤٦ كيلو متر مربع للمعلمين وأساتذة الجامعات والطلبة.

❑ ❑ ❑

وفى مدينة «شنيانج» القديمة حقق الصينيون معجزات أخرى بتحويلها إلى مدينة حديثة لا تقل عن المدن الأوروبية. وفى هذه المدينة تم إنتاج أول

طائرة مقاتلة صينية، وأول محول عملاق للجهد الكهربائى، وأول إنسان آلى ذكى، وبهذا التقدم الهائل أصبحت المدينة فى العربة الأمامية فى قطار التطور الاقتصادى السريع الذى ينطلق من محطات كثيرة فى الصين.

ومدينة شنيانج أصبحت أيضاً قاعدة للصناعات الثقيلة، ومركزا للاستثمار الصينى والأجنبى فى البحوث العلمية والتكنولوجية، وفيها ٣٢ كلية ومعهدا منها ١٣ للعلوم الطبيعية ، وفيها أيضاً ١٣٩ هيئة حكومية للبحوث العلمية بالإضافة إلى ١٦٧ مركزًا للبحوث تابعة للشركات الإنتاجية ، ولذلك تحتل هذه المدينة المركز الأول فى عدد براءات الاختراع التى سجلتها وحولتها إلى منتجات جديدة، وهى أيضاً فى المرتبة الأولى على مستوى الصين كلها فى عدد الصفقات وقيمة صادراتها من المنتجات التكنولوجية ٤ مليارات دولار سنوياً تشمل تكنولوجيا المعلومات والمواد الجديدة، والمنتجات البيولوجية والأدوية، ومنتجات توفير الطاقة وحماية البيئة، والآلات الزراعية الحديثة، والإنسان الآلى الذكى، وفى هذه المدينة ٤٢٣ مدرسة، و ٥ أحياء سكنية للمعلمين. وكما قال عمدة المدينة «نريد تربية أحسن، وتعليما أكثر تطورا وكفاءة، ولذلك فلابد من توفير بيئة أفضل لهذا التعليم المتميز».

❑ ❑ ❑

شركة واحدة هى شركة «هوالينج» تنتج ٨ ملايين جهاز تكييف فى السنة بالتعاون مع شركة ميتسوبيشى اليابانية، وصادرات هذا الشركة ٣٠ مليون دولار سنوياً.

❑ ❑ ❑

ويقولون فى مقاطعة «قواندونج» إن قلة عدد الباحثين والخبراء وأصحاب الكفاءة من المتخصصين كانت هى العقبة أمام تنفيذ برنامج «التقدم فى العلوم والتكنولوجيا» فى البداية عام ١٩٥٨، ولكن الآن

أصبحت «قواندونج» فى المرتبة الثالثة بعد شنغهاى وبكين، والهدف المحدد لهذه المقاطعة الآن هو أن تلحق بالنمور الآسيوية الأربعة، وفى طريقها لتحقيق هذا الهدف زادت المنتجات ذات التكنولوجيا الجديدة العالية بنسبة ٥٣٪ وأصبحت تنتج الصواريخ والأقمار الصناعية بالإضافة إلى نصف إنتاج الصين من أجهزة ومعدات الكمبيوتر و ٣٠٪ من «الهارد ديسك» و ١٠٪ من الأقراص المغنطة فى العالم، وتم التوصل إلى إنتاج مزيلات السموم بتكنولوجيا الهندسة الوراثية، كما أصبحت مركزا لإنتاج صناعات الكيمياء الحيوية، وتكنولوجيا المعلومات. والأجهزة الإلكترونية والمواد الجديدة، والأجهزة الكهروميكانيكية، وتنتج ١٦٠٠ نوع من المنتجات التكنولوجيا الجديدة.

ومن أجمل ما سمعته فى هذه المقاطعة أنها تعتمد على العقول أكثر مما تعتمد على الأموال والآلات، ولذلك أصبحت مركز جذب للموهوبين وأصحاب الكفاءات، ويردد المسئولون فيها المثل الصينى القديم الذى يقول «إنك تحتاج إلى عشر سنوات لإنشاء غابة ومائة سنة لبناء إنسان».. دلالة على أن بناء الكفاءات والقيادات العلمية والصناعية والإدارية عملية ليست سهلة، ويقولون أيضاً إن بناء البشر يبدأ بتحسين التعليم، وليس المهم عدد المدارس والجامعات والأساتذة، المهم هو نوعية ما يحصل عليه الطالب من تعليم وهل يساعد على تكوينه العلمى وبناء عقله وشخصيته وكفاءته فى العمل بعد التخرج؟ ويقولون إن كل الدول فى العالم هدفها دون استثناء تحقيق التنمية الاقتصادية، ولكن كيف يمكن بناء اقتصاد قوى بدون بناء الإنسان القادر على تحقيق هذا الهدف؟.

وهم يدركون جيداً أن الصراع العالمى على امتلاك القوة الاقتصادية لا يتحقق إلا بامتلاك القوة العلمية والتكنولوجية. وبالتواضع الصينى يقول حاكم المقاطعة: مازالت أمامنا مسافة للوصول إلى مستوى الدول المتقدمة.

هكذا حققت الصين قفزة واسعة فى مجالات العلوم والتكنولوجيا والصناعات الجديدة، والبداية كما قال المدير العام لمركز العلوم والتكنولوجيا «زو شنشنج» إن مؤسسات البحث العلمى الصينية تعمل وهى على وعى بأنها ليس لديها وقت تضيعه، وإن دولا كثيرة سبقتها، وعليها أن تقبل التحدى، وتعمل بجدية على اللحاقِ بالعصر، وتطور الصناعات الخاصة بالتكنولوجيا المتقدمة وتكنولوجيا المعلومات، وقال أيضاً: نحن نعمل بكل طاقتنا لتقليل الفجوة بين الصين والدول المتقدمة فى ابتكار الأجهزة والوسائل الحديثة، وفى الابتكارات العلمية وتسجيل براءات الاختراع.

وقال أيضا : لقد أقامت الصين أول معرض دولى لتكنولوجيا المعلومات فى عام ٢٠٠١ لتقدم إنتاجها إلى جانب الإنتاج العالى وتبين للعالم أن الصناعات فى تكنولوجيا المعلومات أصبحت أكبر وأهم الصناعات فى اقتصاديات الصين الآن، وبلغ حجم الإنتاج ١٢٠ مليار دولار فى سنة ٢٠٠٠، وفى السنوات الخمس القادمة سوف يحقق هذا القطاع نموا بنسبة ٢٥٪ ويتضاعف حجم المبيعات عما وصل إليه عام ٢٠٠٠، فنحن نجرى.. ولا نتوقف.. ولا نبطئ سرعتنا رغم ما نلاقيه من صعوبات فى الحصول على التكنولوجيا المتقدمة وحقوق الملكية الفكرية من الدول الكبرى، وللتغلب على هذه المشكلة نشأت فى الصين شركات متخصصة للحصول على حقوق الملكية الفكرية من الدول المتقدمة، وإجراء أبحاث جديدة لتطوير الإنتاج الحالى بجهد العلماء والباحثين الصينيين وبخاصة فى صناعة الإلكترونيات والمعلومات، وقد بلغ عدد الاختراعات المسجلة فى الصين فى السنوات الثلاث الأخيرة فى الإلكترونيات وتكنولوجيا المعلومات أكثر من ٢٣٧٠٠ اختراع، وتم تطبيق واستغلال ١٧٪ منها حتى الآن فى الصناعات القائمة، أما براءات الاختراع المسجلة لشركات أجنبية فهى تزيد ٢٠ مرة على عدد براءات الاختراع الصينية، وتتصل بالتكنولوجيا الدقيقة مثل إنتاج أجهزة تخزين المعلومات إلكترونيا ، وأجهزة الرصد والتتبع، والإلكترونيات ومعدات الاتصالات

الجديدة، والتليفزيون الرقمى، وشبكات المحولات المتقدمة، والوسائط المتعددة، والفيديو كونفراس، والجيل الجديد من التليفون المحمول. والكمبيوتر، والبرمجيات.

والنجاح-كما تكرر القيادة الصينية- أن يتم التواصل بين الابتكارات العلمية والبحث العلمى من ناحية وتطبيقها فى إنتاج صناعات جديدة وجيدة ومتطورة وتلبى احتياجات السوق العالمية بالمعايير التنافسية من ناحية أخرى.

ولكى تضمن الصين الحصول على التكنولوجيا المتقدمة من الدول الكبرى أنشأت مركز التعاون العلمى والتكنولوجى عام ١٩٨٦ تابعًا لوزارة صناعة المعلومات، وهو متخصص فى تقديم المخترعات الجديدة فى مجالات الإلكترونيات، وتبادل المعلومات مع الدول الكبرى التى يمكن أن تستثمر فى الصين فى صناعة تكنولوجيا المعلومات، ويتعاون هذا المركز مع الجامعات ومراكز البحوث فى تقديم المشورة والخبرة والمعونة للمصانع لتطوير منتجاتها، وينظم المركز معارض دولية للصناعات التكنولوجية الحديثة، كما يتولى تدريب الكوادر فى الصناعات التكنولوجية لرفع كفاءتهم، ويستعين بخبراء ومستشارين فى المجالات التكنولوجية الجديدة من الدول الكبرى، ويعمل كوكيل لتصدير المنتجات التكنولوجية الصينية، وتقديم المعلومات والخبرة للدول الأخرى، فهو يعمل فى اتجاهين: الحصول على أحدث ما فى العالم من تكنولوجيا للاستفادة بها فى الصين، وتصدير التكنولوجيا الصينية لمن يطلبها من الدول النامية، ويعمل بالتعاون، مع مراكز البحوث والجامعات المنتشرة فى الصين ومع أكاديمية العلوم وأكاديمية تطوير الصناعة.

❑❑❑

التحول فى الصين يتجلى فى انتشار شركات إنتاج شبكات الكمبيوتر ومنها شركات باستثمارات أمريكية وأوربية، واستخدام الإنترنت يزداد انتشارا فى الصين، وانتشرت معه التجارة الإلكترونية عن طريق الإنترنت، ووصل عدد المشتركين فى الإنترنت إلى أكثر من ٧ ملايين مشترك، رغم أن قيمة الاشتراك فى الإنترنت فى الصين مرتفعة، ويعملون على أن يصل عدد المشتركين فى الإنترنت إلى ٣٠ مليون مشترك فى عام ٢٠٠٣.

وشركات إنتاج شبكات الإنترنت تواجه مشكلات فى نقص التمويل ونقص الكفاءات الفنية والإدارية بما يكفى لهذا التوسع الهائل فى المشروعات، ولذلك يبذلون جهودا كبيرة فى جذب الاستثمارات والكفاءات الأجنبية للعمل فى الصين، ويقدمون لها التسهيلات و الإغراءات لكى تصبح الصين « جنة المستثمرين » فى العالم .

❑ ❑ ❑

والبحث العلمى هو سر التقدم فى الصين .. فقد نجحوا فى تنظيم مؤسسات ومراكز البحث العلمى، ووضعوا لكل منها أهدافا محددة، وبرنامجا زمنيا، وتوسعوا جدا فى إرسال بعثات للدراسة فى الدول الكبرى، ويذهب الآلاف من الطلبة والباحثين كل سنة للدراسة فى الولايات المتحدة والدول الأوربية، كما أنشئوا مراكز متخصصة للحصول على الاختراعات والتكنولوجيا الجديدة من كل مكان فى العالم، ووفروا لكل مشروع عوامل النجاح من تمويل وأجهزة وباحثين تتوافر فيهم الكفاءة ويعملون بحماسة وشعور بأنهم يقومون برسالة وطنية .

وفى حوار مع المدير العام لوزارة البحث العلمى « يوان شو جوانج » حول استراتيجية البحث العلمى وطريقة العمل فى الوزارة وفى مراكز البحث العلمى المختلفة، قال إن الوزارة هى المسئولة عن تطوير البحث العلمى

والتكنولوجى فى الصين ، وتضع خطة خمسية تلتزم بتنفيذها أمام قيادات الدولة ، وهى تنفذ الآن الخطة الخمسية العاشرة ٢٠٠١ – ٢٠٠٥ وتتضمن إدخال التكنولوجيا الحديثة فى الصناعة حتى تصل إلى المستويات العالمية، ومتابعة نتائج أعمال مراكز البحث العلمى وتتضمن إدخال التكنولوجيا الحديثة فى الصناعة حتى تصل إلى المستويات العالمية ومتابعة نتائج أعمال مراكز البحث العلمى العديدة المنتشرة فى أودية السليكون و المقاطعات والمناطق الخاصة والملحقة بالمصانع، والانفتاح على العالم للحصول على أحدث ما فى الدول المتقدمة من تكنولوجيا.

وقال: إننا نهتم بالبحوث الأساسية والنظرية، ولكننا نركز اهتمامنا أكثر على البحوث التطبيقية لتطوير الصناعة والزراعة.. هدفنا تحويل نتائج البحوث إلى منتجات.. ونسعى إلى أن نعتمد على أنفسنا، ونوفر كل الضمانات لتنفيذ الخطط والبرامج كاملة وبدقة، ويجرى الآن تنفيذ مشروع لتطوير أكاديمية العلوم وإعادة بنائها، وزيادة الاستثمارات فى البحث العلمى، وزيادة مرتبات العلماء والخبراء والباحثين، وقال: إن للبحث هدفًا رئيسيًا هو تحسين المنتجات، ومسايرة التطور فى السوق العالمية، وتمويل البحوث يأتى الجانب الأكبر منه من الدولة، وجزء منه يأتى من عائد مشروعات تنفذها مراكز البحوث للمصانع والشركات، وعندنا عقود مع مؤسسات صناعية نقدم لها الاستشارات ونجرى لها الأبحاث التى تطلبها للارتقاء بمستويات الأداء وتحسين منتجاتها، وسياستنا قائمة على تشجيع الباحثين على بذل جهود أكبر، ونعمل على إثارة الحماسة والروح الإيجابية فيهم، وبدأنا تنفيذ أسلوب جديد لتشجيع الاختراع، وهو أن يكون للباحث الذى يتوصل إلى اختراع جديد الحق فى ملكية ٢٠٪ من عائد هذا الاختراع، وليس لدينا مانع من أن يحصل الباحث على أموال كثيرة مادام ذلك من عائد جهده.

ووزارة البحث العلمى تعمل على إعداد أجيال من الباحثين ولها علاقات تعاون مع الجامعات فى الصين ومع الباحثين فيها للحصول على الماجستير والدكتوراه، وبفضل هذه العلاقة فإن ما يصل إليه الباحثون فى الجامعات من نتائج تستفيد منه أكاديمية البحث العلمى لكيلا يكون هناك جهد علمى ضائع. ووزارة البحث العلمى تشجع الباحثين على السفر إلى الخارج، والاشتراك فى الدورات التدريبية، وحضور المؤتمرات العلمية الدولية، وزيارة مراكز ومعامل الأبحاث فى مختلف دول العالم، والاطلاع على أحدث ما توصلت إليه.

والملاحظ أن الدارسين الصينيين فى الخارج يعودون إلى بلدهم فور انتهاء دراستهم، وكثير من العلماء الكبار الذين عاشوا فى الخارج فترة عادوا الآن للعمل فى الصين بعد أن تحسنت المستويات المالية للعلماء والباحثين، وتحسنت ظروف العمل فى مراكز الأبحاث. والعلماء والباحثون فى الصين يعتبرون الآن من ذوى المكانة الاجتماعية المتميزة. وقد انتهت المرحلة التى كان الباحثون فيها يُعدون الأبحاث النظرية من الكتب والمجلات العلمية، ويسعون إلى المال فقط، الآن أصبح الباحثون يركزون اهتمامهم فى البحوث ذات الطابع العملى التى تفيد فى تطوير الصناعة والإنتاج ، ومن ناحية أخرى نحن نشجع الباحثين الشباب، وهدفنا تطوير المنتجات القائمة، واستحداث منتجات جديدة وتغيير الهيكل الصناعى فى الصين بتكنولوجيا حديثة مع مراعاة الظروف الخاصة بنا بالنسبة للموارد المالية، ونراعى ألا يكون الإنفاق أكبر من الحدود المتاحة، وعلينا أن نجد حلولا لذلك، ونساعد على تعبئة الموارد البشرية فى البلاد.

وفى الصين ٢٤٢ مركزًا ومعهدًا للبحوث فى مجالات الصناعة والتكنولوجيا الحديثة يجرى إصلاح جذرى لها وفق آليات السوق، كما يتم إنشاء مركز استشارى جديد للمعلومات، ومركز لتطبيق نتائج البحوث، والمبدأ الذى يحكم العمل فى مجالات البحث العلمى أن الكفاءة يجب أن تجد

التقدير ويكون لها مكان متميز، وأن تطوير التعليم هو الأساس ونقطة البداية لتخريج أجيال من أصحاب المواهب العلمية. ولذلك فإن التعاون بين وزارة البحث العلمى ووزارة التعليم مستمر لتحسين المناهج وطرق التدريس لتشجيع التلاميذ على الابتكار، كذلك نقدم مساعدات لخريجى الجامعات المتفوقين للحصول على الماجستير والدكتوراه، وأصبح لأكاديمية العلوم حق منح درجات الماجستير والدكتوراه، وتشجع الطلبة على الحصول على منح خارجية للتعرف على ما يجرى فى الدول الأخرى واكتساب خبرات جديدة تضيف إلى خبراتنا.

وحين سألت عن مشاكل البحث العلمى فى الصين لخصها فى نقطتن: الأولى: عدم اهتمام بعض الباحثين بالبدء من حيث انتهى من قبلهم، أو التوصل إلى نتائج نظرية يصعب تطبيقها، والمشكلة الثانية هى بقايا الأسلوب القديم فى تقييم نتائج البحوث مراعاة فائدتها التطبيقية، ودون مراعاة آليات السوق. ونواجه المشكلتين بإصلاح هياكل مؤسسات البحث وتطوير أساليب العمل فيها، وتضييق الفجوة بين البحوث النظرية والتطبيق، وتشجيع شباب الباحثين لأنهم أكثر استجابة للتطورات الجديدة، وإعطاء الأولوية لتطوير التكنولوجيا المرتبطة بمجالات حيوية للدولة.

وحين سألت: إن الدول الكبرى محتكرة للتكنولوجيا والابتكارات الحديثة، وتضع ستارا حديديا يمنع وصولها إلى الدول النامية، فماذا تفعل الصين أمام هذه العقبة؟

قال: نحن أولا ننفتح على العالم لمعرفة ما تمكن معرفته فى الدول الأخرى، وثانيا: نسعى إلى جذب الاستثمارات الأجنبية فى المجالات التكنولوجية الحديثة، وثالثا: نشجع الخبراء الأجانب على العمل معنا

والتعاون مع الخبراء الصينيين، ورابعا: نعمل على زيادة التبادل العلمى مع مراكز الأبحاث الكبرى فى الدول المتقدمة، وخامسا: نعمل على توفير الإمكانات والموارد الكافية لعمل الباحثين الصينيين لابتكار وتطوير التكنولوجيا المتقدمة ذاتيا.. نحن نعمل فى كل الاتجاهات.

❑ ❑ ❑

هكذا تعمل الصين بذكاء وتصميم وبجدية للانتقال بسرعة مدهشة من حالة إلى حالة.. من حالة التخلف إلى حالة التقدم، ليكون لها مكان بين الدول الصناعية الكبرى عن جدارة.

والسر فى تقدم الصين كلمات من السهل معرفتها، وليس من السهل تحويلها إلى أسلوب عمل كما فعلت الصين مثل: الجدية، والإتقان، والثواب والعقاب دون تردد أو مجاملة، والتخطيط الجيد لعمل كل مؤسسة وكل فرد، والالتزام بتنفيذ الخطة بدقة والحساب على ذلك دون قبول تأخير أو تأجيل أو أعذار أو نقص.

ولذلك أصبحت الصين النموذج الذى يجب على الدول النامية دراسته جيدا لمعرفة سر التقدم قبل أن تبدأ تنفيذ مشروعها للتحديث.

جيل الشباب يتقدم

قبل أن أبدأ رحلتى إلى الصين قيل لى إنها بدأت مرحلة تعتمد فيها على قيادات جديدة من الشباب الذين تم تعليمهم تعليما راقيا، وتم تدريبهم وتكوينهم وإعدادهم لتولى مسئوليات القيادة.. وقيل لى إنك سوف تفاجأ هذه المرة.. فقد كنت ترى كل القيادات من الشيوخ وكبار السن فى جميع المستويات، ولكنك سترى الآن قيادات من الشباب هى التى تعطى للعمل السياسى والاقتصادى الحيوية والتجدد، وهى التى تقدم أفكارا جديدة لاستكمال بناء الصين لتصبح قوة عظمى قبل أن ينتصف هذا القرن، وقد بدأ تنفيذ قانون جديد يحدد سن المعاش ٦٠ سنة حتى درجة نائب وزير ويحال الوزراء أيضا للمعاش فى سن ٦٥ سنة دون استثناء !

وبعد أن وصلت إلى بكين طلبت أن ألتقى بنموذج من هذه القيادات الشابة فرتبوا لى لقاء مع السيد جانج جى جين نائب الرئيس لدائرة العلاقات الخارجية للجنة المركزية بالحزب الشيوعى الصينى.. وكان مقررا لهذا اللقاء نصف ساعة ولكنه امتد — دون أن يدرى أحدنا — حتى استغرق ساعتين ونصف الساعة تقريبا .

والسيد جانج جى جين حاصل على الدكتوراه فى جامعة لندن، ملىء بالحيوية ، شديد الذكاء ، على إحاطة تامة بتطورات الأحداث فى الشرق الأوسط، ومعجب بالتاريخ المصرى.. ولذلك قال لى فى البداية :

- إن بيننا علاقات مشتركة قوية.. مصر والصين لهما تاريخ قديم، وحضارة قديمة.. نحن أصحاب الحضارات نفهم بعضنا بسرعة، لأن لنا جذورا فى التاريخ.. وكلانا عانى من الاستعمار والاستغلال والنهب،

وكلانا بدأ عصره الحديث بثورة.. نحن فى سنة ١٩٤٩ وأنتم فى سنة ١٩٥٢، وفى الوقت الحاضر فإن الصين ومصر كلتيهما دولة نامية، وتواجه نفس التحدى، وهو التنمية الاقتصادية والاجتماعية.. الفرق الوحيد أن مساحة الصين ١٠ أضعاف مساحة مصر، وسكان الصين ١٢٠٠ مليون نسمة وأنتم ٦٥مليونا، فالتحدى أمامنا أكبر، ومهمتنا أكثر صعوبة.

وقال لى :

- نحن دائما نقول إن الموارد البشرية هى الثروة الحقيقية لنا، وهى سر التفوق، ولذلك نهتم بتنمية هذه الموارد البشرية أولا ، ونعمل على إظهار تفوق الإنسان وقدرته على التغلب على التخلف وآثار عصر الاستعمار.

قلت له : ولكنكم استطعتم فى وقت قصير نسبيا غزو أسواق العالم بمنتجاتكم الصناعية، وكلما ذهبت إلى عاصمة أوربية أجد البضائع الصينية تملأ المراكز التجارية الكبرى، وهذا يعنى أنكم انتهيتم من مرحلة التخلف ودخلتم مرحلة التفوق الصناعى والاقتصادى والتكنولوجى.

قال : من الممكن أن تكون المنتجات الصينية كثيرة فى الأسواق، ولكننى أعتقد أنها مازالت تحتاج إلى تحسين الجودة أكثر، ونحن نصدر كثيرا ولكننا نصدر من منتجاتنا ما يملأ مائة طائرة ولا يكفى ثمنها لشراء طائرة بوينج واحدة.. نحن أمامنا مشوار طويل وشاق لنطور أنفسنا.. نحن نريد أن تكون لدينا القدرة على مواجهة تحديات العولمة.. ونحن واقعيون.. ولانعطى لأنفسنا حجما أكبر من حجمنا الحقيقى.. فالصين دولة من دول الجنوب، ويجب علينا أن نعمل بكل طاقاتنا لنحقق التنمية.

□□□

قلت : إن الدول النامية فى مرحلة كان لها تجمع فى حركة عدم الانحياز وكان للصين فيها دور قيادى، هل يمكن أن تقوم الصين بهذا الدور لتجميع الدول النامية لكى تواجه المخاطر معا بدلا من أن تواجهها كل دولة

على حدة فلا تقدر على مواجهة العولمة والنظام الاقتصادى العالمى الجديد القائم على قوة وحيدة ومسيطرة ؟

قال :

- هذا سؤال كبير.. سؤال يتعلق بالاستراتيجية.. ويتعلق بخصائص وظروف الوضع الاقتصادى والسياسى العالمى الآن.. إن الدول النامية تواجه صعوبات كثيرة ومعقدة.. وتحديات العولمة قوية.. فالدول المتقدمة تزداد قوة بالتكنولوجيا والتفوق العلمى، وهذا يجعل الدول النامية فى وضع ضعيف أمامها، وفى نفس الوقت علينا أن نسلم بأن عولمة الاقتصاد أصبحت طريقا حتميا ولا مفر منها لأية دولة، وكل دولة تريد تحقيق التنمية لايمكن أن تفكر فى تجاهل حالة العولمة الاقتصادية أو تحاول الخروج عليها.. إلى أين تذهب ؟ ليس أمام الدول النامية إلا أن تسير فى طريق العولمة لتحقيق التنمية.. وأعتقد أن على كل دولة من الدول النامية أن تبحث لنفسها عن طريق وعن حلول واقعية.. وهذا ينطبق على التنمية الاقتصادية، وعلى الحصول على التكنولوجيا المتقدمة، والاستفادة من الاكتشافات والاختراعات الحديثة.. وينطبق أيضا على السياسة الخارجية والسياسة الداخلية.. ليس هناك طريق الآن إلا الانفتاح.. الانفتاح على العالم الخارجى.. والانفتاح فى الداخل.. لقد توصلنا إلى أن الدول النامية تحت الضغوط الأجنبية إذا لم تسارع بتطبيق سياسات الانفتاح فسوف تنهار.. فالتنمية الآن بدون الانفتاح الاقتصادى مستحيلة.. ويمكن أن تؤدى إلى الاضطراب السياسى.. وفى نفس الوقت فإن الدول النامية محتاجة لأن تتعاون معا.. هذا التعاون يعطيها القوة ويجعلها فى وضع أفضل مما لو وقفت وحيدة فى هذا العالم الجديد الذى لا مكان فيه إلا للأقوياء والويل للضعيف.. ولذلك فإن سياسة الصين قائمة على التعاون مع الدول النامية.. باعتبارها أكبر الدول النامية.

ثم قال : نحن نواجه الكثير من المشكلات المعقدة.. مثلا فى عملية تطوير الاقتصاد نجد التكتلات الإقليمية تتطور، ففى امريكا الشمالية مناطق للتجارة الحرة، وفى أمريكا الجنوبية تكتل آخر، وفى دول أوروبا تكتل ثالث، وفى آسيا هناك تجمع دول جنوب شرق آسيا.. وهذه المنظمات الإقليمية تطور كل منها يختلف عن الأخرى، وكذلك يختلف تأثير كل منها عن الأخرى، البعض يتخذ هذه التكتلات على أنها وسيلة لمواجهة المشاكل التى تهدده بالعولمة، وعلينا - مع الدول النامية - أن نحدد موقفنا ونقرر: هل سنتخذ هذه المنظمات الإقليمية كحل لنا من تهديدات العولمة.. المشكلة الأساسية أن الدول النامية عددها كبير ولكن قوة الاقتصاد فيها جميعا محدودة جدا، فإذا أرادت أن تؤثر فى السياسة العالمية، وفى الاقتصاد العالمى فإن ذلك يحتاج إلى جهد كبير، ووقت طويل، ويحتاج إلى أن يلتقى الخبراء والكوادر فى الدول النامية ليطرحوا مشاكلهم ويبحثوا معا عن أفضل الحلول الممكنة.. هكذا ترى أنك تطرح سؤالا الإجابة عنه صعبة !

❑❑❑

قلت : فلنطرح سؤالا الإجابة عنه سهلة.. عن أزمة الشرق الأوسط، كيف ترى ما يجرى فى هذه المنطقة البعيدة عنكم جغرافيا ولكنها قريبة منكم سياسيا ؟

قال :

بالنسبة للشرق الأوسط نرى أن القضية الفلسطينية قضية مؤثرة جدا والأزمة بدأت تأخذ اتجاها خطيرا فى الفترة الأخيرة، لأن إسرائيل تتخذ أقصى درجات العنف، والحكومة الحالية رجعت بنا إلى الوراء خمسين سنة وأعلنت الحرب على الشعب الفلسطينى.

قلت : وكيف ترى الموقف الأمريكى من الأزمة ؟

قال : الموقف الأمريكى تغير بشكل يثير الغضب فى الشارع العربى.

قلت: وموقف الصين.. هل تغير؟

قال : موقف الصين كما هو.. وهو معلن دائما فى كل المنظمات الدولية وفى كل المباحثات.. موقف الصين يؤيد حق الشعب الفلسطينى فى إقامة دولة مستقلة على أرضه.. هذا حق مشروع لكل الشعوب.. فلماذا لا يكون حقا للشعب الفلسطينى ؟

قلت : فى الفترة الأخيرة بدأ القلق فى العالم العربى، لأن الصين أصبحت لها علاقات اقتصادية واسعة مع إسرائيل.. فهل سيؤثر ذلك على الموقف الصينى سياسيا؟

قال :

- لا .. الموقف الصينى واضح ولا يتغير بإقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية مع إسرائيل.. إن الصين فى الحاضر كما كانت فى الماضى، وكما ستكون فى المستقبل، الصديق المأمون للدول العربية.. ونحن نشعر بالقلق الشديد إزاء الكوارث التى تحدث فى الأراضى الفلسطينية من كلا الطرفين.. الإسرائيلى والفلسطينى.. الصين تعارض على الدوام اللجوء إلى العنف والقوة لحل المشاكل أو لتعويض الخسائر والكوارث بالإعتداء على الآخرين.

ثم قال :

نحن ندين بشكل علنى ما تفعله إسرائيل من قتل الشخصيات الفلسطينية مثلما فعلت مؤخرا مع أبو على مصطفى زعيم الجبهة الشعبية.. وقد التقى الرئيس جيانج زيمن بالرئيس عرفات منذ فترة قصيرة وأوضح الموقف الصينى من هذه القضية.. وقد أتصل وزير الخارجية الصينى بوزير الخارجية الإسرائيلى وابلغه بالموقف الصينى بشكل واضح.. وبأننا نعتقد أن استمرار حالة الصدام والمجابهة بين الجانبين يؤدى إلى أن تصبح قضية الشرق الأوسط أكثر تعقيدا مما هى عليه الآن.. ونحن نعتقد

أن المفاوضات هى الوسيلة الوحيدة للوصول إلى تسوية وحلول سلمية.. وباختصار فإن الموقف الصينى مع كل ما يؤدى إلى السلام والاستقرار فى منطقة الشرق الأوسط، ونؤيد الشعب الفلسطينى فى حقه فى استعادة أراضيه.. وهذا موقف مع الحق والعدل ولن يتغير..

ثم قال لى :

- فى الحقيقة نحن نشعر بقلق تجاه الوضع فى الشرق الأوسط.. وأنت تعيش الأحداث فى المنطقة فقل لى ما تراه.. ومتى سوف يتحقق السلام فى الشرق الأوسط؟

- قلت : بصراحة ، الموقف كان واضحا قبل وصول الإدارة الجديدة إلى السلطة فى الولايات المتحدة، ووصول الحكومة الإسرائيلية اليمينية برئاسة شارون، وحدث انقلاب فى السياسة الأمريكية والإسرائيلية. فأصبحت إسرائيل تقتل الفلسطينيين علنا ولا تخجل من ظهور ذلك على شاشات التليفزيون.. وتقتحم القرى بالدبابات.. وتضرب مقار السلطة الفلسطينية ومقار الشرطة الفلسطينية ومقار الحرس الخاص للرئيس الفلسطينى.. وتهدم البيوت.. وتجرف الزراعات.. وتهدد بالمزيد من العنف.. والشعب الفلسطينى يشعر أنه فى مصيدة.. ولايستطيع أن يعبر عن رفض الحصار والاحتلال والعنف إلا بتفجير سيارة هنا أو هناك.. الضعيف حين يشعر بالظلم وانعدام العدالة لا يجد سلاحا إلا أن يفجر نفسه إعلانا عن حالة الغضب واليأس .. فى نفس الوقت بدأت الإدارة الأمريكية تتخلى عن دورها ومسئوليتها، وتتجاهل الوثائق التى وقعها الرؤساء الأمريكيون لانسحاب إسرائيل من مناطق فلسطينية ولم تنفذ، بينما نفذت إسرائيل العكس واحتلت أراضى فلسطينية جديدة وأقامت مستوطنات جديدة على هذه الأرض. الرئيس كلينتون كان يتابع بنفسه المباحثات بحثا عن تسوية..

وكادت المباحثات فى كامب ديفيد تصل إلى التسوية، ولكنها اصطدمت بأطماع إسرائيل فى ابتلاع القدس الشرقية والسيادة على الحرم القدسى.. وهذا خط أحمر لايستطيع عرفات ولايستطيع أى زعيم لدولة عربية أو إسلامية التسليم به.. والآن شارون يدفع الفلسطينيين ليصبحوا إرهابيين.. أو ليستسلموا ويقبلوا العيش فى ظل الاحتلال والحصار.. والولايات المتحدة لها مصالح كثيرة مع الدول العربية.. والإرهاب سوف يخرج عن نطاق السيطرة إذا لم يجد الفلسطينيون العدل.. ثم إن الولايات المتحدة تعتمد على الحكام و لاتريد أن تصدق أن الشعوب العربية اصبحت لها إرادة.. والرأى العام فى الدول العربية ينمو ويضغط على الحكومات، ولم تعد الحكومات قادرة على تجاهل إرادة الشعوب وإلا فسوف تزداد الفجوة بين الحكومات والشعوب وفى هذه الحالة ستكون المصالح الأمريكية مهددة.. ولن تستطيع الحكومات أن تسيطر.. الشعوب كلها فى الماضى والحاضر والمستقبل تحارب الاحتلال.. الشعب المصرى حارب الاحتلال.. والشعب الصينى حارب الاحتلال.. والشعب الفرنسى حارب الاحتلال واعتبر ديجول بطلا قوميا لأنه قاد المقاومة ضد الاحتلال.. عرفات مثل ديجول.. وما يفعله الشعب الفلسطينى لا يختلف عما فعلته كل الشعوب التى ترفض الاحتلال وتسعى إلى التحرر.. الولايات المتحدة لاتقوم بدور كاف.. وتصريح هنا أو هناك.. ومبعوث يأتى ويذهب.. هذا لا يصلح لحل مشكلة معقدة وملتهبة كهذه.. وأوروبا أيضا لاتقوم بدور كاف.. ربما لأنها تدرك أن الحل بيد أمريكا وحدها.. والعرب لايعرفون ماذا تريد إسرائيل؟.. ما هى حدود الدولة الإسرائيلية؟ وإذا كانت لا تحترم الاتفاقات المكتوبة فكيف يطمئن العرب إلى المستقبل؟.. باختصار فالمنطقة مليئة بالقلق والتوتر والأخطار..

□ □ □

واستمع إلىّ السيد جانج جى جين باهتمام شديد، ثم قال :

- إن محور إهتمام الدول الأوربية يتركز الآن فى البلقان وشرق اوروبا.. وقد قرأت فى الصحف أخيرا أن المختصين فى أوروبا يولون اهتماما بالشرق الأوسط، وأن الخبراء السياسيين الأوربيين يعتبرون أن منطقة الشرق الأوسط هى حدود لأوروبا ويريدون هذه الحدود آمنة.. فالأمن فى الشرق الأوسط مرتبط بأمن أوروبا.

ثم قال لى :

– ما رأيك فى الاتحاد الأوروبى ؟.. هل يمكن أن تقبل الدول العربية الدور الذى يقوم به الاتحاد الأوروبى ؟

قلت وأنا أضحك : أرى أنك اصبحت صحفيا وتريد أن نتبادل المواقع.. أنا الذى أسأل وأحب أن أتعرف على وجهة نظركم..

وضحك السيد جانج هو الآخر وقال :

– هذا حوار.. وتبادل آراء.. وإجابة عن سؤالك أقول إننا نلاحظ أن الولايات المتحدة مهتمة بالشرق الأوسط وبشبه جزيرة كوريا، وإلى حد ما هذا يؤثر علينا، ومن ناحية أخرى نشعر بالقلق من نظام الدفاع الصاروخى الذى تزمع أمريكا تنفيذه ونريد أن نعرف ضد من سيكون هذا النظام؟.. وأيضا نشعر بالقلق من انسحاب أمريكا من معاهدة كيوتو الخاصة بحماية البيئة فى العالم.. نحن نشعر أن هناك تغيرات كبيرة فى السياسات الأمريكية مع الإدارة الجديدة.. بعض هذه التغيرات ظهر، وبعضها الآخر لم يتضح بعد، وكل الدول تولى اهتمامها بما حدث وما سيحدث من تغيرات.. ونحن أيضا فى الصين نولى اهتماما بالغا بهذه التغيرات.. وهناك بعض المشاكل ظهرت فى العلاقات بين الصين وأمريكا مثل موضوع طائرة التجسس الأمريكية.. وزيادة مبيعات أمريكا للسلاح لتايوان.. بعض الناس

فى أمريكا يعتبرون أن الصين تهديد لأمريكا.. ونتيجة لهذا الفهم تعثرت العلاقات ولم تسر فى طريق سلس خلال هذا العام، ونحن نكافح إزاء تصرفات أمريكا، وقد أعلنا موقفنا تجاه حائط الصواريخ الأمريكى، وأعلنا أننا لانتراجع فى القضايا المبدئية، وفى نفس الوقت أعلنا أننا نرغب فى تحسين العلاقات مع أمريكا.. وفى يوليو الماضى زار وزير الخارجية الأمريكى الصين وأعلن أن أمريكا لاتعتبر الصين عدوا لها، وأعلن ايضا رغبته فى تطوير علاقات بناءة مع الصين، وسوف ينعقد مؤتمر «أبيك» فى الصين فى أكتوبر الحالى وسيحضره الرئيس جورج بوش وسيزور بكين ويجرى مباحثات مع الرئيس جيانج زيمن، وهكذا ترى أننا نولى بالغ الاهتمام بتطوير علاقتنا مع أمريكا.. نحن من صميم قلوبنا نحاول تطوير العلاقات، ولكن لن نتراجع عن مواقفنا فيما يتعلق بالشئون الداخلية والقضايا التى تخص الصين.. ونتمنى أن تصل القمة الأمريكية الصينية إلى نتيجة إيجابية.. ونحن نقول إذا قدمت أمريكا احتراما أكثر للدول الأخرى فسوف تلقى احتراما أكبر من هذه الدول . . ولكن التعامل مع أمريكا ليس بالأمر السهل.

❑ ❑ ❑

قلت : لقد أشرت إلى موضوع التدخل فى الشئون الداخلية.. هذا يحدث بالنسبة لنا ايضا.. فى أمريكا هناك من يثيرون فتنة طائفية فى مصر ويستخدمون المبالغات الإعلامية لتضخيم أحداث عادية تحدث فى أمريكا ذاتها.. إنهم يريدون «دق إسفين».. أو أن يكون لهم فى مصر «مسمار جحا»! مرة باسم حقوق الإنسان ، ومرة باسم الحرية الدينية ، ولكن الهدف الحقيقى أن نظل فى موضع اتهام ونبقى فى موقف الدفاع .

❑ ❑ ❑

قال :

مشكلة أمريكا أنها تعتبر أن حضارتها هى الأفضل ويجب أن تسود العالم.. والعالم فيه حضارات متنوعة ومختلفة وأكثر عراقة وعمقا فى التاريخ من الحضارة الأمريكية.. الصين مثلا لها حضارة عمرها أكثر من ٥ آلاف سنة.. ومصر لها حضارة عمرها ٧ آلاف سنة.. مثل هذه الحضارات القديمة لها جذور ليس من السهل اقتلاعها، ولها قوة جذب.. تجذب الآخرين إليها بأكثر مما تنجذب هى إلى الآخرين.. ونحن لاننكر أن الحضارة الأمريكية لديها مميزات خاصة، ويمكننا أن نتعلم منها، ونتفاعل معها، وتاريخ الحضارة فى العالم قائم على تبادل التأثير والتأثر والتفاعل المتبادل بين الحضارات، ولكن لايمكن لحضارة واحدة أن تحتل العالم كله.. فإن تصور إمكان تحقيق ذلك أمر مضحك جدا!

وقال لى السيد جانج :

- فكر معى فى هذا الأمر.. بالنسبة لدولة تريد تطبيق سياسة للتنمية وتسعى إلى السير إلى الأمام.. من الذى يحدد لهذه الدولة الطريق الأنسب لتسير فيه وتصل إلى هذا الهدف.. هل يحدده شعبها أو تحدده لها دولة أخرى؟ هذا هو السؤال المطروح فى العالم الآن، وإجابته عندنا أنه لايوجد نموذج واحد للتنمية يناسب كل الدول.. ومن حق كل دولة، بل من واجبها، أن تختار الطريق الذى يناسبها ويناسب ظروفها وطبيعة شعبها وتاريخها.. الخ.

وهناك أنظمة ونماذج للتنمية متعددة، يمكن أن تتواجد وتتعايش معا، ويمكن أن تتفاعل ويستفيد أحدها من الآخر، ولكن لا يمكن فرض نموذج واحد على جميع دول العالم دون اعتبار للفروق بينها.. والنموذج الأمريكى فيه إيجابيات.. فالاقتصاد فى النظام الأمريكى أكثر حيوية ونموا، ولكن هذا النموذج فيه سلبيات، وسلبيات كثيرة.. مثلا تم القضاء على مبدأ

العدالة الاجتماعية، وحدثت فجوة هائلة واستقطاب فى المجتمع.. أصحاب الملايين والمليارات فى ناحية.. والمحرومون موجودون فى الناحية الأخرى.. وهذا يؤثر على الاستقرار.. والقضية أن أمريكا تريد من كل دولة أن تطبق النموذج الأمريكى بحذافيره وبجوانبه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وأن تصبح كل الدول تابعة لأمريكا، وهذا النظام ليس معقولا وليس متوازنا ولذلك لن تقبله شعوب تريد نموذجا آخر يناسبها.

ثم قال :

باختصار نحن ندعو إلى أن يقوم نظام العولمة أولا على العدل كأساس للعلاقات الدولية السياسية والاقتصادية . . وثانيا على الديمقراطية.. وحرية كل شعب فى أن يقرر لنفسه الطريق والنموذج، وأن يكون القرار الدولى قائما على الديمقراطية أى على التشاور وليس على فرض الأمر الواقع بالقوة.

❑ ❑ ❑

هكذا يفكر الجيل الجديد من القيادات الشابة فى الصين التى بدأت تحتل مواقع بارزة فى العمل العام.. فى الدولة.. وفى الحزب. . .

الإعدام عقوبة الفساد

عندما قابلت السيد لى تشينج رن النائب الأول لرئيس الجمعية الصينية للتفاهم الدولى، فوجئت بأنه يتحدث اللغة العربية، ويتذوق النكتة المصرية، ويعرف الكثير عن أحوال مصر، ويحب أم كلثوم، والهرم، والنيل ونجيب محفوظ..

وكان اللقاء وديا وكأننا كنا صديقين منذ سنوات والتقينا بعد طول الغياب.. وزال التحفظ بعد لحظات قليلة.. وانتهت كلمات الترحيب التقليدية.. وبدأ الحديث بيننا وكأنه سمر عائلى علّى العشاء.. وكان حريصا على أن يقدم لى أنواعا كثيرة من الطعام الصينى الشهير ويشرح لى مكونات كل طبق بالتفصيل.. ويكرر مع كل طبق: اطمئن.. ليس فى هذا الطعام كله لحم خنزير وليس فيه كولسترول!

وبدأ الحوار بكلمات رقيقة عن علاقة الحب التى تربطه شخصيا بالعالم العربى عموما، وقد عمل لسنوات سفيرا لبلاده فى المنطقة العربية كان أطولها فى اليمن ، وتعلم اللغة العربية فى هذه الفترة، وقرأ كثيرا عن التاريخ والأدب والشعر العربى، ثم تحدث طويلا عن سفيرنا فى الصين الدكتور نعمان جلال فقال إنه يتمتع بثقة واحترام كل القيادات فى بكين، وأنه خبير فى شئون الصين، ويتحدث هو وزوجته اللغة الصينية. ولذلك نشعر أن جسور التفاهم بيننا وبينه كثيرة، ونحن نلتقى كثيرا، والعلاقات بين السفارة المصرية وجمعية التفاهم الدولى وثيقة فلا يكاد يمضى أسبوع ويكون بيننا لقاء هنا أو هناك..

والسيد لى تشينج رن من القيادات المهمة فى الحزب الشيوعى الحاكم، وكان نائب وزير فى الحزب. والآن يشغل منصبا غاية فى الأهمية فى لجنة فحص الانضباط المركزية فى الحزب، وهذه اللجنة تتابع سلوك كل عضو من أعضاء الحزب، ومدى انضباطه الحزبى، والتزامه بتنفيذ سياسات الحزب فى موقعه، كما تراقب الذمة المالية لكل عضو وتحاسب بمنتهى الصرامة العضو الذى تحوم حوله شبهات انحراف سياسى أو مالى أو استغلال للنفوذ أو ثراء غير مشروع.. وتشدد الرقابة والحساب والعقاب على كل من يتولى منصبا كبيرا وخصوصا الوزراء.. ويتحدث أهل بكين عن وزير صدر عليه الحكم بالإعدام بعد ثبوت تهمة الفساد عليه.. وتستطيع أن تلمس أن الشفافية ونظافة اليد ومحاربة الفساد هى القضايا التى تحظى بالاهتمام الأكبر للقيادة الصينية، ويقولون إنهم يعرفون أن سياسة الانفتاح تتضمن إغراءات قد لا يستطيع مقاومتها ضعاف النفوس.. فهناك من لديهم استعداد لتقديم رشاوى وعمولات واقتسام الأرباح مع من يسهل لهم تحقيق الثروة بطرق ملتوية على حساب المصلحة العامة.. وفى المقابل لابد أن تكون الرقابة دقيقة ومستمرة.. ولابد أن يكون العقاب رادعا.. ولابد أن يكون الجزاء لمن يفسد الحياة الاقتصادية والسياسية درسا يجعل غيره يفكر ألف مرة قبل أن يسلك طريق الانحراف.

❑ ❑ ❑

قال لى السيد لى تشينج رن حين سألته عن «جمعية التفاهم الدولى»، إنها تأسست عام ١٩٨١، مع انفتاح الصين على العالم، وهدفها بناء جسور التفاهم والصداقة بين الصين وكل دول العالم، وقد تأسست من الحزب، وعدد من الجمعيات الأهلية المهتمة بالعلاقات الثقافية والخارجية، ومن عدد من الشخصيات البارزة فى المجتمع الصينى ومن المثقفين، ويشترك فى هذه الجمعية ممثلون من«الجمعية الإسلامية الصينية»، ومنذ تأسيس

هذه الجمعية أقامت اتصالات وعلاقات مع أكثر من ٢٠٠ حزب وتنظيم سياسى ومع عدد من المراكز والجمعيات المهتمة بالبحوث والدراسات فى السياسة الخارجية، فى أكثر من ٩٠ دولة، وتستضيف الجمعية عشرات الوفود من كل الدول وتتلقى دعوات لزيارة دول كثيرة، وتنظم ندوات ومؤتمرات دولية تدعو إليها الشخصيات الدولية البارزة فى كل الدول.

وأول رئيس لهذه الجمعية كان من قادة الصين، والرئيس الثانى كان عضو المكتب السياسى للحزب كما كان وزيرا للخارجية فى أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات، ورئيس الجمعية الحالى السيد لى كوى شيان هو نائب رئيس المؤتمر الاستشارى السياسى وهو من قادة الصين.. وهكذا ترى أن هذه الجمعية لها أهمية خاصة، لأنها اليد التى تمدها الصين لتصافح بها الشعوب وتقدم نفسها للعالم، لأننا نشعر بأن العالم لا يفهم الصين جيدا، وربما تكون المشكلة فى اللغة الصينية، وعدم دقة الترجمة فى كثير من الأحيان من اللغة الصينية إلى اللغات الأخرى، ونرى أن الاتصال المباشر، والعلاقات مع قادة الرأى العام هى أفضل وسيلة ليعرف هذا العالم الحقائق الغائبة لسبب أو لآخر.

وحين سألته عن لجنة فحص الانضباط فى الحزب الحاكم، وهل صحيح أن الإعدام هو عقوبة الوزير الذى يثبت عليه الفساد؟

قال:

- نعم.. هذه اللجنة المركزية لعموم الصين.. وفى كل مستوى من مستويات الحزب لجنة مماثلة.. وقد حكم بالإعدام على شخصية قيادية كبرى بتهمة الفساد. وكان يشغل منصب نائب رئيس المجلس الوطنى لنواب الشعب، كما كان يتولى منصب رئيس حكومة الحكم الذاتى لمقاطعة كوان شى، وحين تجمعت الشبهات حوله أجرى معه تحقيق دقيق جدا، كشف ثبوت التهمة عليه، وكان حكم الإعدام هو الحكم المناسب، لأنه يشغل موقعا رفيعا وبالغ الأهمية ، وبقدر المنصب يكون العقاب على

الانحراف، فانحراف الصغار ليس كانحراف الكبار.. الكبار هم القدوة، والجميع ينظرون إليهم ويفعلون مثلهم، والمثل الذى يقول إن السمكة تفسد من رأسها مثل صينى قديم، وإذا فسد القادة والزعماء فسوف يصبح الفساد ظاهرة عامة ويخرب كل شىء.. لذلك فنحن نشدد على مبدأ الشفافية.. والطهارة.. ونحاسب بمنتهى الدقة.. والعيون مفتوحة على ما يفعله كل من يشغل موقعا قياديا فى الحكومة أو الحزب أو القطاع العام..

قلت: وهل ثبت الفساد على شخص واحد فقط ..؟

قال: لا.. هذا مجرد مثال.. أذكر مثلا حالة (شان سى تونج) وكان عضوا بالمكتب السياسى المركزى فى الحزب، كما كان الأمين العام للحزب فى العاصمة بكين، وكان من أعلى القيادات، وحوكم بالفساد وصدر عليه الحكم بالسجن ٧ سنوات، وهو الآن فى السجن يقضى فترة العقوبة.. وطبعا فصل من كل مناصبه..

قلت: وكيف تعمل لجنة فحص الانضباط؟.. ومن أين تبدأ..؟

قال:

اللجنة تتلقى شكاوى وبلاغات من الجماهير.. والناس يرون بعيونهم ويلمسون بأنفسهم.. ومصالحهم تتأثر بالانحراف والفساد.. المحسوبية.. استغلال النفوذ.. الثراء غير المشروع.. الرشوة.. محاباة الأقارب والأصدقاء.. تحقيق منافع مقابل تسهيل الاستيلاء على أرض أو تمرير صفقة.. كل هذه أمور لا تخفى كثيرا على أجهزة المراقبة وعلى الناس.. ونحن نتلقى الشكاوى، ونهتم بكل شكوى، ونأخذها مأخذ الجد، ونحقق فيها، فإذا ثبت أنها مجرد شكوك أو أوهام أو ليس عليها دليل تحفظ، وإذا ثبت أن هذا الشخص خرج على الانضباط الحزبى فإنه يفصل من الحزب فورا.. وإذا كان قد ارتكب مخالفات مالية أو جريمة جنائية تتعلق بالذمة فإنه يحال إلى الجهات القضائية لتتولى التحقيق وتتم محاكمته فى المحكمة المختصة

وفقا للقانون.. لجنة فحص الانضباط فى الحزب مسئولة عن عقاب العنصر القيادى الذى يخرج على الانضباط الحزبى، أو يخالف مبادئ الحزب.. ولكن لهذه اللجنة مهمة أخرى هى التربية السياسية لأعضاء الحزب فى كافة المستويات، ودراسة لوائح الحزب فى المستويات المختلفة وتحديث وتطوير اللوائح التى تحتاج للتحديث والتطوير لكى تحقق للحزب الديناميكية ومسايرة التطورات التى تطرأ على المجتمع والفكر الصينى..

وقال السيد لى تشينج رن:

.. باختصار كوادر الحزب فى كل المستويات يخضعون للرقابة والمحاسبة.. وهناك قواعد تحدد امتيازات كل درجة ومن يحصل لنفسه على ما هو أكثر منها يخضع للمحاسبة.. مثلا كل من هو فى درجة وزير غير مسموح له بركوب سيارة فاخرة.. الكوادر فى مستوى وزير لهم طراز معين من السيارات.. ومثلا أموال الحزب أموال عامة ولذلك تخضع لأجهزة الرقابة والمحاسبة على الإيرادات والمصروفات..

□ □ □

ثم سار بنا الحديث فى اتجاهات كثيرة.. كنت أسأل كثيرا لكى أعرف ماذا يجرى فى الصين، وكان يجيب بوضوح وبتلقائية ودون تحفظ وبقى فى ذاكرتى من إجاباته ما يلى:

عندما كنت أدرس اللغة العربية فى جامعة بكين كنت أقرأ الصحف المصرية وما زالت هذه العادة تصاحبنى.. ولذلك فأنا أعرف كثيرا من الصحفيين المصريين من كتاباتهم، وأتابع القضايا المثارة فى الصحافة المصرية، وأجد فى كثير منها أنها قريبة من القضايا المثارة فى الصين، مثل الانشغال بالنظام العالمى الجديد، وانعدام العدالة ، وازدواج المعايير، وضرورة تحقيق التوازن والديمقراطية العالمية باعتبارها قدرا لا يمكن الهروب منه. ولكن يمكن التعامل معه بتطوير أنفسنا والاستعداد الجيد له، ومثل ظاهرة

النفاق السياسى وهى تمثل أكبر خطر على المجتمع، وأتابع أيضا مايكتب فى الصحف المصرية عما يعانيه الشعب الفلسطينى من الحكومة الإسرائيلية الحالية، قضايا كثيرة تشغلكم فى مصر وهى ذاتها القضايا التى تشغلنا فى الصين، لذلك أرى أن التحديات مشتركة ونقاط التقارب بيننا كثيرة.. فنحن معا ننتمى إلى الدول النامية ولدينا خطط للتنمية ونعمل على تحديث بلدينا.

لقد تعرضنا لضغوط كثيرة لم يحدث مثلها فى التاريخ.. عندنا طبعا صفحات من المعاناة والنضال بسبب الاستعمار الذى ضيع على الصين سنوات كان يمكن أن تحقق فيها الكثير.. ولكن التحديات والضغوط كانت أكثر بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وأوربا الشرقية، وكان السؤال فى العالم كله: هل سيستطيع العلم الأحمر أن يبقى مرفوعا فى الصين..؟ الدول الغربية كانت تتوقع أن الصين ستنتهى إلى نفس مصير الاتحاد السوفيتى، ولكن الصين خيبت ظنون الغرب، وأحبطت محاولاتهم، وأثبتت عدم صحة توقعاتهم.

□□□

وحين سألته : ماذا تقصدون بنظام السوق الاشتراكى الذى تعملون على تطبيقه..؟

قال :

من حقك أن تسألنى كيف نوفق بين نظام السوق والنظام الاشتراكى ونسميه (نظام السوق الاشتراكى)؟. عندنا خطة خمسية للتنمية الشاملة، ونحن ننفذ الآن الخطة الخمسية العاشرة، وهذه الخطة هدفها المحافظة على نسبة النمو فى الاقتصاد فى الصين وهى ٧٪ سنويا، وفى النصف الأول من هذا العام كانت نسبة النمو ٧,٩٪، ولذلك نرى أن تحقيق أهداف الخطة فى حدود الممكن ولن يكون صعبا.

ولكى تلمس ماذا فعلنا يكفى أن تعرف أن معدل النمو منذ ٥٠ سنة كان ٣,٨٪ ومنذ عام ١٩٧٩ وحتى عام ٢٠٠٠ وصل معدل النمو إلى ٩,٥٪ وفى العام الماضى كانت قيمة الإنتاج ألف مليار دولار أمريكى، ومتوسط دخل الفرد فى الصين ٨٠٠ دولار سنويا، وهو رقم متواضع كما ترى بالنظر إلى أن تعداد الصين يزيد على ١٢٠٠ مليون نسمة. والصين الآن فى المرتبة السابعة فى العالم بالنسبة للناتج القومى والصناعة والتصدير، ولكن بحسب متوسط دخل الفرد فهى ليست فى هذه المرتبة ، لذلك لدينا إصرار قوى على تحقيق تنمية سريعة لتحسين مستويات المعيشة، ونعمل على إصلاح الهياكل الصناعية فى الأقاليم والمدن والقرى.

وعندنا قضية تشغلنا الآن، هى قضية تنمية غرب الصين.. لأننا عندما بدأنا قلنا نحن لا نستطيع تنمية كل الصين فى وقت واحد، ونحن نريد تحديث الصين بسرعة وإنتاج التكنولوجيا الحديثة والصناعات المتطورة، فبدأنا تنمية الجزء الشرقى من الصين، وكان التركيز على إنشاء البنية الأساسية اللازمة للتنمية من طرق وكهرباء ومياه ومبان ومساكن ومدارس ومستشفيات ومصانع وفتح الأبواب أمام الاستثمار الأجنبى والبنوك العالمية.. وسوف تزور بعض المدن فى الشرق وبعض المدن فى الغرب، وستلاحظ أن الشرق أصبح متقدما.. ولذلك قلنا مؤخرا.. لقد دفع الغرب ثمن التقدم الذى حققه الجزء الشرقى، وعلى الجزء الشرقى أن يسدد هذا الدين.. ونعمل الآن على تطوير وتنمية الجزء الغربى من الصين.. وهذا موضوع سوف تلمسه بنفسك أثناء زياراتك..

وأيضا استطعنا حل مشكلة الغذاء.. الصين تمثل ٧٪ من مساحة اليابسة فى الكرة الأرضية، ولكن يعيش عليها ٢٢٪ من سكان العالم.. ولم يكن سهلا تنمية الأراضى الزراعية لإنتاج الغذاء الذى يكفى أكثر من ١٢٠٠ مليون إنسان، خاصة أن نصيب الفرد من الأرض الزراعية ضئيل.. فلكل عشرة

أفراد هكتار واحد، وكان علينا زيادة إنتاجية الأرض، وقد حققنا ذلك، ونعمل الآن على زيادة إنتاج الحبوب باستخدام التكنولوجيا الحديثة فى الزراعة.

❑❑❑

وفيما يتعلق بالنظرية الجديدة للحزب فقد بدأ تطبيقها منذ أعلنها الرئيس جيانج زيمن فى ذكرى مرور ٨٠ عاما على تأسيس الحزب فى أول يوليو ٢٠٠١، وقال فيه إننا أنشأنا نظاما اشتراكيا، وأنجزنا أوسع وأعمق تحول اجتماعى فى تاريخ الصين، وحققنا وثبة كبرى فى التحول وبناء الاشتراكية ذات الخصائص الصينية.. سرنا فى طريق الإصلاح.. وفى طريق الانفتاح على العالم الخارجى.. وأقمنا النظام الاقتصادى الوطنى المستقل المتكامل نسبيا، وزادت قوتنا الاقتصادية وقوتنا الوطنية بشكل ملحوظ. ووضعنا حدا لحالة الفقر والتخلف والعقم، وأنشأنا نظاما صناعيا حديثا بسلسلة إنتاج كاملة.. ازداد الناتج القومى الإجمالى ٥٦ ضعفا منذ تأسيس الصين الجديدة.. مع القوة الاقتصادية زادت قدرتنا الدفاعية.. وتقدمنا فى العلوم والتكنولوجيا على نحو ملحوظ. واحتل بلدنا مكانه فى الصفوف المتقدمة فى العالم فى مجالات عديدة من الصناعة والزراعة والدفاع والعلوم.. ولم يحقق النظام الصينى للشعب الذى يزيد على ١٢٠٠ مليون نسمة حلا لمشكلة الغذاء والكساء، ولكن حقق أيضا ضمانا لتحسن مستويات المعيشة بشكل عام أفضل كثيرا مما كان . .

❑❑❑

أكثر من ذلك.. وضعنا حدا لحالة الرمال المتحركة التى كانت تعيش الصين القديمة فيها.. وحققنا درجة عالية من توحيد البلاد.. وقمنا بإلغاء المعاهدات غير المتكافئة التى فرضتها الدول الغربية على الصين، وقمنا أيضا بإلغاء كافة الامتيازات الإمبريالية فى البلاد.. انتهى الانفصال الإقطاعى..

وفى الصين تعدد فى القوميات.. وفى الصين ٥٥ قومية أصبحت تتعايش فى جو من المساواة.. وفى الصين ٨ أحزاب.. وأكثر الناس فى العالم يتصورون أن الصين ليس فيها إلا حزب واحد.. صحيح أن الحزب الشيوعى هو الأقوى.. والأكثر شعبية.. وهو الحزب الحاكم.. ولكن لدينا أحزابٌ أخرى.. لقد استعدنا هونج كونج ومكاو . . ومن المحتم أن يصبح الحل النهائى لمسألة تايوان حقيقة وتعود تايوان أيضا إلى الوطن الأم..

قلت مقاطعا: بالمناسبة.. كيف تنظرون الآن إلى الزعيم ماوتسى تونج؟.. هل تهيلون عليه التراب.. أو ما زال فى نظركم بطلا قوميا..؟

قال:

إننا نذكر بكل الاعتزاز ذكرى ماوتسى تونج، وشواين لاى، وليو شاوتشى، وتشوه ده، ودنج شياو بينج، وتشن بون، وغيرهم من الزعماء الراحلين من الجيل القديم، ونرى أنهم هم وغيرهم قدموا مساهمات كبرى للبناء والإصلاحات فى الصين.

□ □ □

قلت: نعود إلى استكمال الإجابة عن سؤال عن نظرية اقتصاد السوق الاشتراكى ما هى؟.. وماذا حققت..؟

قال:

فى القرن الجديد حددنا برنامج عملنا ويتلخص فى (تحديث الصين، وإعادة توحيد الوطن، وزيادة التنمية). ولذلك أصبح علينا أولا تطوير قوى الإنتاج، وثانيا تحديث البلاد، وثالثا رفع مستوى معيشة الشعب.. الدول الغربية تسعى إلى إثارة المشاكل للصين بإثارة موضوع حقوق الإنسان، مع أنهم يعترفون بأن الصين حققت الكثير فى تحسين مستوى المعيشة وتوفير الخدمات الضرورية، وشهدت أيضا تغييرا كبيرا فى مجال حقوق الإنسان..

ونحن نقول للغرب: لماذا لا تتحدثون عن حقوق الإنسان بالنسبة للشعب الفلسطينى..؟ هم يدعون إلى حقوق الإنسان فى العالم ويتدخلون فى الشئون الداخلية للدول باسم حقوق الإنسان بينما يدوسون على حقوق الإنسان الفلسطينى..

ونعود إلى اقتصاد السوق الاشتراكى.. عندنا خطة شاملة.. وعندنا قطاع عام وقطاع خاص.. وعندنا استثمار أجنبى.. وعندنا مناطق حرة للمستثمر فيها الحرية فى العمل والتصدير وتحويل أرباحه.. وفى الداخل زادت مرتبات العاملين مقابل أن يسهموا فى تكاليف الخدمات. فالطالب يدفع جزءا من تكلفة التعليم والموظف يدفع ٥٪ من تكلفة العلاج.. المواطن الآن لا يحصل على كل الخدمات بالمجان كما كان.. ولكنه يدفع جزءا من التكاليف.. الإصلاح فى حاجة إلى التدرج.. وحسب نظرية الزعيم الراحل دن شياو بنج أن علينا ونحن نعبر النهر سيرا على الأقدام أن نتأكد أن أقدامنا تتنقل على أرض صلبة، ويجب أن تلمس أقدامنا قاع النهر.. وهذا معناه أن علينا ألا نخطو إلا بعد أن نتأكد أن أقدامنا لن تقع فى هاوية.. أى لابد أن نتأكد من كل خطوة ونطمئن على سلامتنا..

يقال مثلا إن المرأة ليس لها مكان فى المجتمع الصينى.. هذا المفهوم لا يتفق مع ما حدث فى الصين الحديثة، فقد أصبح للمرأة فرص فى التعليم والعمل.. وتغير وضع المرأة.. توجد سيدات بين نواب رئيس المجلس الوطنى لنواب الشعب والمؤتمر السياسى.. وتوجد وزيرة التعليم..

الصين تتقدم فى كل المجالات وتساير العصر.. مثلا بلغ عدد مستخدمى الإنترنت الآن ٣٠ مليون شخص..

□□□

وقال لى السيد لى تشينج رن:

إن الفرق بين الاشتراكية والرأسمالية هو الفرق فى علاقات الإنتاج.. فى الاشتراكية لا يوجد استغلال ، والتركيز على العدالة الاجتماعية وتحسين مستوى معيشة الشعب.. ونحن نعمل على تطوير القوى المنتجة.. نحن نعمل على رفع مستوى العمال والمزارعين.. ونهتم باستيعاب وتطبيق وتطوير العلوم والتكنولوجيا الحديثة، ونعمل على تطوير الاقتصاد على أساس علمى.. ومع التقدم الذى حققناه فإننا نرى أن القوى المنتجة فى الصين متخلفة بوجه عام، ونرى أن الصين ما زالت فى المرحلة الأولى من الاشتراكية، ونرى أن التعداد السكانى كبير ، ونرى أن التنمية الاقتصادية والثقافية فيها ليست متوازية.. لذلك نضع فى مقدمة اهتماماتنا تطوير القوى المنتجة.. أما وسائل الإنتاج المتخلفة والتى لا تتفق مع متطلبات التطوير ومع العصر فنحن نرى أن يتم تطويرها تدريجيا إلى أن تتحول إلى الصورة المتقدمة.. نحن نواصل تحسين النظام الاقتصادى الأساسى القائم على الملكية العامة للهياكل الرئيسية.. وعلى التنمية الفردية والمشتركة فى نفس الوقت.. ونعمل على أن يكون توزيع عائد التنمية عادلا لكل بحسب عمله.. ونعمل على التمسك بدولة القانون.. نحن نهتم بالثقافة التى تعكس المرحلة الجديدة من العمل والبناء والإصلاح.. بدلا من رواسب المجتمع القديم أو التى تسللت إلى الصين من الخارج.. نحن نهتم بتكوين جيل جديد يتحلى بالمبادئ الأخلاقية، والتعليم الجديد، والانضباط، ولذلك نهتم اهتماما كبيرا بالتعليم.. نهتم بتوسيع نطاق التعليم.. ونهتم بجودة التعليم ورفع مستواه.. ونهتم بتقوية الروح العلمية بشكل عام.. ونحن نؤمن بنظرية (دع مائة زهرة تتفتح ومائة مدرسة فكرية تتنافس) ولذلك نهتم بنشر الثقافة..

ثم قال لى السيد لى تشينج رن:

نحن نحذر أنفسنا من التركيز على المكاسب المادية والمال دون الاهتمام بالمبادئ والقيم والأخلاق.. لذلك نرفع شعار (علينا أن يكون حكم البلاد بالقانون مع حكم البلاد بالفضيلة).. نحن نقاوم عبادة المال، والأنانية الزائدة، ونعمل على تأكيد احترام الذات، والثقة بالنفس، والشعور بالكبرياء الوطنى.. وما زالت توجد رواسب ثقافات متخلفة فى المجتمع الصينى فيها الخزعبلات، والجهل، والغوغائية، والتفسخ، بل توجد ثقافات تفسد العقول، لذلك نعمل على إصلاح الثقافات المتخلفة، ونبذل جهدنا لمقاومة المفاهيم الخاطئة، ونبدأ بالتربية فى المدرسة لتطوير التقاليد الاجتماعية..

وقال لى السيد لى تشينج رن:

نحن مثلكم نحارب الفساد ولا نتهاون فى ذلك.. كذلك نحن مثلكم لا نسمح لمن هم فى السلطة باستغلال السلطة لتحقيق مغانم شخصية، ونحن أيضا مثلكم لا نسمح لمن هم فى مواقع السلطة بأن يشكلوا مجموعة مصالح أو مراكز قوى.. وشعارنا أن القيادات يجب أن يكونوا أول من يتحمل الأعباء ويعمل للمصلحة العامة وآخر من يستفيد.

وحين سألته عن طبيعة الحزب الحاكم ومدى سيطرته قال:

سأقول لك كيف يعمل الحزب.. الصين بلد كبير.. السكان أكثر من ١٢٠٠ مليون نسمة.. وفيها قوميات متعددة.. وهى دولة نامية.. لذلك فلابد أن يكون للحزب القيادة القوية، وإلا سيقع هذا البلد فى فوضى ويتفكك.. وهذا هو الدرس الذى تعلمناه من تاريخ الصين.. ولكن بعد ثمانين عاما حدثت تغيرات كبيرة فى صفوف أعضاء الحزب، وحدثت تغيرات فى مكانة الحزب وأهدافه.. حدث التطور من حزب قاد الشعب فى الكفاح ضد الاستعمار والاستغلال إلى حزب يقود الشعب وهو يمارس سلطة الدولة.. ثم

تطور إلى حزب يقود البناء الوطنى فى ظل الحصار الخارجى.. ثم إلى حزب يقود عملية الإصلاح والانفتاح.. وتغير الحزب أيضا من حيث عدد أعضائه.. لقد زاد عدد الأعضاء كثيرا.. وتغير كذلك من حيث طبيعة الكوادر، والآن تحل كوادر من جيل الشباب محل الكوادر كبار السن.. الآن تتولى أعداد كبيرة من الشباب مناصب قيادية، وهذا أعطى للحزب، وللدولة، حيوية جديدة.. وأدى هذا إلى تحرير عقولنا.. وأصبحنا نفكر بالروح العملية.. والمعيار الرئيسى للحكم على طبيعة أى حزب سياسى هو نظريته وبرنامجه وهل هما يمثلان الاتجاه الصحيح للتطور الاجتماعى ومصالح الغالبية العظمى للشعب أو لا..؟

□□□

وحين سألته عن نتائج تطبيق سياسة الانفتاح قال:

حدث تغير.. تغيرت تركيبة الطبقات الاجتماعية الصينية إلى حد ما، ظهر رجال الأعمال والفنيون الذين يعملون فى المؤسسات العلمية والفنية من غير القطاع العام، وظهر مديرون وفنيون يعملون فى المؤسسات الأجنبية ومؤسسات التمويل.. وظهر أصحاب مشروعات يعملون لحساب أنفسهم.. وظهر وسطاء.. وخبراء لهم مكاتب خاصة.. وبدأت أعداد كبيرة تتنقل من القطاع العام إلى القطاع الخاص، أو يغيرون مهنتهم ووظائفهم الجديدة. وباختصار ساهمت سياسة الانفتاح فى تطور القوى المنتجة فى المجتمع سواء فى المجال الصناعى أو التجارى أو القانونى.

وقلت: ولكن الحزب ما زال يعتنق النظرية الماركسية.. فكيف يمكن التوفيق بين الماركسية واقتصاد السوق ؟

قال:

إننا نضع التركيز على اقتصاد السوق الاشتراكى، ولكن الظروف التى نواجهها مختلفة عن الظروف التى واجهها مؤسسو الماركسية، وفى ضوء

الظروف الجديدة علينا أن نقوم بدراسة شاملة لنظرية العمل وقيمته.. إن هدفنا من بناء الاشتراكية هو ضمان تحسين مستوى معيشة الشعب.. ومع التنمية الاقتصادية سيعيش شعبنا حياة أفضل وستزداد الملكية الفردية تدريجيا.. ولم يعد المهم أن نحكم على نزاهة أو صلاحية شخص بالنظر إلى ماذا يملك، ولكن نحن ننظر من أين جاء بما يملك.. فإن كان قد جاء به عن طريق مشروع.. أى طريق عمله وجهده.. وإن كان يساهم بما يملك فى تحقيق التنمية.. فإن الطريق أمامه مفتوح..

❐ ❐ ❐

قلت: وماذا بالنسبة لقضية الديمقراطية؟

قال: الأسلوب الأساسى فى التنظيم والقيادة هو (المركزية الديمقراطية) وهى تجمع بين الانضباط والحرية.. فالأفكار والمقترحات والمشروعات تتم مناقشتها فى القاعدة بحرية، ويتم سماع آراء الأعضاء كاملة، وكل الآراء والمقترحات تصعد من القاعدة إلى المستوى الأعلى لتناقش فيها وترفع إلى المستوى الأعلى وهكذا.. وفى النهاية يكون القرار معبرا عن إرادة المجموع.. نعمل دائما على تحسين صنع القرار.. وننفذ مبدأ القيادة الجماعية.. وكل القرارات الرئيسية للجنة الحزب تصدر بعد المناقشات وبأغلبية أصوات أعضاء اللجنة.. ولا يسمح لأحد – مهما كان – أن تكون له وحده الكلمة النهائية.. وهذا يحدث فى لجان الحزب، وفى المجالس الشعبية والحكومية وفى الحكومات المحلية.. وفى المؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى، ومشكلتنا أن الذين لا يعرفون كيف تدار الصين لا يعرفون أن الديمقراطية عندنا مبدأ أساسى يتم تطبيقه فى كل المستويات..

قلت: هل استطاع الجيل الجديد من الشباب أن يحسن إدارة الأمور بعد أن تولى مواقع قيادية.. أو حدثت فجوة أو هزة نتيجة الانتقال من جيل الحكماء إلى جيل الشباب؟

قال:

طبعا تم الانتقال بحكمة.. بعد تنشئة كوادر إدارية وفنية وسياسية أفضل تعليما وأكثر كفاءة.. وفى نفس الوقت قمنا بإصلاح نظام شئون العاملين لتكوين فصائل من المسئولين فى المستويات والقيادات العليا.. وبالتدريب والتوجيه أصبح لدينا الآن كوادر مفتوحة ونزيهة وعلى أساس الكفاءة.. وكل من يعمل يمكن أن ينال ترقية إلى درجة أعلى ويمكن أن يقرر خفض درجته على أساس مستوى كفاءته، ووضعنا إجراءات حازمة لمنع ومعالجة سوء التصرف فى التوظف والترقية.. التى تتم بموضوعية.. ونحن نحرص على اكتشاف الموهوبين وإعطائهم الفرصة والمكافآت بقدر مساهماتهم.

ثم قال لى وهو يضغط على كلماته:

لقد وضع لنا الرئيس جيانج زيمن مبدأ نلتزم به.. وهو أن حياة أو موت الحزب والدولة يتوقفان على محاربتنا للفساد، وأن تكون لدينا حكومة نظيفة.. والمعركة ضد الفساد معركة مستمرة.. وليس هناك أحد فوق القانون.. ونحن نعتبر السلطة اختيارا للشخص.. ولا نسمح بإساءة استخدام السلطة لمغانم شخصية، أو للحصول على الرشاوى أو خرق القانون.. وكل بادرة فساد أو مخالفة للقانون تخضع للتحقيق.. ولا تسامح فيها أو شفقة.. لأننا نعرف أننا لن نكسب ثقة الشعب إلا بأن نكون قدوة فى السلوك المستقيم.

قلت: لقد زرت الصين من قبل فى عام ١٩٩٥ وأرى أن الفارق كبير جدا.. الصين الآن مختلفة تماما عن الصين التى رأيتها منذ ست سنوات.. وألاحظ على وجوه الناس راحة وشعورا بالأمان والاستقرار.. كما ألاحظ مبانى جديدة.. وطرقا وكبارى.. وعمارات شاهقة.. ولافتات مضيئة.. ومطاعم تقدم أكلات أجنبية وسلعا مستوردة.. ماذا يجرى بالضبط فى هذه الأيام؟

قال: هذا لأن الصين دخلت مرحلة جديدة من مراحل التنمية.. هذه المرحلة هى مرحلة بناء مجتمع الرفاهية .. مرحلة الإسراع فى تحديث

المجتمع كله.. وفى هذه المرحلة نحن نعمل بمجهود أكبر.. ونحشد طاقاتنا.. وفى نفس الوقت نحن مستعدون للمحن فى وقت السلم.. ونحذر أنفسنا فى هذه المرحلة من الطيش والتهور.. ونضع لأنفسنا هدفا هو الوصول إلى هذه المحطة فى منتصف هذا القرن.. وعندما نصل إليها ستكون الصين قد استكملت مراحل التطور، وستكون لديها ثروة تكفى لرفع مستوى الحياة لكل الشعب، وسنكون قد أنجزنا مهمة تطوير الأفكار، وأنجزنا أيضا التحول الديمقراطى، ونحن الآن نحصن أنفسنا بالمعايير الأخلاقية العالية.. نحن نحرص على أن يكون الكلام عن المثل والأخلاق السامية مرتبطا بالعمل الفعلى وجعل هذه الأخلاق والمُثل جزءا من السلوك اليومى لكل مواطن.. ونحن نقول إننا ما زلنا فى المرحلة الأولى من الاشتراكية، وسنبقى كذلك لفترة ليست قصيرة.. إلى أن نصل إلى استكمال التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعى ، لتصل ثمار التنمية إلى الجميع..

ثم قال وهو يبتسم:

إن الكلام سهل.. والعمل صعب.. ونحن – باختصار – نربط الكلام بالعمل.. نحن نعمل بكل جهدنا لتنفيذ الخطة العاشرة.. ونعمل على تعديل هيكل الاقتصاد.. ونركز كل جهدنا على الإصلاح، والانفتاح، والتقدم العلمى والتكنولوجى، وكل يوم نسأل أنفسنا كم خطوة خطوناها إلى الأمام، ونحرص على توازن العلاقات بين الإصلاح.. والتنمية.. والاستقرار.. ونحدد التناقضات التى تظهر بين صفوف الشعب ونعمل على فهمها ومعالجتها معالجة صحيحة..

ثم التفت إلىّ وهو يبتسم ابتسامة واسعة وقال:

ما رأيك أنت فى هذا الكلام؟

قلت: يكفى هذا.. أظن أنى عرفت الآن سر التقدم الذى تحقق فى الصين والذى يعتبره البعض معجزة.

كيف يفكرون ؟

كان أول انطباع بعد هبوطى إلى مطار بكين، ومشاهداتى فى الطريق، وما رأيته وسمعته فى التليفزيون وفى لقاءاتى مع عدد من المسئولين وغير المسئولين أن كل شىء فى الصين يتغير.. الناس.. والعقول.. والأفكار.. وأسلوب الحياة.. وطريقة التفكير.. والمبانى.. والتطلعات.. والجامعات.. ومراكز البحوث.. كل شىء يتغير.. ولم أجد أمامى سوى أن أتخلى عن كل ما كان فى رأسى من معلومات وأفكار عن الصين، وأبدأ من جديد فى فهم حقيقة ما يجرى فى هذا البلد الذى يحقق قفزات مذهلة.. وينظر أمامه بمنتهى الثقة.. ويتحرك إلى الأمام بمنتهى القوة.. وبمنتهى التواضع والواقعية أيضا..

وفى قاعة الشعب الكبرى (البرلمان الصينى) كان موعدى على العشاء بدعوة من السيد لى قوى شيان نائب رئيس اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى، وهو أحد القادة الكبار للحزب الشيوعى الذى يتولى قيادة الصين، ونائب رئيس مجلس الشيوخ أو مجلس الشورى ويسمونه المجلس الوطنى لنواب الشعب، وهو منصب رفيع يجعل صاحبه فى دائرة صنع القرار، وهو أيضا رئيس جمعية التفاهم الدولى التى تعمل على ربط الصين بالعالم.

وفى القاعة الكبرى — قبل العشاء — دار حوار طويل استغرق ساعتين، ثم امتد بعد ذلك على العشاء لأكثر من ساعة.

فى البداية قال لى السيد لى قوى شيان: عندنا مثل صينى يقول: «إن الناس فى الخارج يعرفون عنك أكثر مما تعرف عن نفسك، ويرون

ما يجرى حولك أكثر مما ترى»، وقد رأيت كثيرا من الأماكن، وقابلت كثيرا من الناس، ولأننا نعيش هنا فإننا لا نرى ما يراه الآخرون الذين يأتون من الخارج.. وفى كل مرة التقى فيها بأصدقاء أجانب أسألهم: ماذا رأيتم فى الصين؟.. وما رأيكم فيما رأيتم؟.. فما رأيك أن نبدأ اللقاء بهذا السؤال؟

قلت : إن انطباعاتى عما رأيت أن الصين بلد المستقبل، وأنا شخصيا مذهول من أنكم حققتم كل هذه الإنجازات فى الصناعة والتكنولوجيا، وفى الاقتصاد، والتصدير، وفى التعليم، وفى بناء المدن والطرق والكبارى والمطارات.. أنتم تحققون معجزة فى زمن قصير.. لم تمض سوى عشرين عاما ولكن أصبحت لديكم صناعات تكنولوجية متقدمة جدا وحديثة جدا، وسياسة الانفتاح عندكم جعلت بلدكم بلدا صناعيا.. وهناك الكثير مما يقال.. ولكن أرجو أن تسمح لى أن أسأل أنا، وبعد ذلك لك أن تسألنى كما تشاء.. لأنى صحفى.. وعملى أن أسأل.. وسؤالى الأول: كيف استطعتم أن تجمعوا بين النظام الاشتراكى، وسياسة الانفتاح واقتصاد السوق؟ كيف أمكنكم حل هذه المعادلة الصعبة ؟

قال : هذا يرجع إلى ظروف الصين، فقد قامت جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩ وكان عدد السكان فى ذلك الوقت ٥٠٠ مليون نسمة تقريبا، و على وجه الدقة كان العدد ٤٧٠ مليون نسمة، وكان الإنتاج الزراعى لا يكفى لإطعام هذا العدد، وكانت الحرب قد دمرت الهياكل الصناعية الأساسية، فكان إنتاجنا من الحديد محدودا لايتجاوز ٣٠٠ ألف طن، وكان المجتمع الصينى شبه إقطاعى، ولم يصل بعد إلى المجتمع الرأسمالى، وحتى ذلك الوقت لم يكن فى الصين قوانين وتشريعات تنظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتحدد الحقوق والواجبات.. هكذا كان الحال حين قامت الجمهورية عام ١٩٤٩.. وبعد قيام الجمهورية لم يكن أمامنا إلا أن نعمل على

نقل القوانين والتشريعات الاقتصادية والإدارية من الاتحاد السوفيتى، وأن نطبق نظاما اقتصاديا مركزيا، بحيث أصبحت جميع الموارد ووسائل الإنتاج خاضعة لإشراف وسيطرة الدولة.. وسيطرة الدولة على الأسعار.. وكان الدخل القومى منخفضا لا يكاد يكفى لتوفير الطعام لكل المواطنين وتلبية احتياجاتهم الأساسية.. ولذلك ألقيت أعباء كثيرة على كاهل الدولة.. وكان الدخل الذى يحصل عليه العمال وغيرهم يكفى للغذاء فقط.. وكانت السلع والمنتجات تباع باسعار تحكمية بأقل من التكلفة.. وكان على الدولة أن تواجه مشكلة توفير الغذاء، والعمل، والسكن، والعلاج، وكافة الخدمات الضرورية لكل هذه الأعداد الكبيرة من البشر. ولم تسر عملية الإصلاح والبناء فى طريق مستقيم، ولكن توقفت حركة البناء والتقدم فى عام ١٩٥٨.. فى هذا العام حدثت أخطاء كثيرة أدت إلى تدمير قوى الإنتاج، وإلى القضاء على معظم الغابات والأشجار لبيعها وشراء الحديد اللازم للبناء، وفى الفترة من عام ١٩٦٦ حتى عام ١٩٧٦، ولمدة عشر سنوات هى فترة الثورة الثقافية شهدت البلاد تدميرا لا مثيل له فى الاقتصاد، وانهيارا فى الأسعار وعاشت البلاد فى حالة شلل، حتى الجامعات والمدارس والمصانع توقفت.. وكان الانهيار شاملا.. وكان علينا أن نبدأ من جديد..

❑ ❑ ❑

وقال السيد لى قوى شيان :

هكذا سارت الأمور.. لايمكنك فهم ما يجرى فى الصين الآن دون أن ترجع إلى تاريخ الصين وإلى تجارب التقدم والتراجع.. ونحن نعتبر عام ١٩٧٨ نقطة تحول فاصلة.. فى هذا العام بدأت أولى خطوات الإصلاح على يد الزعيم الراحل دينج شياو ينج الذى فكر فى كيفية مواجهة الحكومة لهذه الأوضاع السلبية بإجراءات محددة، خاصة بعد أن تبين أن النموذج الاقتصادى السوفيتى لم يحقق الإنجازات المأمولة، وطرح دينج شياو بنج

أفكاره عن الإصلاح القائم على اساس جديد، ونقطة الإرتكاز عنده كانت العمل والبناء الاقتصاى، وكان الطريق إلى ذلك هو الانفتاح على العالم، مع التمسك بالمبادئ الأساسية، ورغم أن الطريق لم يكن واضحا أمامه، ولكن ينج شياو بنج تعلم من التجربة لتصحيح المسار، وسار بحرص ودون تسرع لكى يتأكد أنه يسير على أرض صلبة، وليس معرضا للوقوع فى هاوية، وكان شعاره فى ذلك المثل الصينى الذى يقول: «إن عليك وأنت تعبر النهر أن تتلمس الأحجار فى القاع»، والمعنى أن يتأكد أنه لن يسقط فى منطقة بلا قاع، وكان المبدأ الأساسى الذى سار عليه منذ بداية الثمانينات هو أنه لايمكن بناء نظام رأسمالى بدون تخطيط، ولايمكن بناء اشتراكية بدون سوق، وهكذا سارت الصين فى طريق يجمع بين نظام مركزية التخطيط الاقتصادى ونظام آلية السوق، وحددت الدولة مجالات لكل نظام منهما، واستمرت هذه المرحلة عشر سنوات، وحققت الصين خلالها زيادة ملحوظة فى الإنتاج، وفى نفس الوقت ظهرت سلبيات الانفتاح والحرية الاقتصادية، وأهمها ظهور الاحتكار، وظهور الطبقة الجديدة ذات الدخول المرتفعة والإنفاق الاستهلاكى، وبقيت ازدواجية النظام الاقتصادى.. نظام التخطيط المركزى ونظام التخطيط الإرشادى أو التأشيرى، وازدواجية فى الأسعار.. سلع تخضع لسيطرة الدولة فى تحديد أسعارها، وسلع تخضع أسعارها لعوامل السوق، وهذه السلع فى مجالات محددة.

وقال السيد لى قوى شيان وهو يشرح لى تطور التجربة الصينية : هكذا سارت الصين عشر سنوات.. نظامان فى الاقتصاد.. ونظامان فى الأسعار.. وكان لذلك جانب إيجابى وجانب سلبى، الجانب الإيجابى هو تحقيق نمو اقتصادى وزيادة الإنتاج وتحسين نوعيته وإيجاد فرص عمل.. الجانب السلبى هو ظهور فئة اتخذت من اقتصاد السوق فرصة لتحقيق مكاسب كبيرة..

وفى عام ١٩٩٢ طرح بشكل رسمى إقامة نظام السوق الاشتراكى، والتخلى نهائيا عن نظام التخطيط المركزى، مع وجود تخطيط سنوى لمجلس الدولة يقوم على دراسة مؤشرات واتجاهات السوق بصورة تنبؤية، وليس بالتخطيط المركزى الملزم، والخطة السنوية التى يعدها مجلس الدولة (مجلس الوزراء) تعرض وتناقش وتعتمد من مجلس نواب الشعب (البرلمان) وخلال هذه العملية تم التركيز على أمرين أساسيين :

الأمر الأول : هو إصلاح هياكل المؤسسات، والفصل بين هذه المؤسسات والدولة، وبدأنا فى إعادة تنظيم الدولة، ففى سنة ١٩٨٨ كان لدينا ٦٠ وزارة، فانخفض العدد فى سنة ١٩٩٢ إلى ٤١ وزارة، ثم أنخفض العدد فى عام ١٩٩٨ فأصبح ٢٩ وزارة، وكان الهدف هو زيادة استقلالية العديد من الهيئات والمؤسسات، وتقوية وزارة الصناعة وتتبعها ٨ هيئات للتكنولوجيا، ووزارة البتروكيماويات، ووزارة للإلكترونيات، وأصبحت المؤسسات مستقلة وتعتمد على نفسها فى الإدارة ولاتنتظر تعليمات أو موافقات، وتم إلغاء كل الوزارات ذات الطابع الإدارى، وكنت أنا مسئولا عن إتمام عملية إلغاء هذه الوزارات من سنة ١٩٩٢ إلى سنة ١٩٩٨ وكان هذا العمل صعبا للغاية، ولكن لم يكن ممكنا أن نطبق نظام السوق الاشتراكى بدون القضاء على سيطرة المركزية المتمثلة فى هذه الوزارات، وفى نفس الوقت عملنا على تقوية وزارة المالية، والبنك المركزى، وقد شغلت وظيفة محافظ البنك المركزى لسنوات، وكذلك ركزنا على تقوية مصلحة الضرائب، وامتدت هذه الإصلاحات فى الهياكل الإدارية للدولة إلى مستوى المقاطعات، والمحافظات، وكان الشعار هو المثل الصينى الذى يقول: «هذه ليست معابد وليست آلهة»، أى إن كل شىء يمكن إعادة النظر فيه.

والأمر الثانى : الذى سرنا فى تحقيقه هو إقامة نظام تشريعى وقانونى قوى لتنظيم مجالات الإدارة والاقتصاد.. مثل قانون الميزانية وقانون المحاسبات، وقانون البنك المركزى، وقانون الشركات، وقانون البورصة وغيرها من القوانين التى وصل عددها إلى ٨٠ قانونا تمثل نظاما قانونيا متكاملا.

فى نفس الوقت ظلت الصين متمسكة بالميزة المهمة للاشتراكية وهى ملكية الدولة للمرافق والمجالات الرئيسية، أما المؤسسات الصغيرة فقد قمنا بعرضها للبيع أو التأجير ويمكن للأجانب شراء أسهمها، فالدولة تسيطر على السكك الحديدية، والاتصالات والمواصلات، وصناعات الحديد والصلب، والبتروكيماويات وتجارة الحبوب، واقتصاد السوق قائم فى نفس الوقت تحكمه القوانين وإشراف الدولة.. ولدينا الآن بورصة فى شنغهاى، وبورصة ثانية فى مدينة شنجن، ولكن الشرايين الأساسية فى الدولة تملكها الدولة.

❑ ❑ ❑

وقال السيد لى قوى شيان: هنا ظهرت المشاكل الناتجة عن آلية السوق، مثلا فى عام ١٩٩٥ حدث تراجع فى نمو الاقتصاد، وكان النمو بالسالب، وزادت نسبة البطالة نتيجة زيادة عدد العمال الذين تم الاستغناء عنهم، وكان علينا تشغيل هؤلاء فى بناء المرافق الأساسية والبنية التحتية، وواجهنا أيضا مشكلة التضخم مرتين مرة فى سنة ١٩٨٨، ووصلت نسبة التضخم إلى ١٨,٥٪ والمرة الثانية فى سنة ١٩٩٣ ووصلت نسبة التضخم إلى ٢١٪، وواجهت الدولة هذه المشكلة بخفض المصروفات ، والقروض، والضرائب.

وفى الحالتين كنا نطبق سياسة مالية إيجابية، فأصدرت الدولة سندات لجذب الأموال لبناء المرافق الأساسية مثل الطرق والسكك الحديدية.

ومازال أمامنا أن نعمل لتحقيق التوازن والتكامل بين النظام الاشتراكى ونظام السوق المنضبط الذى نسميه نظام السوق الاشتراكى، وأمامنا أيضا تصحيح مسار بعض قطاعات القطاع العام التى تحقق خسائر، وأمامنا مشكلة زيادة أعداد المسرحين، وظهرت عندنا مشكلة جديدة هى أن الفوارق فى الدخل ازدادت واتسعت الفجوة وظهرت الطبقة الوسطى فى الصين.. ونحن فى مرحلة البحث عن أفضل الطرق لمواجهة هذه المشاكل..

وفى الوقت الحاضر تهدف الدولة إلى المحافظة على تحقيق نمو اقتصادى سريع، وتطوير التشريعات المنظمة للاقتصاد، وتطوير نظام السوق الاشتراكى.

وقال لى السيد لى قوى شيان : هكذا ترى أن الإجابة عن سؤالك ليست سهلة..!

□□□

قلت : عندى سؤال آخر يتعلق بنظرتكم للنظام العالمى الجديد الذى يجرى تشكيله الآن.. كيف ترون هذا النظام العالمى الجديد؟.. وأين مكان الصين فيه فى تقديركم ؟

قال : نحن نرى أنه بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، واختفاء المعسكر الاشتراكى، وانتهاء الحرب الباردة، تسعى الولايات المتحدة إلى أن تكون القوة الوحيدة فى العالم، وتعمل على التدخل فى شئون الدول والإشراف على حركة النظام العالمى الجديد، ورغم أننى لست مسئولا عن الشئون الخارجية، فإننى أرى أن هذا شىء مستحيل، وقد أثبتت التجارب التاريخية أن استمرار وجود قوة واحدة أو قطب واحد فى العالم أمر مستحيل، ولابد أن العالم سوف يتجه إلى نظام التعددية، حيث تتعدد مراكز القوة، وتتعدد الأقطاب، وهذا أمر ضرورى لتحقيق التوازن العالمى، والاستقرار، والتنمية، والسلام. والتنمية هنا خيار استراتيجى.

قلت : وكيف ترون العولمة ..؟

قال: الحقيقة أن التطور الاقتصادى الذى شهده العالم حقق تطورا سريعا، بحيث أصبحت العولمة أمرا لايمكن مقاومته، لأن ظاهرة العولمة ترتبط بالتطور، ويبقى أن نفكر ماذا تعمل الدول النامية؟ وأقول: إن عليها الدفاع عن مصالحها فى مواجهة الآثار السلبية للعولمة، خاصة وأن جبهة الدول المتقدمة متماسكة وتحافظ على مصالحها بقوة، مثلاً صندوق النقد الدولى تسيطر عليه الولايات المتحدة، لأنها تملك ٢٥٪ من الأسهم انخفضت الآن إلى ٢٣٪، والولايات المتحدة تعمل على السيطرة على هذا الصندوق، بحيث لايمكن تمرير أى شىء بدون موافقة الولايات المتحدة، والدول الصناعية السبع الكبرى هى التى تتحكم فى الاقتصاد الدولى، وهى لاتكترث بمصالح الدول النامية، وعندما كنت أتولى منصب محافظ البنك المركزى كنت أحضر اجتماعات صندوق النقد الدولى، وقبل كل اجتماع كان وزراء المالية فى الدول الصناعية السبع الكبرى يعقدون معا اجتماعا ليقرروا ما سينتهى إليه اجتماع الصندوق.. وهذا ما أراه.. قد يكون صحيحا، وقد يكون غير صحيح، وأرى أن الدول النامية عليها أن تركز قوتها فى التنمية وتطوير اقتصادها لكى تضيق الفجوة بينها وبين الدول المتقدمة وتشارك فى الاقتصاد العالمى، وتتضامن فيما بينها، لأن التضامن يعطيها قوة.. وهذه رؤيتى من خلال مشاركتى فى مؤتمرات المنظمات الاقتصادية و المنتديات العالمية..

❑ ❑ ❑

قلت: والحزب.. الحزب الشيوعى هو الذى يحكم الآن.. ومع التغيرات الواسعة فى المجتمع الصينى اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وتزايد النشاط الفردى .. هل يهدد ذلك الانضباط الذى يتميز به الحزب الشيوعى الصينى.. وباختصار

ما هى رؤيتكم لمستقبل الحزب الشيوعى مع نمو الفردية واقتصاد السوق والطبقة الجديدة؟

وقال السيد لى قوى شيان: إن الحزب الشيوعى الصينى تأسس منذ ٨٠ عاما، وأنا عضو فيه منذ ٤٠ عاما، وقاعدته الجماهيرية واسعة، ولديه القدرة على الاستمرار فى قيادة الشعب، والرئيس جيانج زيمن طرح فى الاحتفال بذكرى مرور ٨٠ عاما على تأسيس الحزب ثلاث مهام رئيسية:

أولها : تمثيل متطلبات التطور فى قوة الإنتاج الصينى، وثانيها: تمثيل الحضارة الصينية والاحتفاظ بالشخصية القومية، وثالثها: تمثيل المصالح الأساسية للأغلبية العظمى من الشعب الصينى، وهذا الاتجاه يلاقى الترحيب من الجماهير، ونجاح الحزب فى التعبير عن مصالح الجماهير هو ضمان استمراره وتطوره، ومن المهم أن ندرك أهمية عنصر القيادة، التى تمثل المحور لعمل ونشاط وتماسك الحزب، والقيادة هى قوة الدفع والتحرك، وهى التى تعمل على تعبئة الجماهير وراء الحزب، وقيادات الحزب فى الأجيال الثلاثة: ماوتسى تونج، وبنج، وزيمن جميعا على درجة عالية جدا من الكفاءة، وفى الحزب نظام دقيق لاختيار الكوادر والقيادات لأنها هى عنصر التجمع الشعبى حول الحزب، ولذلك فإن التصعيد يتم من القاعدة إلى القمة، وفى القاعدة الجماهيرية للحزب هناك التزام ونظام وآلية لمراقبة السلوك الحزبى لكل عضو، وفى الحزب أيضا نظام المراقبة الصارم لأداء العضو القيادى وكفاءته فى أداء المهام الحزبية التى يكلف بها، هذا النظام يتضمن إجراءات صارمة يتم اتخاذها ضد أى عضو قيادى فاسد، والحزب يحاسب، بكل حسم، العضو الذى يثبت عليه الفساد مهما كان موقعه، وعلى سبيل المثال تمت محاكمة نائب رئيس سابق للمجلس الوطنى لنواب الشعب وحكم عليه بالإعدام، وتم تنفيذ الحكم.. لاتهاون مع الفساد.. وفى نفس

الوقت هناك نشاط وجهد لجذب عناصر جديدة صالحة.. وبذلك نضمن نظافة واستمرار تماسك الحزب.. واستمرار ثقة الجماهير فيه..

وقال لى السيد لى قوى شيان: وأنت.. كيف ترى النظام العالمى الجديد..؟

قلت : أنا أتفق معك فى أن الولايات المتحدة الآن هى الدولة الأقوى عسكريا واقتصاديا وسياسيا، وهى الأكثر نفوذا وتأثيرا على دول العالم، وحتى على الاتحاد الأوربى، وفى نفس الوقت هناك قوى صاعدة فى الأفق العالمى، ومنها الصين، وأعتقد أنها سوف تحتل مكانا مؤثرا فى المستقبل القريب كقوة اقتصادية، ولكنى أخشى على مستقبل الدول الصغيرة النامية، خاصة أن النظام العالمى الجديد يعمل على إعادة رسم الخرائط وتغيير الحدود، وهناك شعوب تعانى من الجوع وشعوب تواجه الموت، ودول تختفى ودول على وشك الاختفاء، أفريقيا تتراجع، ولم يعد لمنظمة عدم الانحياز تأثير، ولا منظمة الوحدة الأفريقة ولا الجامعة العربية ولا حتى الأمم المتحدة.. وطوق النجاة الوحيد للدول النامية أن تتجمع لتصبح قوة يمكن أن يكون لها حساب فى عالم لم يعد يعرف إلا منطق القوة..

ثم قلت : عموما ليس هدفى أن أعرض أفكارى.. هدفى أن أسأل.. وسؤالى كيف ترى الصين أزمة الشرق الأوسط.. وهل هناك تغير فى مواقفها المؤيدة لحقوق الفلسطينيين؟

قال : لقد كان الرئيس عرفات فى الصين فى شهر أغسطس ٢٠٠١، وأجرى معه الرئيس زيمن مباحثات، وكانت تصريحات الرئيس زيمن أثناء زيارة عرفات مؤكدة لاستمرار الموقف الصينى، وقد أعجبتنى كلمة الرئيس كاسترو فى مؤتمر مناهضة العنصرية فى دربان حين أعلن: أن على الدول المتقدمة تعويض الدول النامية عن نهب ثرواتها، وخاصة أفريقيا..

قال السيد لى قوى شيان: وماذا يجرى فى مصر ؟

قلت : نحن أيضا مشغولون بالإصلاح الاقتصاى، وإعادة بناء الاقتصاد على أساس اقتصاد السوق، والخصخصة، ومشغولون كذلك بمشروعات التنمية الكبرى مثل مشروع توشكى، ومشروع تنمية سيناء، والمنطقة الحرة الجديدة شرق بورسعيد، وغيرها، وأعتقد ان الاستثمارات الصينية أمامها فرصة كبيرة للمشاركة فى هذه المشروعات.

وقلت : سؤالى الأخير .. فى ظل انفتاح الصين على العالم .. ودخول أنماط جديدة للاستهلاك والسلوك والثقافة، هل يمكن أن يظل المجتمع الصينى محتفظا بطابعه القومى، وشخصيته المميزة، وعاداته، وتقاليده، أو سيتأثر بهذا الانفتاح ويخضع للتغيير، وتدخل فيه عناصر ومؤثرات غربية وأمريكية..؟

قال : من خصائص الشعب الصينى أنه يحافظ على عاداته وتقاليده الراسخة، وكان ذلك هو السبب فى أن الصين حافظت على نفسها على مر السنين، وبلد مثل الصين له حضارة وثقافة قديمة ليس من السهل تغييرها، ولكن إذا انفتح الباب على مصراعيه على العالم، فإن ذلك يمكن أن يؤدى إلى مشكلات كبيرة.. مثلا الطعام الصينى يتميز بأنه خفيف ويعتمد على الخضراوات أكثر من اللحوم، ولذلك يتمتع الصينيون بالنشاط والحيوية والصحة وتقل فيهم الإصابة بأمراض القلب والشرايين ويعيشون طويلا، ولكن بعد دخول ماكدونالدز وكنتاكى والأكلات الأمريكية السريعة الدسمة، والإعلانات عنها فى التليفزيون، شجع هذا الناس على تناول هذه الأكلات، فبدأت تظهر أمرا ض القلب والشرايين والسمنة والسكر.. وبعد عشرين عاما سيكون التاثير أكبر اجتماعيا وصحيا . .

كذلك تأثرت الأسرة بالانفتاح.. فالعائلة فى الصين لها قوة.. الصغير يحترم كبير السن.. والجميع يهتمون اهتماما كبيرا بالأطفال والعلاقة بين الرجل والمرأة فيها توازن، وتطبق سياسة الزوجة الواحدة بشكل صارم..

ولكن حدث تغير.. ازدادت نسبة الطلاق.. بعض العائلات أصبح لها عائل واحد (الأب أو الأم) العائلة أصبحت تعنى بالأطفال أكثر من اللازم.. لأن النظام عندنا هو أن يكون لكل زوجين طفل واحد فقط، حتى نحافظ على تعداد السكان، وقد أصبحنا الآن أكثر من ١٢٠٠ مليون نسمة.. ولكن ذلك أدى إلى أن الزوجين أصبحا يتعلقان بالطفل الوحيد تعلقا زائدا.. وكذلك يتعلق بهذا الطفل والدا الزوجة ووالدا الزوج.. والجدود أيضا.. فالطفل الواحد يجد ٦ أفراد يهتمون به حتى أصبح الطفل فى الصين إمبراطورا صغيرا.. وهكذا حدث تغير، ولكن فى إطار المحافظة على الطابع القومى.

❑ ❑ ❑

قلت : أرى أن حركة البناء وتطوير المدن تسير بسرعة مذهلة.. وأرى فنادق كثيرة سوف تقام فى كل مكان..

وقال السيد لى قوى شيان : منذ ٤٠ سنة كان فى بكين فندق واحد، والآن فيها ٤٠٠ فندق، وفى شنغهاى أكثر من ٤٠٠ فندق وكذلك فى مدينة كوانجو.. ولكن هذا العدد لم يعد كافيا لمواجهة الزيادة فى أعداد السياح، ولذلك فنحن ننشئ فنادق جديدة ، مشكلة بكين أن الهواء به نسبة تلوث وأتربة نتيجة الرياح المحملة بالرمال، و بكين حولها الجبال من ثلاثة جوانب، والسهل فى الجنوب فقط، ونحن نعمل على تحسين البيئة، وإنشاء طرق جديدة دائرية واسعة تكفى لتدفق حركة السيارات المتزايدة . .

❑ ❑ ❑

أما العشاء مع المسئول الصينى الكبير والضيوف من كبار رجال الحزب و«جمعية التفاهم الدولى» و«المؤتمر الاستشارى السياسى»، والأطباق الصينية المميزة.. فهذا يستحق حديثا آخر..

الصين والعالم

مبنى وزارة الخارجية الجديد فى بكين أكثر ضخامة وفخامة من مبنى وزارة الخارجية الأمريكية، وفى الدور الأول أكثر من عشرين صالونا على أحدث طراز، وعندما دخلت المبنى وجدت كل هذه الصالونات مشغولة بمقابلات دبلوماسية مع المسئولين فى الوزارة مما يدل على أن حركة اتصالات الصين الخارجية واسعة جدا تشمل خريطة العالم كلها دون استثناء.

وكان السؤال الذى أريد إجابة واضحة عنه يدور حول حقيقة علاقات الصين مع إسرائيل الآن، بعد تزايد العلاقات الاقتصادية والعسكرية وزيارة الرئيس الصينى لإسرائيل وزيارات وزراء اسرائيل إلى بكين وما ينشر عن شراء الصين لأسلحة من اسرائيل .. إلى أى مدى يؤثر ذلك على مواقف الصين المعروفة المؤيدة لحق الشعب الفسلطينى فى استرداد أرضه وإقامة دولته.؟

وكان لقائى مع السيد لى جاو شنج نائب وزير الخارجية وعدد من كبار المسئولين فى الوزارة لقاء وديا للغاية، بدأه بكلمات ترحيب رقيقة، وقال إن علاقات مصر بالصين قوية وتسير فى خط مستقيم، فمصر من أهم الدول النامية وهى تلعب دورا حيويا خاصة فى منطقة الشرق الأوسط، وقد حققت إنجازات كبيرة فى السنوات الأخيرة، ولا ننسى أبدا أن مصر كانت من أوائل الدول التى اعترفت بالصين وأقامت معها علاقات دبلوماسية منذ عام ١٩٥٦، ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم تطورت العلاقات بصورة واضحة، والرئيس الصينى جيانج زيمن يولى العلاقات مع مصر

بصفة خاصة رعاية واهتماما ويدعم هذه العلاقات باستمرار.. وقال أيضا: إن الإعلام فى مصر والصين قام بدور بارز فى تعزيز العلاقات الودية بين الشعبين، وقال: أنا أعلم أن مجلة (أكتوبر) لها أهمية ودور كبير، وكنت سفيرا للصين فى الولايات المتحدة وأتابع (أكتوبر) وهى تقوم بدور إيجابى ملحوظ، والاهتمام الإعلامى فى الصين بمصر واضح حتى إن عدد المراسلين الصينيين فى مصر هو أكبر عدد من المراسلين فى أفريقيا، وأؤكد استعداد الصين للعمل مع الجانب المصرى لتعزيز العلاقات أكثر وأكثر فى كافة المجالات.

بعد هذه المقدمة دخلت فى الموضوع مباشرة.

قلت للسيد لى جاو شنج : نبدأ بالموضوع الذى يشغلنى، وهو علاقة الصين بإسرائيل من ناحية، وبالقضية الفلسطينية من ناحية أخرى، والملاحظ أن علاقات الصين الاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية مع إسرائيل فى تزايد مستمر، وهناك شركات إسرائيلية كثيرة تعمل فى مجالات الاستثمار المختلفة فى الصين، وزيارات المسئولين فى الجانبين دائمة ومستمرة وعلى مختلف المستويات الرسمية وغير الرسمية.. وأريد أن أفهم منك بوضوح موقف الصين الآن من الأزمة الحالية فى الشرق الأوسط.. هل حدث نوع من التغير نسبيا فى الموقف الصينى أو أن هذا التغير يمكن أن يحدث مستقبلا..

قال نائب وزير الخارجية وهو يضغط على كلماته ليؤكدها:

- أولا: إن الصين باعتبارها عضوا دائما فى مجلس الأمن ظلت تتابع باهتمام تطورات الأوضاع فى الشرق الأوسط وهى الآن تتابع هذه التطورات.

وثانيا: إن موقف الصين من هذه القضية ثابت، ودائم، وهو أن نقطة الانطلاق الأساسية للدبلوماسية الصينية فى الشرق الأوسط هى دعم السلام..

وثالثا: إن جميع دول الشرق الأوسط تنتمى إلى الدول النامية، وشعوبها فى حاجة قوية وملحة للتنمية الاقتصادية، ورفع مستوى المعيشة، وتحتاج لذلك إلى توفير المناخ الملائم للتنمية والبناء..

ورابعا: إن الصين تتعاطف مع مطالب شعوب المنطقة لتحقيق السلام، وعندنا مثل صينى يقول: «لنضع أنفسنا فى مكان الآخرين».

ثم قال:

- إن عدد سكان الصين الآن يزيد على ١٢٠٠ مليون نسمة، ورغم ما تحقق من تحسن فى مستوى المعيشة، فإن ما تحقق لا يكفى، وهدفنا تحسين نوعية الحياة للمواطن الصينى، وهذا الهدف لا يتحقق إلا فى مناخ السلام، وشعوب الشرق الأوسط فى نفس الظروف، ولها نفس الهدف، وبالتالى هناك احتياج شديد لإقامة السلام.. والصين ظلت منذ البداية، وستظل داعما قويا لعملية السلام فى الشرق الأوسط، وأقول لك بوضوح.. هذه السياسة لن تتغير نتيجة تطور علاقات الصين بدولة معينة.

وقال أيضا:

- لقد مر عام كامل على اندلاع المصادمات الإسرائيلية الفلسطينية، والحكومة الصينية تتابع بقلق، وباهتمام شديد، ما يحدث فى المنطقة.

❑ ❑ ❑

قلت: وكيف ترى موقف إسرائيل؟

قال:

- إن إسرائيل تضرب عرض الحائط بكل المساعى للوساطة من المجتمع الدولى، وتتمادى فى استخدام القوة العسكرية مما أدى إلى خسائر فادحة فى الأرواح والممتلكات، والصين استنكرت وتستنكر هذه التصرفات الإسرائيلية.. وقد أثبتت تجارب التاريخ فى العالم فشل كل المحاولات لحسم المشاكل

بـالقوة العسكرية.. وسوف تبوء بالفشل كل محاولة لفرض حل بـالقوة العسكرية.. وسأعطيك مثالا واحدا.. فى القرن الماضى واجه العالم الرأسمالى أزمة اقتصادية عالمية مرتين.. بعض الدول الرأسمالية حاولت شن الحرب لتسوية هذه الأزمات، واندلعت لهذا السبب الحربان العالميتان الأولى والثانية، وفى الحرب العالمية الثانية استطاعت دول المحور أن تتقدم بسرعة وبسهولة.. وفى الجبهة الآسيوية كانت النزعة العسكرية اليابانية مسيطرة وحققت نجاحات كبيرة على الجبهة الآسيوية.. سيطرت اليابان على منطقة جنوب شرق آسيا.. واحتلت شبه جزيرة كوريا وجزءا كبيرا من الأراضى الصينية، وكان اليابانيون مبتهجين بهذه النتائج، ووصل بهم الأمر إلى الحد الذى تصوروا فيه أنهم قادرون على فرض سيطرتهم بالقوة العسكرية، وظنوا أنهم يستطيعون هزيمة الولايات المتحدة.. وشنوا الهجوم على السفن الأمريكية فى ثلاث ساعات.. وماذا حدث بعد ذلك؟

انتهت الحرب بهزيمة ساحقة لليابان، وتم إعدام كثير من اليابانيين، ومنذ أيام كنا نحتفل بذكرى مقاومة الشعب الصينى للاحتلال اليابانى، وكان رئيس الوزراء اليابانى يزور مقابر القتلى اليابانيين فى الحرب العالمية الثانية فى ضريح باسكوانى الذين ارتكبوا جرائم حرب.. وعلى الجبهة الأوربية كان هتلر يتقدم بشكل كبير وسريع واكتسح دول غرب أوربا، وهذه الانتصارات دفعته إلى الطمع فى احتلال روسيا ونسف اتفاقية الصداقة بين ألمانيا وروسيا.. فماذا كانت النتيجة..؟ باءت بالفشل محاولته لفرض سيطرته بالقوة العسكرية وانتهى به الأمر إلى هزيمة ساحقة.. هكذا ترى أن تاريخ العالم يثبت أن اللجوء إلى الحرب والقوة العسكرية لا يحل أية مشكلة، والقوة العسكرية لن تؤدى إلى حل لمشكلة الشرق الأوسط. وقد ثبت بعد مواجهات دامت نصف قرن أن المجابهة بالقوة العسكرية لا تؤدى إلى

الحل، وعندنا مثل صينى قديم جدا يقول: إن النهر يتدفق، وإذا ضربت النهر بسيفك فقد يتوقف تدفق المياه لحظة، وبعدها سوف تتدفق المياه. كما كانت ولن يتأثر النهر بهذه الضربة! والخلاصة: أن الحروب لا تحل المشاكل..

❐ ❐ ❐

وقال نائب وزير الخارجية:

- إننا نقدر الجهود المبذولة من دول الشرق الأوسط وفى مقدمتها مصر حتى يتم وقف إطلاق النار واستئناف مباحثات السلام، ونحن نأمل فى أن تبذل مصر جهودا أكثر، لمكانتها وباعتبارها دولة كبيرة ومؤثرة فى المنطقة لدفع عملية السلام.

قلت: وعلى أى أساس ترى الصين أنه يمكن أن يتحقق السلام؟

قال:

- الصين تدعو إلى مفاوضات سلام على أساس قرارات الأمم المتحدة ومبدأ الأرض مقابل السلام، وتنفيذ جميع الاتفاقات والتفاهمات التى سبق أن توصل إليها الفلسطينيون والإسرائيليون، وكان كونفوشيوس يقول: (الإنسان لا يستقيم بدون الأمانة).. الأمانة ضرورية.. والصين مستعدة للعمل مع الدول المعنية وفى مقدمتها مصر لتحقيق سلام عادل وشامل.

❐ ❐ ❐

قلت: ونحن فى عالم جديد مع العولمة.. والنظام العالمى الجديد.. كل شىء يتغير.. فكيف ترون مستقبل العلاقات العربية الصينية ؟

قال: إن الدول العربية وشعوبها أصدقاء موثوق بهم.. علاقات الصداقة التقليدية بيننا قائمة ومستمرة.. ونحن نشكر للدول العربية تأييدها الدائم

للصين فى المحافل الدولية وأعتقد ان هناك مجالات كثيرة يمكن أن يزداد فيها التعاون بين الصين والدول العربية .

والشعب الصينى يواجه فى القرن الجديد ٣ مهام كبرى:

المهمة الأولى: تنمية الاقتصاد وتحسين مستوى معيشة الشعب .

المهمة الثانية: السعى إلى التوحيد الكامل للأراضى الصينية وخاصة تايوان.

والمهمة الثالثة: العمل مع شعوب العالم لصيانة السلام العالمى.

ونجاح الصين فى هذه المهام لا ينفصل عن تأييد ومساندة الدول النامية ومنها الدول العربية.

قلت: وكيف سيكون الحال بعد انضمام الصين إلى منظمة التجارة العالمية بعد مفاوضات شاقة استغرقت ١٥ عاما؟

قال:

- إن انضمام الصين لمنظمة التجارة العالمية سوف يساهم فى مزيد من انفتاح الصين على الأسواق العالمية.. سوف نفتح الأبواب للاستثمارات والتجارة مع دول العالم المختلفة بما فيها الدول العربية.. ومنذ أيام عقدت ندوة عربية صينية فى مدينة (شامن) لبحث وسائل تشجيع الاستثمارات العربية فى الصين، وتشجيع رجال الأعمال والشركات فى الصين على الاستثمار فى الدول العربية.. نحن نرحب برجال الأعمال المصريين للعمل فى الصين.. ونشجع رجال الأعمال الصينيين للخروج من الصين ليستثمروا فى الخارج.. وسوف نعمل على بذل جهود أكبر لتعزيز التعاون الاقتصادى والتجارى ورفعه إلى مستوى جديد.

قلت: وماذا عن مساعدات الصين للدول النامية؟

قال: من الطبيعى أنه مع زيادة القدرة الاقتصادية الصينية سوف تزداد مساعداتنا للدول النامية، وخاصة الدول الأفريقية والدول العربية، وفى

الفترة الأخيرة قدمنا مساعدات فى بعض المشروعات، ولكن ذلك ليس كافيا. وزيادة المساعدات مرتبط بمقدرتنا على تقديم هذه الزيادة.

❑❑❑

قلت: وماذا عن القضية التى تحدثت عنها وهى توحيد الصين؟

قال:

- بالنسبة لتوحيد الوطن هذه قضية لا مساومة فيها.. ونحن نأمل أن يتم توحيد الصين بالوسائل السلمية على أساس دولة واحدة ونظامين.. وقد نجحنا فى استعادة إقليم هونج كونج، وإقليم مكاو سلميا، ولن نسمح أبدا باستقلال تايوان، والتزام الصين بعدم استخدام القوة لاستعادة تايوان يرجع إلى أننا لا نريد أن نضيع فرصة التوحيد السلمى. ونحن نسجل شكرنا العميق لمصر والدول العربية لموقفها المؤيد لقضيتنا فى التوحيد السلمى للوطن.

❑❑❑

قلت: وكيف ترى الصين النظام العالمى الجديد؟

قال:

- عدد سكان الصين يزيد على ١٢٠٠ مليون نسمة.. صحيح أننا حققنا زيادة فى الدخل القومى والتنمية، ولكن عندما تقسم هذا الدخل الكبير على عدد السكان ستجد أننا مازلنا دولة نامية.. الدخل القومى أكثر من ألف مليار دولار، واحتل اقتصادنا المرتبة السابعة فى العالم.. ولكن مع هذا الرقم الهائل فإن متوسط دخل الفرد لا يزيد على ٨٠٠ دولار سنويا.. بينما متوسط دخل الفرد فى مصر ضعف هذا الرقم..!

ونحن نرى أن النظام العالمى الجديد غير عادل.. الدول الغنية ازدادت غنى، والدول الفقيرة ازدادت فقرا، واتسعت الهوة بين الاثنين.. مثلا متوسط دخل

الفرد فى ٢٠٪ من الدول الغنية يزيد ٧٤ مرة على متوسط الدخل فى ٢٠٪ من الدول الفقيرة وفق إحصاء عام ٢٠٠٠، فى حين كان الرقم عام ١٩٩٦ ستين مرة فقط، وقد زرت ساحل العاج منذ سنوات فقال لى رئيسها إن النظام العالمى غير عادل، حتى إن سعر القهوة فى باريس من البن الذى ننتجه يزيد ٣٠٠ مرة على السعر الذى يشترون به البن من عندنا! وفى مواجهة هذا النظام العالمى غير العادل ليس أمام الدول النامية إلا الحرص على صيانة السلام والتضامن معا للإسراع بالتنمية الاقتصادية وزيادة الاهتمام بالتعليم، والعلوم، والتكنولوجيا، والصين من جانبها تنبهت إلى ذلك ووضعت الحكومة استراتيجية التنمية وإنعاش الاقتصاد بالاهتمام بالتعليم والعلوم والتكنولوجيا.

وعلى الصعيد السياسى النظام العالمى الجديد غير عادل أيضا، وليست فيه ديمقراطية فى العلاقات الدولية، بعض الدول الغربية تبدو مهتمة بالتأكيد على القيم الديمقراطية، ونحن نؤكد ذلك أيضا، ولكننا نرى أن هذه الدول غير مخلصة فى تطبيق الديمقراطية فى العلاقات الدولية.. هم يمارسون الديمقراطية داخل بلادهم فقط، ولكن لا يمارسونها فى علاقاتهم الدولية.. ونحن فى الصين صادقون فى الدعوة للديمقراطية فى الداخل والخارج.. وندعو إلى المساواة بين الدول الكبرى والصغرى.. نرفض السماح للدول الكبرى بإذلال الدول الصغرى.. ونرفض التدخل فى الشئون الداخلية للدول.

قلت: كأنك تعنى الولايات المتحدة؟

- الولايات المتحدة تعطى نفسها الحق فى التدخل فى الشئون الداخلية للدول بما فيها الصين، الصين من بين ضحايا عدم الديمقراطية فى العلاقات الدولية.. الولايات المتحدة تبيع أسلحة متقدمة لتايوان، وتايوان جزء من الصين.. وما تفعله الولايات المتحدة يؤثر على عملية التوحيد

السلمى للوطن.. والولايات المتحدة تتدخل فى مجال حقوق الإنسان فى الصين، وتطرح مشروعات ضد الصين فى لجنة حقوق الإنسان فى الأمم المتحدة، رغم ما حققته الصين من إنجازات كثيرة فى هذا المجال.. مثلا فى سنة ١٩٤٩ كان متوسط عمر الفرد فى الصين ٣٩ عاما، وفى سنة ٢٠٠٠ أصبح متوسط العمر ٧١ عاما.. فى سنة ١٩٥٩ كان متوسط عمر سكان منطقة التبت ٣٥ عاما، الآن أصبح ٧١ عاما، وهذا يعنى أنه حدث تحسن ملموس فى حقوق الإنسان فى الصين، ولكن الأمريكيين يقولون إن هذه الإنجازات فى تحسين مستوى المعيشة والرعاية الصحية ليست من حقوق الإنسان.

والحكومة الصينية اتخذت إجراءات لتعزيز الحرية الدينية وفقا للدستور.. وبهذه المناسبة أود أن أسجل الشكر لمصر لتأييدها لنا فى قضية حقوق الإنسان.. وأقول لك إن الحكومة تتولى تجديد المعابد فى التبت. وقدمنا طنا من الذهب لتجديد معبد فى التبت. أليس ذلك عملا ملموسا يؤكد الحرص على الحرية الدينية وحقوق الإنسان.

❑❑❑

قلت: هذا يقودنى إلى سؤال عن حادث طائرة التجسس الأمريكية التى قامت الصين بأسرها.. وانعكاس هذا الحادث على العلاقات بين الصين وأمريكا؟

قال:

- فى يوم الحادث وكان يوم الأحد أول أبريل جاء السفير الأمريكى لمقابلتى وجلس على مقعدك هذا فقلت له إن هذا اليوم فى الصين هو يوم الأشجار.. والرئيس زيمن والمسئولون الصينيون جميعا فى إجازة وهم الآن إما يزرعون الأشجار فى كل مكان وإما يأخذون نصيبهم من الراحة.. وقلت له نحن نحترم يوم الإجازة ولكنكم لا ترتاحون يوم الإجازة وتحلقون

بطائراتكم فوقنا.. هل هذا عمل مناسب؟ وبعد أن قدمت الولايات اعتذارا قمنا بالإفراج عن طاقم الطائرة وعددهم ٢٤ فردا، وسمحنا بنقل الطائرة بعد فكها إلى أجزاء، وعندما اتصل الرئيس الأمريكى بوش بالرئيس زيمن تليفونيا أكد الرئيس بوش على اهتمام الجانب الأمريكى بمستقبل العلاقات الصينية الأمريكية وتاييد الولايات المتحدة لانضمام الصين إلى منظمة التجارة العالمية، وقال إنه يتطلع إلى لقاء الرئيس الصينى فى شنغهاى على هامش اجتماعات منظمة (أيبك) وأشار إلى أن الولايات المتحدة وهى أكبر الدول المتقدمة، والصين باعتبارها أكبر الدول النامية بينهما نقاط مشتركة كثيرة.. واتفقنا على إقامة علاقات بناءة لخدمة السلام، والاستقرار الإقليمى والعالمى، والتنمية.

وقال السيد تساو شنج:

- طبعا هناك خلافات بيننا وبين الولايات المتحدة.. وهذا أمر طبيعى.. وليس من الطبيعى أن تكون مواقف دولتين كبيرتين متطابقة تماما والخلاف الأكبر حول قضية تايوان، رغم وجود ثلاثة بيانات مشتركة بيننا.. تعهدت الولايات المتحدة بموجبها بتأييد مبدأ الصين الواحدة وأنها تعارض استقلال تايوان، وتعارض انضمام تايوان إلى الأمم المتحدة.. أو أية منظمة دولية، والحزب الجمهورى والحزب الديمقراطى فى أمريكا وافقا على هذه المبادئ فى البيانات المشتركة، والآن نقول: إذا التزمت أمريكا بهذه المبادئ فإن العلاقات بين البلدين سوف تشهد تطورا كبيرا، وسوف يحقق التعاون الاقتصادى بينهما طفرة واسعة، ولاشك أن لقاء الرئيسين الأمريكى والصينى فى شنغهاى فى أكتوبر٢٠٠١.. وفى التعاون الاقتصادى ما يمكن أن يمثل خطوات موفقة.

□□□

قلت: هل يعنى ذلك أن مشكلة طائرة التجسس انتهت وأغلق الملف؟

قال:

- ما زالت هناك مشكلة.. هى أن تدفع لنا أمريكا التكاليف.

قلت: وماذا وجدتم فى هذه الطائرة؟

قال وهو يبتسم:

- لم أشاهدها.. قالوا إنها طائرة متخلفة.. وقلت لهم إنها طائرة تجسس لا تحتاج إلى سرعة كبيرة أو ارتفاع كبير.. وكانت بيننا مفاوضات شاقة.

❑ ❑ ❑

قلت: أعرف أن حديثنا استغرق ضعف الوقت المقرر.. استغرقنا الحديث.. وما زالت هناك تساؤلات..

قال وهو يضحك:

- عندنا مثل صينى يقول عندما يلتقى الأصدقاء يطول بينهم الحديث ولا ينتهى، وعندما يلتقى الخصوم لا يجدون لديهم كلمة واحدة.. وسنستكمل الحديث قطعا.. ربما فى القاهرة.. أو فى بكين.

وعندما كان يودعنى قال لى:

- لقد أحببت مصر.. وزرتها ثلاث مرات.. وعندما كنت هناك آخر مرة كتبت قصيدة فى الطائرة عن مصر والهرم والتاريخ والمستقبل.. وأخذها موسيقار صينى وقام بتلحينها وأذاعتها الإذاعة الصينية.

قلت:

مشغول بهموم السياسة الخارجية.. وشاعر..

قال:

هكذا نحن.. وزير الخارجية كان شاعرا.. والزعيم ماوتسى تونج كان شاعرا.. الصينيون فيهم شاعرية.. وبالمناسبة فإننى أتمنى زيادة التبادل

الثقافى بين مصر والصين.. هناك مجالات كثيرة للعمل.. تبادل زيارات الكتاب والفنانين والصحفيين.. ترجمة الأعمال الأدبية فى البلدين.. إقامة ندوات مشتركة فى الموضوعات التى تهمنا معا..

قلت له: وأنا أيضا أتمنى ذلك!

❑ ❑ ❑

وبعد أن عدت إلى القاهرة أرسل إلى سفيرنا فى بكين الدكتور نعمان جلال نص القصيدة التى كتبها السيد لى جاو شنج نائب وزير الخارجية الصينى بعنوان « **لا تقلق أيها النيل العظيم**» مع ترجمة لها وقد أرسلها إلىٌ نائب الوزير تنفيذًا لوعده :

وتقول القصيدة :

تتدلى السماء حتى تلامسه
وتنساب أمواجه الخضراء بجرأة
عبر سبعة آلاف عـــام
تغطس الأمواج الرقيقة
وتطفو على السطح وتسقط
أين النهاية . . ؟
يجرى متعرجا عبر صحراء أفريقيا
ينشر الخير على الجانبين
ويأتى الربيع ويرحل
ثم يأتى الخريف ويرحل
وتتجدد الأشجار الخضراء
وتتجدد الزهور البيضاء

والأمواج الرقيقة تطفو وتسقط

الحياة تتجدد . . . وهو كما هو

أين النهاية . . ؟ أين النهاية . . ؟

لا تقلق أيها النيل العظيم

فأنت مثل الزمن . . لن تنال منك السنون

وانت مثل الزمن لا تشيب

وأمواجك من الشرق إلى الغرب تسير

حاملة النوايا الحسـنة

وتنساب النوايا الحسنة عبر القارات الخمس

وعلى ضفافك يتحرك الناس بحرية

وتعيش العقول فى راحة

يتحرك الناس بيسر

وتعيش العقول فى هدوء

قرونا بعد قرون . . .

الصين تفكر فى مستقبلها

فى بكين وفى الاسبوع الأخير من سبتمبر ٢٠٠١ تجمع ٢٣٦ من رؤساء الحكومات الأوربية السابقين، ورؤساء الشركات العالمية والصينية الكبرى، وأساتذة الجامعات، والشخصيات الدولية، فى مؤتمر لم أشهد له مثيلا فى التنظيم الدقيق، والإعداد الجيد له منذ سنوات، والدراسات العميقة التى عرضت عليه، وكان موضوع المؤتمر : «الصين والعالم فى القرن الحادى والعشرين».

كان واضحا أن القيادة الصينية تريد أن ترى الصين فى عيون العالم من خلال كبار المفكرين والسياسيين والعلماء، وتتعرف على رؤيتهم لحاضرها ومستقبلها فى ظل ظروف عالمية جديدة، اصبحت فيها العولمة حقيقة مؤكدة لا مفر ولا مهرب منها، وأصبحت فيها القيادة لقطب واحد هو الولايات المتحدة، وأصبحت فيها حرية التجارة العالمية مفروضة على الجميع. كما أصبحت من حقائق هذا العصر فتح الأسواق وإزالة الحواجز الجمركية، ولم يعد ممكنا لأية دولة أن تلجأ إلى إجراءات لحماية الصناعات الوطنية أو إقامة حواجز أمام تدخل القوى العظمى فى شئونها الداخلية، أو أن تحاول إبعاد التاثيرات الأجنبية على شعوبها بأية وسيلة.. بعد أن أصبح تدفق الأخبار والصور والمعلومات أمرا واقعا لا حيلة لدولة فى منعه.. وأصبحت الفضائيات، والتليفون المحمول، والفاكس، والإنترنت، وسائل اتصال فى يد الجميع وتلاشت بها المسافات بين القارات تقريبا، وأصبح على الدول أن تعيد التفكير فى نظم الحكم، وأساليب التعامل مع الشعوب.

وبالنسبة للصين، فهى على وعى بأن لها مكانا فى هذا العالم الجديد تفضل أن تصل إليه خطوة خطوة، وبهدوء، أقرب إلى التسلل، حتى تصبح قوة بين القوى العظمى فى العالم سياسيا واقتصاديا، ولكنها لاتريد أن تصل إلى هذه المكانة إلا بعد أن تكون قد أتمت استعداداتها، وتهيأت للتصدى للتحديات الكبرى التى تواجهها الآن، والتى سوف تزداد يوما بعد يوم مع تزايد نموها الاقتصادى والسياسى والعسكرى.

❑ ❑ ❑

كان الوفد المصرى فى هذا المؤتمر مكونا من ثلاثة: الدكتور بطرس غالى الأمين العام السابق للأمم المتحدة والأمين العام للمنظمة الفرانكفونية العالمية، والدكتور محمد شاكر سفير مصر السابق فى لندن ورئيس المجلس المصرى للسياسة الخارجية، وأنا، وكان من المشاركين من خارج الصين، هوارد رئيس وزراء استراليا السابق، وميشيل هيسلتين نائب رئيس وزراء بريطانيا السابق، وكايفو توشيكى رئيس وزراء اليابان السابق، وكاسيمسرى كاسم نائب رئيس وزراء تايلاند السابق، وزيجينيو بريزنسكى مستشار الأمن القومى فى الولايات المتحدة السابق وب كيتنج رئيس وزراء استراليا السابق، وكان بين الأعضاء أيضا هيلموت كول مستشار ألمانيا السابق، ولوكين رئيس مجلس نواب الشعب الروسى (الدوما)، وآلن وينستين رئيس مركز بحوث الديمقراطية فى الولايات المتحدة، وريتشارد وولدبرد رئيس مجلس إدارة صحيفة هيرالد تريبيون الدولية... وعشرات غيرهم.. ومعهم ١٧٨ من أكبر الشخصيات الحزبية والأكاديمية والاقتصادية فى الصين..

❑ ❑ ❑

• وفى اليوم الأول التقى الرئيس الصينى جيانج زيمن بأعضاء المؤتمر فى قصر الشعب، وتحدث إليهم عن الأهمية التى يوليها لهذا المؤتمر، وقال

لرؤساء الحكومات السابقين: أنتم الآن خارج السلطة، ولم تعد قيود المنصب تفرض عليكم الحرص فى الحديث واختيار الكلمات، ولذلك أرجوكم أن تتحدثوا بصراحة وبوضوح، قولوا لنا: كيف ترون الصين الآن؟ وكيف ترونها خلال هذا القرن الجديد؟ فالإنسان لايستطيع أن يرى نفسه جيدا، ولا أن يقدر الحجم الحقيقى له، ولكن «الآخر» يراه بصورة أفضل، ولهذا حرصنا على حضوركم لنعرف رأى كل واحد فيكم، وتأكدوا أننا سوف نستمع جيدا إلى كل رأى، وسوف ندرس بدقة كل فكرة، وسوف نستفيد من كل نصيحة.

ثم قال الرئيس الصينى : إن أولوياتنا الآن هى : السلام.. والتنمية.. وهذه هى أمنية جميع الشعوب والدول فى كل مكان.. وهى أيضا الهدف الرئيسى للصين الحديثة.. ومع ذلك فإن التوترات الدولية قائمة.. والعولمة الاقتصادية تسيطر على الجميع.. والصين تنتهج سياسة خارجية مستقلة وتمد يدها بالسلام للجميع.. وتريد تبادل الصداقة لكل دول العالم تحقيقا لمبادئها والتزاما بميثاق الأمم المتحدة، وهدفنا إقامة علاقات دولية على أساس أخلاقى وعادل.

وقال الرئيس الصينى : أعتقد أن الاحترام يجب أن يكون أساس التعامل مع الحضارات والمعتقدات والشعوب جميعا.. ويجب أن يسود الاحترام لتاريخ كل أمة وعدم محاولة تشويه أو طمس هذا التاريخ، أو الإساءة إلى ثقافة أمة من الأمم، أو إلى النظام الاجتماعى الخاص بها، أو إلى النموذج الذى اختارته للتنمية.. ولابد من الاعتراف بحق كل شعب فى الاحتفاظ بهويته القومية وشخصيته المميزة.. لابد من الاعتراف بأن هناك اختلافات بين المجتمعات.. ويجب احترام هذه الاختلافات.. والمشكلة الكبرى الآن هى أن الفارق بين دول الشمال ودول الجنوب كبير جدا.. والفجوة بين الأغنياء والفقراء واسعة جدا.. وكذلك فإن الواقع أمامنا أن الصراعات الإقليمية تزداد بعد أن كنا

نتوقع أن تجد هذه الصراعات الحلول الكاملة وتتلاشى أو تتضاءل على الأقل..

وقال الرئيس الصينى : إن على العالم الآن أن يفهم الصين.. كثيرون لايفهمون الصين جيدا.. وجزء من هذه المشكلة يرجع إلى اللغة الصينية، فهى لغة غير منتشرة، والبعض حين يترجم ما نقوله يرجع إلى القاموس ويترجم أقوالنا ترجمة حرفية غير مفهومة أحيانا، وغير دقيقة أحيانا أخرى، ولاتعبر عن المعنى الحقيقى أو الفكرة الحقيقية التى نقولها، ولذلك أتمنى أن يفهمنا العالم فهما جيدا أفضل مما هو الآن.. وأتمنى أن يدرك العالم أن الصين الآن صين جديدة.. مختلفة عن الصين التى كانوا يقرءون عنها فى الصحف أو فى كتب التاريخ.. وأتمنى أن يدرك العالم أن الصين تمد يدها لكل دول وكل شعوب العالم.. الصين تحتاج إلى الحوار مع كل العالم.. الصين تعمل على تطوير اقتصادها.. وتسعى إلى الاستفادة بالقدرات والخبرات الأوربية.. الصين تعمل على القضاء على الإرهاب بكل أشكاله، وتدعو إلى حوار عالمى حول أسباب انتشار الإرهاب وكيفية القضاء عليه بالقضاء على أسباب وجوده وتغيير المناخ والظروف التى تسمح بنموه..

وقال الرئيس الصينى : إن القرن الحادى والعشرين من الممكن أن يكون فرصة لتصحيح كثير من الأخطاء وإعادة كتابة تاريخ جديد للعلاقات الدولية، وإنهاء المشاكل.. وبالمناسبة أنا ضد القول بأن الغرب ضد الشرق.. أو أن هناك مواجهة بين أوربا وروسيا والصين.. أنا أرى أن هناك اختلافات فى التجارب والظروف لكل بلد.. وكل بلد لديه مشروع للتحديث، وهذا التحديث لابد أن يستفيد من تجارب الدول الأخرى بما فى ذلك تجارب أوربا وأمريكا..

وقال الرئيس الصينى وهو يلتفت إلى المستشار الألمانى كول الذى كان يجلس إلى جانبه ويبدو أن بينهما صداقة من نوع خاص: إن الصين

كافحت طويلا ضد الاستعمار.. لقد استغرقت ١٠٠ سنة فى كفاح من أجل الاستقلال والتحرير.. والآن نحن نعلم أن الصين لاتستطيع أن تحقق أهدافها بدون علاقات مع العالم.. والعالم أيضا لايمكن أن يتجاهل الصين.. الصين حققت نموا اقتصاديا جيدا وعملت على الاندماج فى السوق العالمى.. وحققنا هذا العام نسبة نمو بلغت ٧,٥٪ ونعمل بجدية لتحديث الصين، وإنتاج التكنولوجيا المتقدمة.. مستوى المعيشة ارتفع.. التنمية كلما حققت تقدما يؤدى ذلك تلقائيا إلى رفع مستوى معيشة الناس.. فى البداية قلنا إننا لانستطيع تنمية الصين كلها دفعة واحدة فبدأنا بتنمية شرق الصين.. وبعد أن تحقق قدر ملحوظ من تنمية الشرق بدأنا فى استراتيجية جديدة لتنمية الغرب، وقلنا إن مناطق الغرب تحملت ودفعت ثمن تقدم الشرق، والآن جاء الوقت ليسدد الشرق الدين لمناطق الغرب لتحقيق التوازن فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى كل الصين.. وهذه هى استراتيجيتنا الآن.. تعلمون أننا نجحنا فى استعادة هونج كونج ومكاو إلى أرض الوطن وتبقى أمامنا تايوان وهى أيضا جزء من أرض الوطن.. وتوحيد أراضى الوطن الصينى استراتيجية ثابتة لا جدال فيها.. سياستنا الخارجية تتلخص فى مبادئ اساسية : السلام.. التعاون مع دول العالم.. عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول.. ونؤمن بالتعاون بين الحضارات والثقافات.. ونحترم خصوصية كل شعب والمعتقدات والقيم التى يؤمن بها.

وقال الرئيس الصينى: كما تعلمون فأنا لم أكن متخصصا فى الاقتصاد، ولكنى فى الأصل مهندس، درست الهندسة فى الجامعة، وكنت وزيرا، ثم عمدة شنغهاى، ولكنى الآن أقرر أن الاقتصاد أكثر صعوبة وتعقيدا من الهندسة.. إن تعداد شعب الصين أكثر من ١٢٠٠ مليون نسمة، منهم ٨٠٠ مليون يعيشون فى الريف، ولن نقول إننا نجحنا فى رفع مستوى المعيشة وحققنا هدفنا إلا إذا نجحنا فى رفع مستوى معيشة هؤلاء.

عندنا مشاكل.. وضع المرأة فى الصين يحتاج إلى جهد لتصحيحه.. سرنا فى ذلك خطوات.. نعلّم الفتيات.. وعندنا قانون جديد للزواج يفرض زوجة واحدة لكل رجل.

يقولون فى الغرب إن الصين ليست فيها ديمقراطية.. ما هى الديمقراطية؟.. أليست حكم الشعب.. ومشاركة الشعب فى القرار؟.. عندنا الحزب الذى يحكم له وحدات فى كل قرية وكل مصنع وكل حى فى كل مدينة، وكل قانون وكل قرار يناقش فى هذا المستوى، وتصعد القرارات إلى المستويات الأعلى فالأعلى.. وتكون حصيلة الحوارات الشعبية أمام لجان المقاطعات ثم مؤتمر الحزب ثم اللجنة المركزية ثم المجموعة القيادية.. أليست هذه هى الديمقراطية؟.. هل النظام الغربى وحده هو النظام الديمقراطى؟

ثم إننا نقول إننا نطبق اقتصاد السوق الاشتراكى ذا الخصائص الصينية، والعالم لا يفهم ماذا نريد؟ وماذا نعمل وماذا حققنا، أتمنى أن يفهم العالم نظامنا الاقتصادى والسياسى وسيجد أنه النظام المناسب لنا.. وقد حققنا تقدما لا بأس به بهذا النظام وهذا دليل نجاحه.. احتياطى النقد الأجنبى عندنا ١٩٠ مليار دولار.. سنضاعف معدلات التنمية.. عملية البناء مستمرة وبسرعة فى المدن والريف.. فى الشرق والغرب.. خطط التنمية الخمسية تنفذ ١٠٠٪ وأكثر.

وقال الرئيس الصينى بصوت عال: الصين ليس فيها دكتاتورية كما يقولون.. وليس فيها دكتاتور. ولكن فيها زعيم قوى.

ثم قال: هل تعلمون أن استخدام الكمبيوتر انتشر؟.. عشرات الملايين يستخدمون الكمبيوتر فى أعمالهم.. والملايين يشتركون فى الإنترنت.. والصين هى ثانى أكبر دولة فى العالم فى استهلاك الطاقة.. وفى الصين ٢٢٩ مليون تليفون.. و٨٥ مليون تليفون محمول..

وأخيرا قال: الصورة التى تنقل عن الصين أحيانا تكون صورة غير صحيحة.. ولابد أن تصل صورة الصين الحقيقية إلى العالم..

❑ ❑ ❑

كان الرئيس الصينى يبدو فى منتهى الحيوية وروحه المعنوية عالية، ويبدو فى الخمسين من عمره رغم أنه تجاوز الخامسة والسبعين.. ورغم أنه أعلن لكبار قادة الحزب منذ أيام اعتزامه اعتزال منصبه فى خريف ٢٠٠٢ بعد أن حكم البلاد ١٣ عاما منذ ١٩٨٩، وتردد أن نائبه «هو جينتاو» (٥٨سنة) هو أقوى المرشحين لخلافته، كما تردد أن ثلاثة من أكبر وأقوى القادة الصينيين قرروا أيضا الاعتزال وهم «لى ينج» ورئيس الوزراء «تشى رونجى»، وكذلك «وى خيانكسنج» سكرتير اللجنة المركزية للحزب.

ويبدو أن الزعيم الصينى راض عما حققه لبلاده من تقدم فى فترة حكمه وأراد أن يدعو إلى هذا المؤتمر ليترك وثيقة تمثل رؤية عقلاء العالم لدور الصين فى القرن الجديد، وتحدد فلسفة العمل فى السنوات القادمة.

❑ ❑ ❑

وقال نائب رئيس وزراء الصين كيان كيشين فى بداية المؤتمر: إن شعب الصين أمامه ثلاثة أهداف رئيسية عليه أن يتم إنجازها خلال هذا القرن، الهدف الأول هو استكمال عملية التحديث الشاملة فى كل جوانب المجتمع الصينى، والهدف الثانى هو العمل بكل قواه لتحقيق الاستقرار والسلام والأمن فى العالم لأن ذلك هو المناخ الذى نستطيع فيه تحقيق الهدف الثالث وهو التنمية ورفع مستوى المعيشة وتحسين ظروف الحياة للمواطنين إلى المستوى الذى نطمح إليه.

وقال إن عملية تحديث الصين مرتبطة بانفتاح الصين على العالم، وإعادة بناء النظم القانونية والاقتصادية والتعليمية.. ولقد بدأنا بناء نظام اقتصادى جديد منذ عشرين عاما، وعلينا الآن أن نتقدم نحو زيادة التعاون

الاقتصادى والتجارى مع دول العالم.. وأمامنا مهمة داخلية هى توحيد الوطن.. ونحن نتوقع أن تكون السنوات الخمس أو العشر القادمة مرحلة مهمة فى الانطلاق الاقتصادى والتقدم التكنولوجى فى الصين، وأمامنا إلى جانب إقامة الصناعات الحديثة، وامتلاك التكنولوجيا الحديثة، مهمة إعادة بناء المدن لتكون مدنا عصرية، واستكمال البنية الأساسية وتحسين البيئة فى كل أنحاء الصين، وعلينا أن نعمل على بناء نظام قوى للتعليم والبحث والابتكار فى مجالات العلوم المختلفة، وعلينا أيضا أن نعيد تدريب الفنيين على أساليب عمل جديدة وأجهزة تكنولوجية حديثة.

وقال نائب رئيس الوزراء إن المهام المحددة لنا الآن تشمل أيضا إعادة بناء النظام السياسى والتشريعى والقضائى.. وسوف نشجع الصينيين على الخروج إلى العالم للاستثمار والعمل والسياحة. كما نشجع المواطنين من كل أنحاء العالم للعمل والاستثمار والسياحة فى الصين، وسيحقق هذا لنا انتعاشا فى التجارة الداخلية والخارجية.. ونحن نستعد لدخول منظمة التجارة الحرة وهذا يحتاج منا إلى مستوى جديد فى الأداء والإنتاج.

❑❑❑

فى الحوارات الجانبية فى المؤتمر وعلى موائد الغداء والعشاء كان يتردد سؤال على لسان المشاركين: لماذا تعتبر الولايات المتحدة الصين عدوًا لها ؟!

وتعددت الإجابات والآراء.. قيل مثلا إن التقديرات العسكرية وتكهنات السياسة الخارجية فى وزارتى الخارجية والدفاع فى أمريكا تتحدث عن احتمال نشوب نزاعات مع الصين وقيل إن البنتاجون يجرى الآن مراجعة استراتيجية على أساس تحويل الجهد العسكرى الرئيسى من أوربا إلى آسيا، وزرع قوة عبر الباسفيك فى مواجهة الصين..

وقيل إن هذا إن كان صحيحا فسيكون خطأ آخر من أخطاء السياسة الأمريكية، لأنها إذا تعاملت مع الصين على أنها عدو فسوف تصبح عدوا

بالفعل، وسيؤثر ذلك على وضع الولايات المتحدة فى الشرق الأقصى كحليف لليابان وكوريا الجنوبية، وكلاهما لايريد حربا أو صراعا بين الصين، والولايات ا لمتحدة يمكن أن تؤثر عليهما وتجرهما للاشتباك فيها، واستمرار هذه السياسة الأمريكية سيؤدى مع الوقت إلى إضعاف علاقتها مع حلفائها ويؤثر على وضع قواعدها العسكرية هناك.. وهناك ما يكفى لتوتر العلاقات غير موضوع الصين.. ففى اليابان حاليا فيلق للجيش الأمريكى، وفرقة من القوات الجوية، وقاعدتان هائلتان، وعشرون ألف جندى أمريكى من مشاة البحرية فى أوكيناوا بما يمثل مصدرا دائما لتوتر العلاقات الأمريكية – اليابانية. وفى كوريا الجنوبية توجد قيادات القوات البرية والجوية ويوجد ايضا ٣٦ الف جندى أمريكى، وهذا الوجود العسكرى الأمريكى يمثل استفزازا دائما للصين ، ومصدرا دائما للقلق لا تستطيع تجاهله.

وبذور التوتر فى العلاقات بين الولايات المتحدة والصين تشمل موضوع تايوان.. الصين مصممة على ضم تايوان وفقا لسياستها لتوحيد أرض الوطن.. والصين لا تفكر فى حل عسكرى.. ولكنها تعتمد على سياسة النفس الطويل الذى كسبت بها معركة ضم هونج كونج وماكاو.. ولكن الإدارة الأمريكية ترى استحالة التوصل إلى حل سياسى لمشكلة تايوان.. والصين ترى أنه عاجلا أو آجلا سوف يتم إيجاد حل سياسى.. أما ما يقال عن تهديدات الصين بغزو تايوان فهى خديعة أمريكية.. فالصين تعلم أن مثل هذه المحاولة مقضى عليها بالفشل حتى ولو لم تتدخل الولايات المتحدة.. وتعلم أن التكلفة الاقتصادية لآى حرب تدخلها ستؤثر على مشروع الصين للتحديث والبناء والتنمية الاقتصادية.. وسياسات الصين تخضع للعقل . . والمصلحة . . ولاتخضع للانفعالات العاطفية . . أو« النعرة القومية» . . ويعلم الأمريكيون أن الصين لم تكن قوة عالمية، وتكتفى بأن

تكون «المملكة الوسطى» التى تسمو على الآخرين بحكم ثقافتها، كما أن الصين لا تملك قوات عسكرية قادرة على الانتشار خارج حدودها.. الصين لديها جيش ضخم لا يمكن مقاومته إذا كان فى وضع الدفاع، ولكن ليست لديه استراتيجية للهجوم.. ولن يتحرك هذا الجيش الهائل إلا إذا فكر أحمق فى غزو الصين.. فالصين تملك قوات دفاعية متفوقة، وتملك أكثر من عشرين صاروخا من الصواريخ النووية التى يمكن أن تصل إلى الولايات المتحدة ولكنها – كما قال وليام فاف الخبير فى هيرالد تريبيون – ليس لديها سبب يدعوها لشن هجوم على الولايات المتحدة أو على غيرها.

صحيح أن الخلافات قائمة بين الولايات المتحدة والصين حول حق الصين التاريخى فى ضم أجزاء من أراضيها مثل التبت وتايوان وبعض الجزر فى بحر الصين الجنوبى، لكن هذه الخلافات لا تمثل خطرا على المصالح الأمريكية الأساسية، وليس هناك ما يدل على أن الصين لها أطماع خارجية.

ولكن الصين تنظر إلى ما يحدث فى اليابان من تطورات بعد أن سعت الحكومة اليابانية إلى إعادة صياغة الدستور السلمى المفروض عليها من الولايات المتحدة، وانتهزت فرصة حرب أمريكا فى أفغانستان لإصدار قانون يسمح بإرسال قوات يابانية للقتال خارج الحدود.. والتوتر قائم بين اليابان وأمريكا فى نفس الوقت بسبب الحقوق الممنوحة لأمريكا لإقامة قواعد عسكرية لها فى اليابان والتى يحتمل أن تكون عبئا على اليابان فى حالة نشوب نزاع بين الولايات المتحدة والصين.

وكل قادة الصين يعلنون رفضهم لما يقوله الرئيس الأمريكى بوش الابن ونائبه ديك تشينى ووزير دفاعه رامسفيلد من أن الصين تمثل تهديدا عسكريا للمصالح الأمريكية أو اليابان، واليابان أيضا تختلف مع الإدارة الأمريكية فى هذه الرؤية.

□□□

وقيل فى هذا المؤتمر إن علاقات الصين مع روسيا أصبحت فى أفضل حالاتها، وليس هناك تنافس الآن بين الدولتين، وتم توقيع اتفاقية للتجارة بينهما بعد أن تم الاتفاق على إنهاء الخلافات السياسية، وبذلك تدخل الصين وروسيا القرن الحادى والعشرين دون تصادم أو تنافس بينهما أو تفكير فى الدخول فى مواجهات فى أى مكان فى العالم.

وكان من رأى الدكتور بطرس غالى أن عصر توازن القوى، وتوازن الرعب النووى قد انتهى، واصبحنا فى عصر البحث عن توازن الاستقرار، ونحن فى عالم تتولى فيه الولايات المتحدة قيادة العالم اقتصاديا وسياسيا، وفى عصر تتأكد فيه العولمة وتفرض نفسها على الجميع، والصين قوة بشرية هائلة، وهى قادرة على أن تأخذ زمام المبادرة بيدها دائما، وقادرة على تحقيق سياستها الخارجية القائمة على السلام والاستقرار والتنمية.. ولكن العالم محتاج إلى تغيير عقلية بعض الذين يحكمونه.. والصين تحتاج إلى حل خلافاتها مع الولايات المتحدة العسكرية والسياسية..

وقال الدكتور بطرس غالى إن الإنسان الفرد لا يستطيع أن يعيش دون أن يكون له أمل معين.. أو حلم.. والصين لديها أمل وحلم تستطيع أن تحققه، وأمامنا شواهد على قدرتها على الإنجاز حققته من تنمية وتقدم حتى الآن، وما زال القرن فى بداياته المبكرة.

وتساءل الدكتور بطرس غالى: هل صحيح ما ينشر فى الصحف من أن روسيا يمكن أن تكون فى مرحلة ما مع الولايات المتحدة ضد الصين ؟

وقيل فى مناقشات المؤتمر الكثير.. مثل إن العولمة كانت خيرا للدول الكبرى وشرا للدول الصغيرة وتهددها بالانهيار.. أفريقيا على وشك الانهيار إذا لم يتم تداركها بمساعدات إنسانية لإنقاذ حياة الملايين الذين يموتون والمهددين بالموت جوعا.. والاستقرار والأمن والتنمية لا يمكن تحقيقها فى جزء من العالم وحرمان الجزء الآخر منها.. لأن الاستقرار فى العالم لا يتجزأ.

وقيل إن العالم فى هذا القرن الجديد يحتاج إلى الديمقراطية فى العلاقات الدولية، لأن العلاقات الدولية قائمة على دكتاتورية دولة واحدة هى القوة الوحيدة التى لا تسمع أحدا ولا تريد أن يشاركها أحد فى القرار وتطالب الجميع بالانصياع لها.. العالم محتاج إلى الديمقراطية فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن.. وفى البنك الدولى.. وفى بقية المنظمات الدولية.. العالم محتاج إلى تغيير حقيقى لكيلا يصبح ملكا لقوة واحدة أو دولة واحدة.. لابد أن تتكاتف كل دول العالم لكى يكون العالم فى القرن الجديد ملكا لكل العالم..

وقيل إن الصين يمكن أن تعلم دول العالم نموذج التنمية والتحديث مع الحفاظ على التراث والشخصية القومية فى نفس الوقت ، ويمكن أن يتعلم العالم من الصين استراتيجية التعامل الخارجى بالأسلوب الهادئ.. بدون تعجل.. وبتخطيط بعيد المدى.. وبالصبر فى التنفيذ.. والاستمرار فى العمل بدون تراخ.. وعدم الاستجابة للاستفزاز.. أو التعامل مع الموقف والأحداث بأسلوب رد الفعل.. وعدم اتخاذ القرار أو العمل أو القفز فى اللحظة الأخيرة.

□□□

قيل فى المؤتمر أيضا : إذا كانت مشاكل الحدود بين الصين وروسيا انتهت بالاتفاقية التى وقعت أخيرا وأصبحت الحدود بينهما آمنة.. ولم يعد هناك توتر أو حشود أو قلق بينهما.. إلا أن القلق فى الصين وروسيا الآن من النظام الدفاعى الصاروخى الأمريكى.. ومفهوم أن حائط الصواريخ الأمريكى الذى تريد إدارة بوش تنفيذه موجه أساسا للصين وروسيا.. وأمريكا تعلم أن الصين ليس لديها أى نظام دفاعى مماثل ولا تفكر فى تبديد أموالها فى بناء نظام كهذا.. وتعلم أن الأزمة الاقتصادية فى روسيا لا تسمح لها بالدخول فى سباق تسلح جديد من هذا النوع. وقد سبق أن فرضت عليها أمريكا فى

عهد ريجان سباق تسلح من هذا النوع باسم حرب الكواكب وأدى الإنفاق عليه إلى خراب الاتحاد السوفيتى وانفراط العقد الذى كان يبدو قويا. وأمريكا تعلم أن استراتيجية الصين استراتيجية دفاعية وليست هجومية أو عدوانية.. وإذن فلماذا تريد الإدارة الأمريكية بناء هذا النظام الصاروخى الخطير؟!

وتساءل البعض فى المؤتمر : هل ستقضى العولمة على الكيانات الإقليمية مثل الاتحاد الأوروبى، ومنظمة الأسيان وغيرها؟.. وكان الرأى السائد أن هذه الكيانات الإقليمية سوف تستمر لأن الاحتياج إليها سيظل قائما لحماية الدول المشتركة فيها من انفراد قطب واحد بالقوة والسيطرة الاقتصادية على العالم.. بل إن العلاقات بين الكيانات الإقليمية ستكون أيسر وأكثر فيما بينها من العلاقات بين الدول وبعضها منفردة.

□ □ □

وقيل فى المناقشات الجانبية إن الصين حققت إنجازات مهمة فى استيعاب الاستثمارات الأجنبية للإسراع بالتنمية، وكانت بريطانيا أكبر مستثمر أوروبى فى الصين، وقال اللورد تشارلز بأول رئيس مجلس الأعمال الصينى البريطانى إنه بالرغم من التباطؤ الاقتصادى فى العديد من دول العالم، فإن علاقات التجارة والأعمال بين بريطانيا والصين تنمو بسرعة ووصلت إلى مستويات قياسية.. وقد أقامت الصين آليات تفاوض بينها وبين دول الاتحاد الأوربى، وكوريا، واليابان، لجذب الاستثمارات وحل مشاكل المستثمرين أولا بأول، حتى أصبحت ألمانيا أكثر الدول استثمارا فى الصين وتليها بريطانيا.. وفى نهاية عام ٢٠٠٠ وصلت الاستثمارات البريطانية المتعاقد عليها فى الصين إلى ١٧ مليار دولار، وحجم التجارة الصينية البريطانية وصل إلى رقم قياسى حوالى عشرة مليارات دولار فى العام الماضى بزيادة ٢٥٪ على العام السابق.

وقيل فى هذا المؤتمر أيضا إن الصين تستعد للدورة الأولمبية عام ٢٠٠٨ وسوف تثبت للعالم حينئذ أنها جديرة بمكانة فى الصدارة حين تسلط الأضواء على كل ركن فيها، وسيرى العالم أن الصين تغيرت وأصبحت دولة حديثة ومتقدمة.. وكذلك فإن استعدادات الصين للانضمام إلى منظمة التجارة العالمية تتم بجدية شديدة، وسيرى العالم أن علاقات الصين مع العالم ستصبح على مستوى جديد.

ولأن المؤتمر استمر ثلاثة أيام واحتشدت فيه عقول العالم وتشعبت فيه المناقشات وشملت أوضاع العالم كله فى القرن الجديد، فإنه يستحق أن نستكمل ما دار فيه ، فى الفصل التالى .

ا لصين فى القرن الـ« ٢١»

فى المؤتمر الدولى الكبير الذى عقد فى بكين عن «الصين فى القرن الحادى والعشرين» كما ذكرت طرح للمناقشة موضوع مستقبل علاقات الصين مع العالم، فكان رأى الدكتور جاكيز سانترميب رئيس وزراء لوكسمبرج السابق ورئيس المفوضية الأوربية السابق، أن علاقات الصين مع أوربا ومع العالم سوف تشهد طفرة كبيرة فى السنوات القادمة، وقد مرت ٢٥ سنة على إقامة علاقات دبلوماسية بين الاتحاد الأوربى والصين، ومنذ سنة ١٩٧٥ حدث تحول كبير فى مسار العلاقات بينهما، وزادت العلاقات بين الصين وأوربا بسرعة أكبر مما كان أى إنسان يتوقعها، والآن والوحدة الأوربية وصلت إلى مرحلة جديدة، فالعملة الأوربية (اليورو) ابتداء من يناير ٢٠٠٢ هى التى يتعامل بها كل مواطن فى ١٢ دولة أوربية، والقوانين ونظم القضاء والشئون الداخلية قطعت شوطا نحو التوحد أيضا، وأصبحت الوحدة السياسية هدفا ممكنا كذلك، وأوربا الموحدة تمثل قوة سياسية واقتصادية، وفى نفس الوقت تمثل سوقا كبيرة بالنسبة للمنتجات الصينية، ومع سياسة الانفتاح فى الصين فإن الاستثمارات الأوربية تتدفق عليها لما فيها من مزايا وتسهيلات، فالصين الآن هى الدولة رقم (٧) من الدول الكبرى فى التجارة الدولية وأمامها فرصة للتقدم أكثر ، كما أصبحت الدولة الجاذبة للاستثمارات حتى إنها الآن الدولة الثانية للاستثمار الأوربى، وأصبحت شريكا أساسيا لأوربا فى الاقتصاد، وإنتاج التكنولوجيا الحديثة وخاصة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات والطاقة، وقد أصبحت عضوا فى منظمة التجارة العالمية وهى مؤهلة لدخول السوق العالمى كلاعب رئيسى ..

ومنذ بدأت سياسة الانفتاح عام ١٩٧٨ زادت تجارتها مع دول الاتحاد

الأوربى١٢ مرة، وفى العام الماضى قرر الاتحاد الأوربى اعتبار الصين الدولة الأولى فى الاستثمارات الخارجية المباشرة، وجاء ذلك نتيجة التطور الكبير الذى حدث فى الصين .. فقد تطورت الأفكار، وتطورت فلسفة العمل، وأسلوب الإدارة، وتغيرت المدن الصينية تغيرا مذهلا وأصبحت شاهدا على قدرة الصين على الوصول إلى مستوى الدول الكبرى، فالعاصمة بكين الآن غير بكين منذ سنوات قليلة .. كل شىء فيها يتغير .. وبهذا المعدل السريع فى التغيير وإعادة البناء فإن الصين حين تستقبل وفود العالم على أرضها فإنهم يجدونها دولة أخرى غير التى عرفها العالم ، وستأخذ مكانها فى الصدارة بين الدول الكبرى وسيزداد وجودها وتأثيرها فى الاقتصاد العالمى .

□□□

التقدم الاقتصادى والاجتماعى الذى تحقق فى الصين فى العشرين سنة الماضية كان تقدما هائلا، لم تحقق مثله أية دولة أخرى فى العالم، ونجحت فى فتح مجالات الاستثمار أمام رجال الأعمال الأوربيين بعد أن تأكد أن التطور، والتقدم، والتنمية، أصبحت مبادئ ومفاهيم مستقرة فى عقلية القيادة السياسية وفى عقلية المنفذين للسياسات والمسئولين عن التعامل المباشر مع المستثمرين، وتعمقت جذور هذه المفاهيم فى الثقافة، والسلوك وفى شخصية المواطن الصينى، وأصبح لدى الصين الأيدى العاملة المدربة التى تعمل بنشاط وبكفاءة لا تجدها فى دول أخرى .

والصين فى نفس الوقت-ليست شريكا سهلا بالنسبة لأوربا، فهناك عقبات قائمة بينهما ، وأول هذه العقبات أن النظام السياسى فى الجانبين مختلف، وتثير أوربا-مع أمريكا-قضايا الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وتتحدث عن الدكتاتورية فى حكم الصين. بينما ترى الصين أنها بحكم تاريخها وميراثها الثقافى، وتحت ضغط التهديدات الخارجية الدائمة على مدى التاريخ، ولاتساع رقعتها، وعدد سكانها الهائل، ووجود قوميات ولغات

وديانات متعددة، تطبق النظام الذى يتناسب مع ظروفها، كما ترى أن هناك من يعمل من وراء ستار الحريات لتغذية الاتجاهات الانفصالية فى بعض المناطق .. هذه الظروف الخاصة بها تفرض عليها نظاما سياسيا مختلفا عن النظام السياسى فى أوربا وأمريكا .. وترى أن التعاون الاقتصادى والتجارى والسياسى بين الدول لا يشترط أن يكون هناك نظام سياسى واحد للجميع .. فهناك خصوصية لكل شعب يجب أن تكون موضع احترام من الآخرين، وهناك هوية وثقافة وطنية وقيم مميزة لكل أمة، وهناك أيضا مصالح لكل دولة من حقها أن تحافظ عليها .. وكل ذلك يعنى أن الدخول فى العولمة ممكن بدون الضغط على الدول لكى يذوب كيانها وشخصيتها وتصبح مثل الآخرين .. ومن الذى يقول إن هناك ثقافة أفضل من ثقافة، أو حضارة أفضل من حضارة، حتى تتخلى الدول عن ثقافتها ومقومات حضارتها، وتغرس مجموعة قيم ومبادئ أخرى نجحت فى دول، وقد لا تجد النجاح فى غيرها لأنها قيم ومبادئ غريبة على شعوبها .. باختصار الصين حريصة على أن تأخذ بنظام الاقتصاد الحر ، ولكنها مصممة على ألا يكون تكرارا للنظام الرأسمالى الأمريكى أو الأوربى، وترفض الأخذ بوصفة جاهزة للتنمية والتقدم الاقتصادى، وترى أنها تستطيع « تفصيل » نظام اقتصاد حر له خصائص تناسب ظروفها وأوضاعها .

❑ ❑ ❑

الصين حريصة على إقامة علاقات اقتصادية مع الولايات المتحدة، وحريصة أيضا على عدم التصادم معها ، لكى توفر لنفسها مناخ الهدوء والاستقرار والأمن لتتفرغ لتنفيذ مشروعها الكبير لإعادة بناء الصين الحديثة ، القوية ، القادرة على أن تقف فى العالم كقوة لها وزنها المؤثر اقتصاديا وسياسيا .

والصين على وعى بأن الربع الأخير من القرن الماضى شهد ظاهرة جديدة، هى العولمة، وهذه العولمة فرضت تغيرات سياسية واقتصادية وتكنولوجية، وأصبحت مفروضة على الجميع، ومن يرفض الدخول فى العولمة سيصبح على هامش العالم ويتخلف أكثر وأكثر وربما ينتهى به الحال إلى الموت أو إلى حال قريب من الموت، فالملعب الدولى لن يدخله إلا من هو مستعد للعولمة ومؤهل للتعامل معها كشريك وليس كتابع، وهى لذلك مدركة أن العولمة فرضت وجود أوربا جديدة، وكذلك تفرض وجود صين جديدة، وتفرض العولمة علاقات من نوع جديد بين الدول، وقبول إزالة الحدود والحواجز .. فى الصين يدركون أن العولمة غيرت كثيرا من المفاهيم ومن معانى الأشياء وهم مستعدون لذلك .

□□□

وفى رأى الدكتور جاكيز أن الصين وأوربا يمثلان جزءا من المشكلة والحل للقضايا الكبرى الإقليمية والعالمية، ومن مصلحة أوربا أن تساند الصين فى خطواتها لتصبح دولة قوية ومنفتحة على العالم، ومن مصلحتها كذلك زيادة التعاون مع الصين بعد أن تم وضع الإطار القانونى سنة ١٩٧٥ لعلاقة الصين مع الاتحاد الأوروبى وتنظيم التجارة بينهما وهى الأساس الذى تنمو به العلاقات بينهما فى السنوات القادمة، وهناك اتفاق على ضرورة اشتراك الصين فى كل حوار سياسى مع المجتمع الدولى، وأن دخول الصين فى المجتمع الدولى سيزداد بعد انضمامها إلى عضوية منظمة التجارة العالمية، وبعد إتمام التحولات الداخلية فيها التى بدأت منذ سنوات،والحوار السياسى بدأ فعلا بين الصين وأوربا سنة ١٩٩٤ عن طريق مبعوثين ورسائل متبادلة، وعقدت قمة صينية أوروبية فى لندن سنة ١٩٩٨ كانت علامة مميزة على طريق العلاقات، وكذلك كانت القمة الأخيرة فى بكين فى

أكتوبر ٢٠٠٠ خطوة لزيادة التعاون. وهكذا تسير العلاقات على أساس الحوار والتفاهم الدائمين .. وعقد أول اجتماع بين الصين والمسئولين عن الترويكا فى نوفمبر ٢٠٠٠ فى بكين ، وهكذا فإن المسافة بين أوربا والصين اصبحت قصيرة جدا.

وبعد أن وقعت الصين على الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية وتوصلت إلى ما تريده لتحقيق مصالحها من هذا الانضمام واستغرقت المفاوضات ١٥ عاما، وبهذا الانضمام وفقا لشروط الصين - انفتحت أمامها الفرص أكثر للحصول على مساعدات تكنولوجية، وميزات فى التجارة والاستثمار، ووقعت اتفاقية للتعاون العلمى والتكنولوجى مع الاتحاد الأوربى، وتم الاتفاق على أن تتلقى الصين من أوربا مساعدات لتنفيذ برامجها الجادة لحماية البيئة، ومواصلة التنمية الاقتصادية، وإعادة البناء الثقافى والاجتماعى .. وشملت اتفاقية التعاون تلقى الصين مساعدات لمشروعاتها للتدريب والتنمية فى المناطق الريفية، وفى هذا العام سيناقش البرلمان الأوربى زيادة برامج التعاون بين دول أوربا والصين فى المدى القصير والمتوسط .

والاتحاد الأوروبى يعتبر أن علاقاته مع الصين ستكون لها الأولوية فى القرن الحادى والعشرين، ولذلك تعقد القمم دوريا، ويلتقى وزراء خارجية أوربا والصين باستمرار، والاتصالات قائمة ودائمة مع الرسميين فى مقر الاتحاد الأوربى فى بروكسل ومع بكين، وكذلك مع نيويورك وجنيف، وهكذا فإن الصين حاضرة ومشاركة فى كل القضايا الكبرى فى العالم وسيزداد هذا الدور فى خلال هذا القرن الجديد .

□□□

ويبدو أن الصين نجحت فى تحسين علاقاتها مع روسيا إلى الدرجة التى جعلت رئيس البرلمان الروسى السابق ف . ب . بوكين يقول فى المؤتمر إن

علاقات روسيا والصين الآن فى أحسن أحوالها، وإن الخبرة التى اكتسبتها الدولتان فى العشرين عاما الماضية أكدت لها أن الطريق الصحيح هو صياغة علاقات جوار على أسس تحقق مصالح وأهداف الدولتين .. وبهذا المفهوم استطاعت الصين وروسيا بناء الثقة وإنشاء آليات للتفاهم بينهما، وروسيا تقف إلى جانب الصين فى مطالبتها بتوحيد الوطن واستعادة تايوان، وستكون العلاقات بين البلدين فى القرن الحادى والعشرين قائمة على تعاون أكبر تجاه السياسات الدولية والعولمة والنظام الاقتصادى العالمى.. وقد وقعت روسيا والصين اتفاقية مشتركة للتعاون، وهذه الاتفاقية ليست موجهة ضد أية دولة أو تجمع دولى، وهى التى مهدت لتوقيع ٦ اتفاقيات اقتصادية مهمة فى الفترة الأخيرة، منها اتفاقية نقل بترول سيبريا إلى الصين.. وهناك مجالات جديدة اكتشفتها الصين وروسيا معا لتحقيق مصالحهما معا فى قرن جديد ليس لدى أى منهما رغبة أو نوايا للتصادم أو الصراع بعد أن انتهت الأسباب لذلك.

□□□

ومع اليابان واضح أن الصين نجحت أيضا فى إقامة علاقات جديدة تتجاوز الصراعات والحساسيات التى ملأت نفوس الصينيين بالمرارة تجاه اليابان .. وقد عبر عن ذلك فى المؤتمر رئيس وزراء اليابان السابق كيفو توشيكى فقال إن الصين الآن وصلت إلى مرحلة الاستقرار والانطلاق الاقتصادى، وهى جادة فى الحرص على السلام مع جيرانها ومع كل دول العالم لكى تتفرغ لتنفيذ مشروعها للتنمية والتحديث وإعادة البناء، وهذا المشروع من أهم دواعى التعاون بين الصين واليابان. ولذلك تجاوزت العلاقات بين البلدين كثيرا من الصعوبات فى العشرين سنة الماضية وأصبحت فى القرن العشرين علاقات صداقة وستزداد هذه الصداقة ومجالات التعاون فى القرن الحادى والعشرين، ومن صالح البلدين، بل من صالح آسيا كلها أن

يظل الاستقرار والسلام والصداقة فى علاقات الصين واليابان. وهما أهم دولتين فى آسيا، وسياسة الانفتاح وإعادة البناء فى الصين تفتح أمامها الأبواب لإقامة علاقات أقوى مع دول آسيا كلها.

وقال رئيس الوزراء اليابانى السابق : إن القرن الحادى والعشرين سيكون قرنا آسيويا، فقاطعه المستشار الألمانى السابق هيلموت كول صائحا : لا .. القرن الحادى والعشرين سيكون قرنا أوربيا .

وكانت هذه نقطة الخلاف الكبرى فى مناقشات المؤتمر . هل سيكون القرن الجديد قرنا آسيويا أو أوربيا .. بينما تؤكد أمريكا أنه سيكون قرنا أمريكيا! أما العلم العربى فلم يقل شيئا !

□□□

وكانت وجهة نظر الدكتور بطرس غالى حين تدخل فى المناقشات أن الصين تؤسس علاقاتها مع العالم على مبادئ التعايش السلمى مع الآخرين، وتنفذ ما تعلنه من أن على كل دول العالم أن تطوى صفحة الماضى ، وتنتهى من حل مشكلات العلاقات القديمة من بقايا مرحلة الحرب الباردة وعقلية الصراع الدولى، لكى يستقر فى العالم مفهوم جديد للأمن لا يقوم على تحقيق الأمن لدولة أو مجموعة دول على حساب تهديد أمن الآخرين، ولكن يقوم على تحقيق الأمن للجميع وينتهى معه سباق التسلح .

وفى رأى الدكتور بطرس غالى أيضا أن الصين جادة وصادقة فى دعوتها إلى تعاون اقتصادى بينها وبين دول العالم قائم على التكافؤ واحترام مصالح كل دولة.. نظام اقتصادى عادل .. يساعد على تضييق الفجوة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة، وهى فجوة هائلة .

كذلك فى رأى الدكتور بطرس غالى أن الصين قادرة على المدى البعيد على أن تسهم مساهمة كبيرة فى إقرار الأمن والسلام فى آسيا وفى العالم، وهذا يستلزم بناء الثقة، وحسن النوايا من جميع الدول ، والعقبة أمام هذا

الهدف هى الاستمرار فى التسابق على إنتاج وامتلاك المزيد من الأسلحة، وأن التسابق على اختراع وإنتاج الأسلحة يمكن أن يهدد السلام فى العالم ويعيد العالم إلى مرحلة التوتر والصراع وسباق التسلح ولن يكون ذلك لصالح معظم الدول التى تريد أن توجه طاقاتها وأموالها للتنمية وتحسين معيشة شعوبها .

□□□

كذلك كان رأى رئيس وزراء استراليا السابق بوب هوك أن الصين قوة واعدة صاعدة.. وقال : بعد انهيار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١ وانهارت معه علاقات أمريكا مع آسيا ، قلت إن أمريكا ستواجه مخاطر فى آسيا وخصوصا مع الصين. وقلت إن أمريكا أصبحت القوة العظمى الآن، والعدو الجديد لأمريكا بعد الاتحاد السوفيتى سيكون الصين، ورأيت أن التجمع ضد الصين تقوده أمريكا ويغذيه الإعلام الأمريكى. وفى سنة ١٩٩٦ كتب البروفيسور هنرى روين الأستاذ بجامعة ستانفورد وكان مساعدا لسكرتير عام الدفاع للأمن القومى ورئيس مجلس المخابرات القومى، يقول : « إن هناك علامات لا تخطئ عن تغيرات إيجابية فى الصين ، وخصوصا فى ثلاثة مجالات أساسية : الديمقراطية، وسيادة القانون، وحرية الإعلام، وإن هذه التغيرات الإيجابية لم يلحظها الأمريكيون ويلاحقها الإعلام الأمريكى بالهجوم، ويظهر ذلك فى الصحف والمجلات الخمس الكبرى فى أمريكا: نيويورك تايمز، وول ستريت جورنال، وواشنطن بوست ، وتايم، ونيوزويك، وفى الفترة من يونيو ١٩٩١ حتى يونيو ١٩٩٦ نشرت ٣٥٦ مقالة ضد الصين سواء عن اختراقات فى حقوق الإنسان والحريات، أو عن تزوير فى الانتخابات المحلية، أو عن اختراق القانون وعدم احترام السلطات له، أو عن تقييد حرية التعبير فى وسائل الإعلام، فكيف يستطيع الإنسان تفسير هذه التغطية المكثفة فى اتجاه واحد ؟».

وقال رئيس وزراء أستراليا السابق : لقد أتيح لى أن ألتقى بالبروفيسور روين فى جامعة ستانفورد فى العام الماضى وسألته هل مازال يرصد هذا الاتجاه العدائى للصين فى الصحافة الأمريكية فقال لى إن الإعلام الأمريكى لا يتناول ما يخص الصين بحياد ومازال منحازا .

وقال رئيس وزراء استراليا السابق أيضا : فى عام ١٩٩٩ أجرى معهد هاريس للرأى العام فى الولايات المتحدة استطلاعا للرأى أظهر أن ٦٣٪ من الأمريكيين الذين شاركوا فى الاستطلاع يرون أن الصين ليست دولة صديقة بل هى عدو لأمريكا، وقال رئيس الوزراء إن الإدارة الأمريكية الحالية لا تفعل شيئا لتغيير هذا المفهوم السائد فى الرأى العام الأمريكى بتأثير الإعلام، ورصد ثلاثة أحداث وقعت فى عام ٢٠٠١ أكدت صورة الصين كعدو فى أذهان الأمريكيين، الأول هو حادث طائرة التجسس الأمريكية على الصين التى أوقعتها الصين فى الأسر، والحدث الثانى هو إصرار إدارة الرئيس بوش على إقامة نظام صاروخى بما ينطوى عليه من تهديدات للصين ويدعم فكرة أنها العدو، والحدث الثالث هو إعلان الرئيس بوش أن الولايات المتحدة سوف تتخذ كل الإجراءات لحماية تايوان، وهو بذلك يعلن معارضته لسياسة الصين فى ضم تايوان ويهدد بالوقوف ضد الصين إذا حاولت استخدام القوة لضمها.. هذه الأحداث تدل على اتجاه أمريكى متشدد واحتمالات نشوب صراع بسبب تايوان .. والإدارة الأمريكية تتجاهل تاريخ الصين، وأهمية توحيد أراضيها ، بالرغم من أن أمريكا عندما بدأت تطبيع علاقاتها مع الصين فى السبعينات ، وقع الرئيس الأمريكى نيسكون فى شنغهاى على وثيقة تقر فيها الولايات المتحدة بأنها تعترف بأن كل الصينيين فى تايوان لهم حق البقاء، وأن تكون دولة الصين موحدة، وأن تايوان جزء منها، ولن تعارض الولايات المتحدة على ذلك .

ومشكلة تايوان هى التى تقف بين أمريكا والصين الآن، مع أن تايوان كانت دائما جزءا من الصين بالقانون الدولى فى إعلان القاهرة عام ١٩٤٣ ،

وأكد ذلك إعلان بوتسدام عام ١٩٤٥ ، وإن كان الشيوعيون بقيادة ماوتسى تونج حين أقاموا جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩ لم يذكروا وضع تايوان ، ولكن ذلك لا يغير من الوضع شيئا، وماذا كان يمكن أن تفعله امريكا لو أن ماو استولى على تايوان بالقوة؟ والولايات المتحدة يجب ألا تقاوم توحيد الصين، والصين من جانبها تتولى إدارة هذه القضية بالعقل والصبر والهدوء الذى يتميز به الصينيون. والصين تعلن كل يوم أنها لن تلجأ إلى القوة، وأنها ستظل متمسكة بحقها فى ضم تايوان عن طريق المفاوضات والحل السياسى، ولكن الولايات المتحدة تحتاج عادة إلى وقت طويل إلى أن تصل إلى الحل الصحيح ، كما فعلت فى مشكلتها الداخلية الكبرى بإقرار المساواة فى الحقوق المدنية للأمريكيين السود!

وقد سجل بيتر بوتيلير رئيس بعثة البنك الدولى فى الصين فى تقرير له أن معدلات وفيات الأطفال فى الصين قلت إلى درجة أن الطفل الذى يولد فى الصين الآن لديه فرصة أفضل للحياة والرعاية من الطفل الذى يولد فى واشنطن ونيويورك! ويغفل الأمريكيون أن برنامجهم لسباق التسلح فى مرحلة الحرب الباردة كان على حساب تخفيض ميزانيات الرعاية الصحية والخدمات وكانت النتيجة موت ٤٠ ألف طفل أمريكى سنويا نتيجة لذلك ، ولو كانت أمريكا وفرت ميزانيات التسلح لرعاية شعبها لما فقدت كل هذه الآلاف من الأطفال، وهذا هو الدرس الذى يجعل الصين ضد سباق التسلح، وضد إثارة الصراعات المسلحة، لأن ذلك يعطل تنفيذ سياساتها لتحسين مستوى معيشة شعبها وتحديث الصناعة والتعليم، والنتيجة أن الصين نجحت فى الحد من الفقر وتعمل على استكمال هدفها فى تنمية المناطق المتخلفة وهى تحتاج إلى أموال كثيرة ليس من الصواب تبديدها على التسلح والصراعات.

□□□

وهيلموت كول المستشار الألمانى السابق قال فى المؤتمر: نحن الآن فى عالم متعدد الأقطاب .. وعلى الولايات المتحدة أن تدرك ذلك، وتتعود على العيش فى عالم فيه قوى أخرى مع الولايات المتحدة مثل أوربا، والصين، وروسيا، والهند، وعليها أن تدرك أن الاتحاد الأوربى لن يصبح قوة عالمية عظمى تنافس أمريكا، ولكنه سيصبح شريكا لأمريكا ولروسيا وللصين، وسيعمل على تحقيق القوة، والاستقرار، والديمقراطية فى أوربا مع التقدم الاقتصادى والتكنولوجى.

وقال: إن السوق الآسيوية تزداد أهمية للدول الأوربية، وكذلك تزداد أهمية السوق الأوروبية بالنسبة لآسيا، وبالنسبة للاتحاد الأوربى أصبحت آسيا ثانى أكبر سوق بعد أمريكا الشمالية، وحجم الصادرات من دول آسيا فيما عدا اليابان تمثل ٣٠٪ من حجم ما تستورده أوربا، وسوف يزداد فى المستقبل، والصين مستمرة فى تحقيق معدل نمو كبير بالنسبة لدول العالم، يتراوح بين ٧٪ و٩٪، وفى السنوات الأخيرة تحقق نمو كبير فى تجارة الصين العالمية وخاصة مع أوربا.

وقال كول: إن التنمية الاقتصادية فى الصين ستواجه صعوبات، فيما يتعلق بدور الدولة وتدخلها فى الاقتصاد وإعادة البناء، وقد بدأت الصين فى التوسع فى الاعتماد على القطاع الخاص منذ سنة ١٩٩٩، وهذه السياسة ستساعد على زيادة التنمية الاقتصادية وتحرير الاقتصاد والاستثمار من القيود الحكومية.

□□□

وحين جاء الدور للحديث عن «الصين فى عيون المصريين» تحدث الدكتور محمد شاكر رئيس المجلس المصرى للشئون الخارجية (وهو تجمع غير حكومى) فقال إن الصين-مثل مصر-كلاهما دولة ذات حضارة

قديمة ، ولكن لم يتم التواصل بينهما إلا فى وقت متأخر، وفى الوقت الحاضر هناك فرص كثيرة لزيادة العلاقات خاصة بعد أن أرست قمة مبارك وزيمن فى أبريل ١٩٩٩ أسس التعاون الاستراتيجى بين البلدين، وقد كانت مصر سباقة فى اقامة العلاقات الدبلوماسية مع الصين ، ونحن نعرف أن الصين ليست لديها نوايا للسيطرة أو الهيمنة وراء مساعداتها للدول النامية، والمعونات الاقتصادية والفنية التى تقدمها غير مشروطة بأى شروط سياسية، وأكبر مثال على ذلك إقامتها خط السكة الحديد فى تنزانيا دون مقابل.

وتجربة الصين فى الانفتاح والتنمية الاقتصادية تمكن لنا الاستفادة منها فى مصر، فقد حققت أعلى نسبة نمو فى العالم، وبلغت تجارتها الخارجية ، والاستثمارات الأجنبية المباشرة فيها، والاستثمارات المشتركة أرقاما لم تحققها أى دولة أخرى فى العالم، والقادة الصينيون يقولون بالتواضع الصينى الشهير-إن الصين ستصبح قوة متوسطة خلال الخمسين عاما القادمة، بينما معدل النمو الحالى فى الصين يجعلها قوة عظمى وليست قوة متوسطة ودخولها فى منظمة التجارة العالمية سيؤهلها لتصبح الدولة الثامنة بين الدول الصناعية الكبرى.. ستصبح الصين فى القرن الحادى والعشرين قوة اقتصادية كبرى .. وقوة عسكرية .. ووفقا لاستراتيجية الصين فإن هذه القوة العسكرية لن تكون قوة هجومية أو توسعية ولكنها ستظل فى إطار السياسة الصينية قوة دفاعية . وتجربة التفجير النووى الذى قامت به الصين عام ١٩٦٤ كان إيذانا بدخولها فى عصر التقدم التكنولوجى والبحث العلمى، ودليلا على نجاحها فى كسر الحواجز المفروضة من الدول المتقدمة عليها وعلى الدول النامية لمنع امتلاكها للتقدم التكنولوجى، وبعد أن حققت الصين تقدمها التكنولوجى

فإنها لا تحتكر لنفسها هذا التقدم، وتقدم مساعدات تكنولوجية مهمة للدول النامية وبذلك تجد الدول المتخلفة فى القرن الجديد فرصة لتعويض مافاتها بسبب أنانية الدول الكبرى .

وقال الدكتور شاكر : إن امتلاك الصين للسلاح النووى لا يمثل تهديدا لأحد، ولكنه قوة حماية وردع لا أكثر .. والصين تقاوم مشروع حائط الصواريخ الأمريكى لأنه يعيد العالم إلى سباق التسلح.. والصين لها الحق فى ضم تايوان كما عادت إليها هونج كونج ومكاو وفقا لمبدأ وطن واحد ونظامين اقتصاديين. والصين لها دور فى استقرار وأمن قارة آسيا، وهى تعمل على تحسين علاقاتها مع دول القارة .. اليابان .. والهند .. وكوريا .

والعالم لن يشعر بالأمن ولن يطمئن على المستقبل فى وجود قوة وحيدة تسيطر على العالم ولديها نوايا للهيمنة وتريد فرض إرادتها وإخضاع الجميع لتحقيق مصالحها .

العالم يشعر بالأمن والاستقرار حين يصبح فى العالم قوى متعددة، ولذلك فإن من مصلحة كل دول العالم أن تصبح الصين قوة عالمية فى عالم متعدد الأقطاب لكى ينتهى عصر القطب الواحد .

ثقافتنا فى الصين

بعد عودتى من الصين تلقيت فى البريد ترجمة لكتاب الدكتور حسين كامل بهاء الدين «الوطنية فى عالم بلا هوية» إلى اللغة الصينية، وأثارت هذه الترجمة شجونى، وأعادت ذكريات حوارات أجريتها فى بكين وشنغهاى حول القصور فى التبادل الثقافى من الجانبين.

وخلال زيارتى ، لاحظت اهتماما من جانب من قابلتهم بالثقافة العربية والإسلامية عموما، وبالثقافة المصرية على وجه الخصوص، يستوى فى ذلك المسئولون فى الحزب والحكومة و أساتذة الجامعات والمسئولين فى مراكز البحث السياسى والاستراتيجى والمؤسسات الإسلامية.

ففى لقائى مع مدير عام العلاقات الخارجية للجنة المركزية للحزب الحاكم دار الحوار حول وجود علاقات سياسية قوية بين مصر والصين.. لكن العلاقات الثقافية لا تزال اقل بكثير مما يجب أن تكون عليه. هذا المستوى من العلاقات السياسية بين الدولتين والشعبين وحركة التبادل الثقافى محدود جدا ولا يتفق مع الرغبة فى البلدين فى الاقتراب أكثر، وفهم كل شعب لطبيعة الشعب الآخر، وتاريخه، وأحواله، وتقاليده، وعاداته.. إلخ.

ومعظم من قابلتهم قالوا لى: إننا نعرف الكثير عن مصر وعن العالم العربى، ولكن هذه المعرفة محصورة فى مستوى القيادات والمتخصصين، وليست موجودة على المستوى الشعبى أو حتى بين قطاع عريض من المثقفين، وهذا هو الحال عندكم فى مصر والعالم العربى.. حركة الترجمة من اللغة الصينية إلى اللغة العربية قليلة جدا، ونتيجة لذلك فإن

الصورة الذهنية لدى العرب والمصريين عن الشخصية الصينية والمجتمع الصينى مصدرها الكتابات الغربية التى تترجم إلى العربية، فالمصريون لايعرفون الكثير عن الصين.. حتى الجغرافيا.. أو التاريخ.. أو الحياة الاجتماعية.. أو النظام السياسى.. أو عن أحوال وكيفية التعامل مع الاقليات فى الصين عموما والمسلمين منهم على وجه الخصوص.. بل ربما يكون فى العالم الإسلامى من لا يعرف أن الصين فيها ٢٠ مليون مسلم على الأقل.

والحكومة الصينية تحمل لمصر تقديرا خاصا، ولا تنسى أن مصر كانت أول دولة عربية وأفريقية تعترف بالصين، وأول دولة تقيم علاقات دبلوماسية معها، ومصر والصين تتفقان دائما فى كثير من القضايا الدولية والإقليمية، ويظهر هذا الاتفاق فى الجمعية العمومية للأمم المتحدة، وفى مجلس الأمن، وفى المنظمات والمؤتمرات الدولية، وهناك وفود من البلدين تتبادل الزيارات، سواء على مستوى مجلس الشعب فى مصر والجمعية الوطنية فى الصين، أو على مستوى الوزراء وبخاصة وزير التربية والتعليم، وهو معروف جيدا فى الصين، لأنه زارها اكثر من مرة، وله كتابان مهمان ترجما إلى اللغة الصينية، الأول عن التعليم والمستقبل.. وقد قررت الحكومة الصينية توزيعه على المعلمين ضمن برامج التدريب ورفع كفاءتهم، والكتاب الثانى عن العولمة وتأثيراتها وصورة القرن الحادى والعشرين، ووضع الكيانات القومية فى ظل النظام العالمى الجديد، وهو بعنوان «الوطنية فى عالم بلا هوية».

ومن بين الأفكار والمقترحات التى تولدت فى هذه الحوارات أهمية إنشاء مركز ثقافى للصين فى القاهرة، ومركز ثقافى لمصر فى بكين، لتشجيع ودعم دراسة اللغة العربية فى الصين، ودراسة اللغة الصينية فى مصر، والتعريف بالثقافة والمثقفين فى كلا البلدين.. وكذلك أهمية التوسع فى

عـرض أفـلام كـل بلـد فـى البلـد الآخـر.. صحيـح أن هنـــاك بعـض الأفـلام المصرية عرضت فى دور السينما وفى التليفزيـون فـى الصـين ناطقـة باللغـة الصينية أو مع ترجمة صينية، ولقيت إقبالا من المشاهدين، إلا أن عـدد هـذه الأفـلام قليـل ولا يكفـى للقـول بـأن هنـــاك جسـرا دائمـا للتواصـل الثقـافى والحضارى بيننا، وكذلك فإن الأفلام الصينيـة التـى عرضـت وتعـرض فـى مصر نادرة .

ليس ذلك فقط، بـل إن التعـاون فـى مجال الصحافـة أقـل بكثـير جـدا ممـا يجب ، فالصحافة فى الصين تنشـر الكثـير مـن المقالات والأخبـار والتحليـلات عن مصر، ولكن الصحافة المصرية لا تنشر إلا القليـل عـن الصـين، والصحافـة المصريـة صحافـة قويـة، ولهـا تأثيرهـا فـى الـرأى العـام فـى مصـر وفـى العـالم العربى، ويهمنا أن نجـد فيـها مسـاحة عـن الصـين فـى الأخبـار والتحقيقـات.. كمـا يـهمنا أن تـرسـل الصحـف المصريـة منـدوبـين للإقامـة فـى الصـين فـتـرة كافيـة للتعـرف على طبيعـة المجتمـع الصينـى والكتابـة عنـه مـن موقـع المعرفة، وليس نقلا عن المصادر الغربية، ويشمل العتاب أن عدد العـاملين فـى مكتب وكالة أنباء الصين والمراسلين لصحف الصـين فـى القـاهرة هـو أكـبر عدد فى أفريقيا والعالم.. بينما لا يوجـد فـى الصـين غـير صحفـى واحـد فـى مكتـب وكالـة أنبـاء الشـرق الأوسـط، ويتطلـع الصينيـون إلى زيـادة حجـم التبـادل والمنـح الدراسـية فـى جامعـات البلديـن للأسـاتذة والمعيديـن والطلبـة لإيجاد صلات دائمة بين المؤسسات الأكاديمية ومراكـز البحـث العلمـى فـى البلديـن وتبـادل الخبرات بينـهما، وإن كـان ذلـك لا يعنـى عـدم وجـود هـذا التبادل، ولكنه بحالته الراهنـة قليـل جـدا، فـلا يكفـى القـول مثـلا بـأن قسـم اللغة الصينية فى كلية الألسن بجامعة عين شمس فيـه أسـتاذ أو اثنـان مـن أسـاتذة الجامعـات الصينيـة، ولا يكفـى أن يقـال إن بعـض المسئولين مـن هنـا وهناك قاموا بزيـارة أو اثنتـين، فمثـل هـذه الاتصـالات المحـدودة لا تعبر عـن الطمـوح، ونحـن نقـول إن مصـر والصـين، كليـهما ضمـن الـدول الناميـة،

ويواجهان نفس التحديات والمشاكل تقريبا، وبالتعاون بينهما يمكن الاستفادة بالخبرة على الجانبين، وإضافة نتائج التجربة فى البلدين معا، مما يحقق ثراء فى المعرفة يفيد البلدين.

هناك اختلاف بين مستوى العلاقات السياسية، ومستوى العلاقات الثقافية والعلمية والاجتماعية..

يذكرون فى شنغهاى بالتقدير جهود السيدة سوزان مبارك فى إنشاء مكتبة زودتها بكمية كبيرة من الكتب والمراجع العربية، تمثل إضافة مهمة تساعد الباحثين فى الجامعات على التعرف على الفكر والثقافة فى مصر.. كما يتحدثون بإعجاب شديد عن الأفكار التى ترعاها السيدة سوزان مبارك للارتقاء بالمستوى الثقافى للأسرة المصرية لكل الأعمار، مثل مشروع القراءة للجميع، ومشروع مكتبة الأسرة ومشروع اقرأ لطفلك، ويقولون إنهم يتابعون هذه المشروعات ويرون أنها من أعظم المشروعات الحضارية التى تنفذ فى العالم، وأن منظمة اليونسكو كانت محقة حين قررت منح السيدة سوزان مبارك جائزة تقديرا عن هذا الجهد، كما قررت تعميم هذه المشروعات فى دول أخرى فى العالم، ويفكرون فى تنفيذ هذه المشروعات فى الصين أيضا.

وفى شنغهاى التقيت مع أستاذ ومفكر كبير هو البروفيسور «تشو وى ليه» ويعرف باسم «البروفيسور عبد الجبار» وهو مستعرب يجيد اللغة العربية، وعلى اطلاع واسع بالثقافة والأدب فى العالم العربى.. وزار مصر عدة مرات وترجم عدة كتب ومقالات مصرية فى الأدب والسياسة إلى اللغة الصينية..

والبروفيسور عبد الجبار رئيس أكاديمية العلوم الاجتماعية بجامعة شنغهاى للدراسات الدولية، ورئيس تحرير مجلة العالم العربى التى تصدر منذ عام ١٩٨٠ باللغة الصينية وتنشر ترجمة لمقالات وأبحاث عربية، وهو من

مواليد ٢١ أكتوبر ١٩٤١، تلقى تعليمه فى قسم اللغة العربية بكلية اللغات الشرقية بجامعة بكين، واستكمل الدراسة فى جامعة القاهرة لمدة سنتين من عام ١٩٧٨ إلى عام ١٩٨٠، وعمل مدرسا للغة العربية وآدابها فى جامعة شنغهاى للدراسات الدولية من ١٩٦٥ إلى ١٩٨٠، ثم رئيس مركز بحوث اللغة العربية والحضارة الإسلامية من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٤ ثم أستاذا ووكيل كلية الدراسات العربية من ١٩٨٤ إلى ١٩٨٧، ثم رئيس أكاديمية العلوم الاجتماعية منذ عام ١٩٩٦ إلى اليوم.

وبالإضافة إلى ذلك فإنه يشغل عدة مناصب مهمة: عضوا مشاركا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ونائب رئيس جمعية الدراسات الشرق أوسطية الوطنية فى الصين، ونائب رئيس لجنة الإرشاد لتدريس اللغات الأجنبية، ورئيس فرع الإرشاد لتدريس اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم بالصين، ونائب رئيس جمعية الدراسات الدولية فى شنغهاى، وعضوا مراسلا للمجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) فى الأردن.

وقد بهرنى البروفيسور عبد الجبار بشخصيته وأفكاره وتعمقه فى دراسة اللغة والثقافة العربية، وهو يتحدث بلغة عربية سليمة، بل وباللهجة المصرية حتى نسيت فى حوارى معه أنه صينى.. وحسبت أنى أتحدث مع مفكر ومثقف مصرى يعرف كل شىء عن مصر وأدبائها ومؤلفاتهم القديمة والحديثة.. وترجم عشرات الكتب من اللغة العربية منها «رحلات ابن بطوطة»، و«ثلاثية نجيب محفوظ»، ورواية «الكرنك» لنجيب محفوظ، و«رد قلبى» ليوسف السباعى، و«سنة أولى حب» لمصطفى أمين، و«الأجنحة المتكسرة» لجبران خليل جبران، و«الأفيون» ليوسف الشارونى و«فنون الشرق الأوسط والعالم القديم»، و«فنون الشرق الأوسط من الغزو الإغريقى إلى الفتح الإسلامى» للدكتورة نعمت إسماعيل علام، و«تاريخ المغرب العربى»

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، و«السودان» للدكتور محمد محمود الصياد، و«ختم القرآن» و«عالمية الإسلام» للدكتور شوقى ضيف..

وله أيضا مؤلفات باللغة الصينية تدرس فى الجامعات الصينية منها: «خصائص الدول الأفرو آسيوية فى سياساتها للانفتاح على الخارج»، و«البحث عن حقيقة علم المصريات»، و«معجم الأدب العربى المعاصر»، و«دراسة الترجمة بين العربية والصينية نظريا وعمليا»، و«المراجع» و«واضع اللمسة الأخيرة» و«المصادر التاريخية لأفريقيا العربية من نهاية القرن الـ ١٨ حتى أواسط القرن الـ ٢٠»، و«تاريخ تطور اللغة العربية»، و«حضارة باهرة فى العصر العباسى»، و«المعجم الميسر صينى-عربى» و«الشرق الأوسط من منظور أستاذ صينى» وصدر منذ شهور.

ومع هذا الأستاذ الكبير قضيت وقتا ممتعا على الغداء بصحبة مساعد قنصل مصر فى شنغهاى الأستاذ ياسر هاشم، وهو نموذج مشرف للدبلوماسية المصرية بعلاقاته الواسعة ونشاطه المتميز وحبه وإخلاصه لبلده ولعمله، ومعرفته الواسعة بالصين وحضارتها أيضا.. وكان الغداء بدعوة من مدير مكتب الاستعلامات فى شنغهاى «شين جينج زى» وفى هذا اللقاء قيل إن شنغهاى تعتبر من أهم المراكز الثقافية والعلمية فى الصين المنفتحة على العالم، ومفكروها وأدباؤها أكثر تحررا، وهم يرصدون التغيرات التى طرأت على الصين وعلى شنغهاى.. وهى تغيرات واسعة فى الفكر والسلوك الفردى والجماعى، ويدرسون آثار سياسة الانفتاح الإيجابية والسلبية وكيفية معالجة مشكلة البطالة التى بدأت تظهر فى الصين مع أخذ الدولة بسياسة اقتصاد السوق، وتخفيف الأعباء عن المصانع الخاسرة، والتى كان زيادة العمالة فيها زيادة كبيرة على احتياجاتها الفعلية من أهم أسباب الخسائر وارتفاع تكلفة المنتجات، وعدم القدرة على المنافسة فى السوق المحلى أو الخارجى.

وبمناسبة صدور الترجمة الصينية لكتاب الدكتور حسين كامل بهاء الدين «الوطنية في عالم بلا هوية» قال البروفيسور عبد الجبار: إن هذا الكتاب من أعمق الكتب التى صدرت فى العالم عن العولمة، وأصدقها فى التعبير عن التغيرات الكبرى فى المفاهيم السياسية والاستراتيجية، وآثار التقدم التكنولوجى واحتكار الدول الكبرى لأسرار التقدم العلمى، والقيم والمبادئ الجديدة التى تفرضها العولمة من حق التدخل فى الشئون الداخلية للدول الصغرى، واختراق مبادئ سيادة الدولة على إقليمها وشعبها، أو التمسك بخصائصها الحضارية والثقافية، وبالقيم التى توارثتها عبر الأجيال.. وقد وجد فى هذا الكتاب أصداء لما يتردد فى الصين والدول النامية من الإحساس بمخاطر العولمة والدعوة إلى التمسك بالهوية الوطنية كطوق النجاة من الغرق فى بحار العولمة.. وطغيان الكبار على الصغار فى عالم القرن الحادى والعشرين..

وقال البروفيسور عبد الجبار: عندما بدأت الصين فى فتح الأبواب على العالم الخارجى وخصوصا على الغرب، كان الناس متحمسين لأن يخلعوا هويتهم ويصبحوا غربيين، وكان عام ١٩٨٩ هو الذروة لهذه الموجة من الإعجاب، والافتتان بكل ما هو غربى، والرغبة فى خلع الجلد الصينى والدخول فى جلد غربى، ولكن بعد فترة حدث رد فعل عكسى.. عاد كثير جدا من الصينيين المغتربين الذين كانوا يعيشون أو يتعلمون فى الغرب.. وعادت الروح الصينية، والاعتزاز بالقيم والروح الصينية.. وبعد أن كان الصينيون قد بدءوا يخلعون الملابس الصينية التقليدية ويلبسون الجينز والملابس الغربية، عادت الملابس الصينية هى الموضة للشباب من الذكور والإناث.. وبعد أن كان الصينيون يتباهون بأنهم يدخنون السجائر الغربية، عادوا إلى تفضيل السجائر الصينية، وبعد أن كان الشباب يفاخر بإتقانه للغة الإنجليزية ويتحدث بها فى كل مناسبة أمام الأجانب، أصبح

يفضل التحدث باللغة الصينية كجزء من الاعتزاز بالشخصية الوطنية، رغم أنه يتقن لغات أخرى..

وقال البروفيسور عبد الجبار: إن ما تواجهه الدول النامية اليوم ليس جديدا، فهو تكرار لما حدث على مدى التاريخ، وخذ الصين كمثال: لقد كانت فى القرن الخامس عشر صاحبة أول وأكبر أسطول بحرى فى العالم، ولكن بعد ذلك توقفت وتجمد نموها بضغوط الاستعمار الذى توالى عليها، حتى فاتتها الفرص، وتقدم الآخرون.. وحين استيقظت كان الآخرون قد سبقوها، وكان عليها أن تعمل بقوة.. وبدون راحة.. وبسرعة.. لكى تحاول اللحاق بالمتقدمين.. ولكن تكتلتْ القوى الاستعمارية على الصين.. وأضاعت الفرص من أمامها.. وهذا ما حدث لكل الدول النامية، وليس للصين وحدها، وهذا هو التحدى الأكبر أمام الدول النامية، إما أن تعمل بقوة خارقة، وإما أن تهمش، وتعيش خارج العالم وخارج التاريخ..

وقال أيضا: إن الصين استعادت الروح بعد حركة إحياء التراث والتاريخ الصينى بدلا من الخجل من ماضيها، وكانت هذه هى دعوة الزعيم الراحل دينج شياو بنج.. وقد حرص على بعث الأصالة والشعور بالثقة بالنفس فى الصينيين، والاعتزاز بكل ما هو صينى.. فنحن لا نخجل من أن جزءا من شعبنا يعانى الفقر والتخلف، لأننا لا نستسلم لهذا الحال ونعمل على تنمية هذه المناطق ورفع مستوى الناس فيها.. ولا نخجل من أننا متخلفون عن الغرب.. نحن نأكل بعصى من الخشب، وهم يأكلون بملاعق من المعدن، لماذا تكون الملاعق أفضل من العصى الخشبية ما دامت تشعرنى بالراحة وما دمت أحبها وأفضلها وهى جزء من تراثى..؟ وفى إطار سياسة إحياء التراث والاعتزاز بكل مراحل تاريخنا فإننا نعمل على إنشاء متحف لمراحل تاريخ وآثار كل مدينة، بما فى ذلك المراحل التى خضعنا فيها للاحتلال، لأننا لم نستسلم، وقاومنا الاحتلال، وانتصرنا عليه، ونحب أن نستعيد هذه المراحل

لكى تظل حية فى الذاكرة القومية، فلا نسمح بتكرارها مهما تعددت الصور واتخذت أشكالا جديدة..

وقال: نحن لا نخجل من أن نقول نحن دولة نامية، لأن هذه هى الحقيقة، ولكننا لا نستسلم لهذا الواقع، ونعمل على تجاوزه والانتقال إلى درجة أعلى.. حتى إن الصين انضمت أخيرا إلى منظمة التجارة العالمية بعد مفاوضات استمرت ١٥ عاما.. كانوا مصممين على اعتبارها دولة متقدمة اقتصاديا وصناعيا، وكانت الصين مصممة على أن تدخل كدولة نامية لها الحق فى الحصول على الامتيازات التى تقررها المنظمة للدول النامية، وحصلت على ما تريد، ودخلت فى عضوية منظمة التجارة العالمية بشروطها، وليس بشروط الدول الكبرى..

وقال أيضا أنه معجب بنجيب محفوظ لأنه يجد فى رواياته الشخصيات المصرية، وتعتبر ثلاثية بين القصرين تسجيلا أمينا وجميلا لتطور الحياة الاجتماعية والتقاليد والعادات وتطور الأفكار والنضال ضد الاستعمار، ومن يقرأ نجيب محفوظ يعرف مصر والمصريين أفضل مما يعرف ذلك من الكتب الأخرى.. فضلا عن أن نجيب محفوظ وهو مغرق فى المحلية وصل إلى قمة العالمية، وهذا ما نسعى إلى الاستفادة منه فى الأدب الصينى الحديث .

واتفق البروفيسور عبد الجبار معى على أن حركة الترجمة للكتب والأدب من اللغتين العربية والصينية أقل مما يجب، وليس هناك جسور تربط بين الشعوب أفضل وأقوى من الثقافة بمجالاتها المختلفة.. ولذلك لابد من حركة ترجمة واسعة للكتب العلمية والثقافية والأدبية والتاريخية لكى يعرف كل شعب فى البلدين كل شىء عن الشعب الآخر، وبذلك تكون الصداقة قد تعمقت وأصبحت لها جذور راسخة وضاربة فى عمق كل المجتمع الصينى والمصرى معا.

كيف حال الإسلام
والمسلمين فى الصين ؟

قصة الإسلام والمسلمين فى الصين قصة مثيرة، وأكثر فصولها مازال غامضا، فضلا عن أن القصة كلها تكاد تكون مجهولة لعموم المسلمين وبخاصة فى الدول العربية.

والمسلمون فى الصين يحتاجون إلى أن يمد لهم إخوانهم «على الجانب الآخر» أيديهم ويساعدونهم فى تعليم أبنائهم أركان الإسلام، وأحكام الفقه، وتفسير القرآن، واللغة العربية.. وإن كانت هناك بعض الجهود من دول عربية لكنها لا تزيد على أن تكون قطرة فى المحيط.

وفى طريقى لزيارة المركز الإسلامى فى بكين قال لى مرافقى، محمود نجم الدين (وهذا هو الاسم العربى واسمه الصينى يو زنج شانج) وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح:

من المفيد أن تعرف شيئاً عن الأقليات القومية فى الصين.. نحن عندنا ٥٥ قومية، والأغلبية العظمى من الشعب الصينى من قومية «الهان» وتمثل ٩٢٪ من السكان، و ٥٤ قومية من الأقليات من بينهم المسلمون وقوميات أخرى مثل قومية خوينج، وقومية الاوزبك، والطاجيك، ومنغوليا، والتبت.. الخ.. والقوانين تنص على إعطاء الحرية للقوميات فى استخدام لغاتها المنطوقة والمكتوبة، وتستخدم الأجهزة الرسمية للحكم الذاتى فى المناطق القومية لغة مكتوبة واحدة، أو عدة لغات مكتوبة منتشرة محلياً، وعندما تُستخدم عدة لغات فى وقت واحد تُعتبر «لغة القومية الأكثر عددا» هى

اللغة الرئيسية، وابتداء من خمسينات القرن العشرين ساعدت الحكومة المركزية أكثر من ١٠ أقليات قومية على وضع قواعد ١٣ لغة من اللغات القومية المكتوبة وشكلت هيئات خاصة لإعداد الكتب للأقليات، وقد جمعت الدولة حتى الآن حوالى ١٢٠ ألف كتاب من الكتب القديمة للأقليات وطبعت ونشرت أكثر من ٥ آلاف كتاب منها، وخصصت الدولة خبراء لكتابة تاريخ الأقليات القومية وأحوال المناطق التى تطبق فيها نظام الحكم الذاتى.

وقال لى أيضاً:

سوف تلاحظ أن فى الصين اهتماما ملحوظاً باللغة العربية، وعندنا أقسام عديدة فى الكليات الجامعية تدرس اللغة العربية، وحركة الترجمة من العربية إلى الصينية نشيطة بشكل ملحوظ الآن.

ثم قال:

إن الدولة تحترم عادات وتقاليد الأقليات القومية من حيث الأكل، والشرب، وتشييع الجنازات، والأعياد، والزواج، كما تحترم حرية المعتقدات الدينية للأقليات.. وحاليا فى الصين حوالى ٢٠ مليونا يؤمنون بالإسلام، وحوالى ٣٠ ألف مسجد و ٤٠ ألف إمام وخطيب، وفى منطقة سينكيانج ٢٠ ألف مسجد، و ٢٩ ألف إمام وخطيب، و ٨٠ جمعية دينية إسلامية.

ثم قال ونحن نكاد نقترب من مقر الجمعية الإسلامية:

مناطق الأقليات عموما كانت فى منتهى التخلف اقتصاديا وصحيا فى الصين القديمة، وانتشرت فيها الأمراض والأوبئة، وانخفض عدد السكان، وبعد تأسيس الصين الجديدة تحسنت الظروف الطبية والصحية وزاد عدد السكان زيادة ملحوظة.. مع ملاحظة أن ٥٠ سنة ليست زمنا طويلا فى تاريخ الدول، وفى هذه الفترة تطورت الصين القديمة من دولة ضعيفة وفقيرة وذليلة إلى صين تتمسك بالاستقلال وتتمتع برخاء ملحوظ.

ولا تنس أن شعب الصين حوالى ١٢٠٠ مليون نسمة كان معظمهم يعانى من الجوع والجهل والبرد، وقد ودع الجميع حياة البرد والجهل والجوع منذ سنوات.

ولم تعد الصين كما كانت «رجل شرق آسيا المريض».. وإن كنا نعترف بأن الصين مازالت دولة نامية تحتاج إلى زيادة تحسين مستوى معيشة الشعب، ورفع المستوى الحضارى والاجتماعى، وتعزيز الديمقراطية والاشتراكية.

ومرافقى محمود تاج الدين، وزميله «رشدى» يجيدان اللغة العربية قراءة وكتابة، محمود درس فى كلية الآداب بجامعة القاهرة وعاش فى القاهرة عامين كاملين ومازال يحمل ذكريات عن حى الحسين، والأزهر، والنيل، ويتحدث بشغف عن جمال الإسكندرية وآثار الأقصر.. ورشدى درس فى دمشق ولذلك تغلب عليه لهجة أبناء الشام ويتمنى أن يجد فرصة لاستكمال دراسته للغة العربية فى القاهرة .

وفى الصين نظام فريد يتفق مع الاتجاه إلى التوسع فى التعامل مع كل شعوب العالم، فهناك آلاف ممن يجيدون كل اللغات، وسافروا إلى البلاد الناطقة بهذه اللغات وعرفوا لهجاتها وعاداتها وثقافتها، وعاد كل منهم ليحمل اسما من الأسماء الخاصة بهذه البلاد.. فتجد من يتعامل مع العرب اسمه محمود أو رشدى أو شاكر أو عبد الجبار وهكذا، ومن يتعامل مع البريطانيين والأمريكيين اسمه جون أوالبرت أو ميشيل، ومن يتعامل مع الفرنسيين اسمه فرنسوا أو جاك، مع احتفاظهم طبعا بالأسماء الصينية فى معاملاتهم الرسمية، وهذا أسلوب تنفرد به الصين يجعل الزائر لا يشعر بالغربة لأنه يجد دائما من يتحدث بلغته ، ويحمل اسماً من الأسماء المألوفة له، وبذلك يتقرب منه، ويصبح صديقه.

□□□

فى «المركز الإسلامى» التقيت بعدد من المسئولين عنه، من بينهم محمد سعيد (مايون فو) نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية، ومصطفى (يانج تشى بوه) مدير مكتب العلاقات الخارجية للجمعية وعضو المنظمة الصينية للصداقة والعلاقات الدولية.. الملامح العربية واضحة فى الوجوه.. والابتسامة.. وطريقة الكلام.. واللقاء بتحية «السلام عليكم» والحديث يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم، وبعد كلمات التحية لم يكن هناك بد من الاستعانة بالمترجم، لأنه كان صعبا أن يتحدثوا، أو أن يتابعوا حديثى باللغة العربية.

والمركز الإسلامى فيه مسجد كبير، ومكتبة إسلامية متواضعة باللغتين الصينية والعربية، وفيه معهد للعلوم الإسلامية يدرس تعاليم الإسلام باللغة الصينية، لإعداد الأئمة بالإضافة إلى ١٠ معاهد أخرى لإعداد الأئمة منتشرة فى المساجد بالأقاليم، وهذا المعهد تابع للدولة، وبعض المعاهد الأخرى تتبع جمعيات أهلية.

و«الجمعية الإسلامية»- كما قالوا- أنشئت سنة ١٩٥٣ هى جمعية مستقلة وليست حكومية، ومصادر تمويلها من ثلاثة مصادر الأول: إيرادات الأوقاف الإسلامية التى أوقفها أصحابها للإنفاق على الدعوة الإسلامية ورعاية المساجد ، والمصدر الثانى للتمويل هو التبرعات من المسلمين من الصينيين والأجانب وتتلقى الجمعية تبرعات لتيسير الحج أو مساعدة فقراء المسلمين فى الصين، والمصدر الثالث هو معونة من الدولة حيث لا تكفى إيرادات الأوقاف والتبرعات لتغطية نفقات الخدمات والأنشطة التى تقوم بها الجمعية.. أما فى المقاطعات التى فيها معاهد إسلامية فإنها تتلقى الدعم المالى من المحليات، وكل المعاهد الإسلامية فى الصين تعمل تحت إشراف «الجمعية الإسلامية».. فى عموم الصين توجد ٤٣٠ جمعية إسلامية محلية تحت إشراف الجمعية الأم.

وتشرف على الجمعية الإسلامية هيئة لشئون الأديان تابعة لمجلس الدولة (مجلس الوزراء) والعاملون فى الجمعية الإسلامية المركزية والجمعيات المحلية يتقاضون رواتبهم من «الجمعية الإسلامية» وليسوا موظفين فى الحكومة..

قال لى الحاج محمد سعيد «مايون فو»:

المسلمون الصينيون يعيشون حاليا فى ظروف أحسن مما كانت فى الماضى.. المساجد يمكنها إعداد أئمة بالإضافة إلى المعاهد الإسلامية.. وهناك أعداد من المسلمين الصينيين يخرجون لأداء فريضة الحج.. قبل سياسة الانفتاح كان عدد الحجاج سنوياً يتراوح بين ١٠ و ٢٠ فردا، بعد الإصلاح والانفتاح اصبح العدد بالآلاف.

نشاط الجمعية يشمل الإشراف على الجمعيات والمعاهد الإسلامية فى المحليات، وتنظيم أنشطة ثقافية لزيادة الوعى الإسلامى ونشر الثقافة الإسلامية والاحتفال بالمناسبات الدينية الإسلامية وبخاصة إحياء ليالى رمضان بالقرآن والذكر.

وفى الجمعية إدارة للاتصالات الخارجية ولها علاقات مع جمعيات ومؤسسات فى الدول الإسلامية، وتتلقى الجمعية كل سنة دعوة من «المجلس الأعلى للشئون الإسلامية» فى مصر لحضور المؤتمر السنوى لعلماء المسلمين الذى ينظمه المجلس، كما تتلقى من الأزهر منحاً للطلبة الصينيين المسلمين للدراسة فى جامعة الأزهر، والآن يوجد أكثر من ٢٠٠ طالب يدرسون العلوم الإسلامية فى الأزهر وفى باكستان أيضاً، وهذه الإدارة تشرف على شئون الحج، وتستأجر ٩٨ طائرة خاصة لسفر حجاج الصين، وتنظم أيضاً اشتراك الشباب الصينى فى مسابقات القرآن الكريم التى تنظمها وزارة الأوقاف فى مصر وقد فاز فيها شاب صينى بالمركز الأول، كما يشترك المسلمون الصينيون فى الأنشطة التى تنظمها السعودية

والإمارات وماليزيا وإيران، وتستقبل الجمعية مقرئى القرآن من مصر وغيرها من الدول الإسلامية فى شهر رمضان.

فى الجمعية أيضاً إدارة للشئون الدينية تنظم مسابقات القرآن كل سنتين على مستوى الصين كلها، ومسابقات للعاملين فى الوعظ والإرشاد، وتشرف الجمعية على مراقبة الذبح الحلال للتصدير وتعطى شهادة بأن الذبائح المصدرة للدول الإسلامية ذبحت وفقا للشريعة الإسلامية، وتقوم هذه الإدارة بالاتصالات مع الجمعيات فى الصين، وتتلقى رسائل وطلبات وشكاوى المسلمين فى المناطق. فإذا كانت هناك مخالفات تمس العقيدة الإسلامية تقوم الجمعية بإبلاغ الجهات الحكومية المركزية أو المحلية.

والجمعية تتفاوض مع الحكومات المحلية الآن لاسترداد المساجد والعقارات والأراضى التى تمت مصادرتها خلال الثورة الثقافية التى استمرت عشر سنوات وخربت كل ما كان فى الصين من إيجابيات..

وفى الجمعية إدارة لتحرير وإصدار مجلة «المسلم الصينى» باللغة الصينية ولغة «الويجور» وهى لغة المسلمين الذين يمثلون الأغلبية فى إقليم سينكيانج الذى يتمتع بالحكم الذاتى، وهناك إقليم ثان يتمتع بالحكم الذاتى وفيه أغلبية مسلمة هو إقليم «نيسن سيا».

وأخيرا فى الجمعية إدارة للدراسات والبحوث الإسلامية، وتشرف على مناهج الدراسة فى الشريعة الإسلامية، وتتولى طبع وإصدار الكتب الإسلامية باللغة الصينية، وقد أصدرت مؤخرا ترجمة «لتفسير الجلالين»، وكتاب «اللؤلؤ والمرجان» فى الحديث.

❑ ❑ ❑

والصينيون يتبعون المذهب الحنفى، وغير مسموح لهم بالزواج بأكثر من زوجة واحدة، لأن قانون الزواج الذى صدر فى عام ١٩٥٠ وكان أول قانون صدر بعد تأسيس الجمهورية، ألغى نظام الزواج الإقطاعى الذى كان قائما

على الزواج القسرى والإجبارى وتعدد الزوجات واحترام الرجل واحتقار المرأة، وتجاهل مصلحة الأولاد، ووضع هذا القانون نظام الزواج الجديد الذى يكفل حرية الزواج للرجل والمرأة، ولكل رجل زوجة واحدة، ومحظور الجمع بين أكثر من زوجة، وأدى هذا القانون إلى التقليل من ظواهر ضرب وإهانة وظلم المرأة، كما قللت إجراءات الحكومة من ظواهر الدعارة، والاتجار بالمخدرات وتعاطيها، وألعاب القمار، وهذه الظواهر كانت منتشرة فى الصين القديمة، والجمعية الإسلامية تعمل على ترسيخ القيم الجديدة لأنها تتفق مع مبادئ الشريعة الإسلامية. وكان أول قرار فى هذا الاتجاه هو قرار المؤتمر الثانى لنواب الشعب فى نوفمبر ١٩٤٩ بحظر الدعارة، وإغلاق جميع دور الدعارة، وإلحاق الداعرات بمدراس لساعدتهن على اكتساب قيم جديدة، ومهارات جديدة للعمل والكسب الحلال، وعلاج الأمراض الجنسية، وساعد المسلمون فى محاربة الدعارة التى ظلت مباحة فى الصين لمدة اكثر من ثلاثة آلاف سنة، كما شاركت الجمعية الإسلامية فى محاربة المخدرات وساندت جهود الحكومة فى فرض عقوبات صارمة على تجار المخدرات وأوكار القمار، وقد نجحت الصين الجديدة فى قطع دابر هذا الطاعون الاجتماعى الذى كان سائدا ومتغلغلا فى الصين القديمة.

والزواج بين المسلمين يتم تسجيله أولا فى المكتب الحكومى المختص بذلك، ثم تقام مراسم الزواج بالصيغة الشرعية على يد الإمام فى مسجد المنطقة، وكذلك يتم الطلاق بالتسجيل فى المكتب الحكومى أولا.

❑ ❑ ❑

بعد أن شربنا الشاى الصينى الأخضر عدة مرات، وقمت بجولة فى أنحاء «المركز الإسلامى»، قلت للحاج محمد سعيد مايون فو:

- وماذا تطلب من الأزهر أو وزارة الأوقاف فى مصر؟.

قال:

- لدينا رغبة فى أن يزور الصين الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وأرجو أن تنقل هذه الرغبة إلى فضيلته.. كذلك أتمنى أن تزور الصين بصفة دائمة وفود من جامعة الأزهر، ومن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومن الأزهر الشريف، وفود كل منها مكون من ٣ أو ٤ أو ٥ أساتذة ليلتقوا بالأئمة الصينيين وبالمسلمين فى المساجد والجمعيات الإسلامية.. وأتمنى أن يجد قسم تعليم اللغة العربية فى «معهد الدعوة الإسلامية» التابع للجمعية مساعدة من مصر بإرسال معلمين وكتب.. وأخيرا أتمنى إرسال مجموعات من الكتب الإسلامية الأساسية لتكوين مكتبات، ولدينا أقسام للغة العربية فى بعض كليات وجامعات الصين وتخرج كثيرين يجيدون اللغة العربية ويمكنهم قراءة هذه الكتب وترجمة بعضها إلى اللغة الصينية.

وعندما كنت أغادر المركز الإسلامى قال لى الحاج البروفيسور مصطفى يانج تشى بوه إنه يزور القاهرة ويعرف كثيرا من القيادات الإسلامية فى الأزهر، وجامعة الأزهر، ويشارك فى مؤتمرات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وختم كلامه بقوله:

- أرجو أن تنقل تحياتنا وشكرنا للحكومة المصرية، وجامعة الأزهر، لتخصيص ١٥ منحة سنويا للطلبة الصينيين للدراسة فى جامعة الأزهر، و ٥ منح لدراسة الوعظ والإرشاد، وتخصيص اثنين من الصين لتمثيل مسلمى الصين فى «المجلس الأعلى للشئون الإسلامية». ونحن نشكر السفير المصرى الدكتور نعمان جلال لأنه دائم الاتصال بنا ومساعدتنا ونشعر أنه دائما قريب منا (وقد انتهت فترة السفير نعمان جلال الذى لاحظت أنه يتمتع باحترام فى كل مكان وله صلات بكل الجهات فى الصين).

□ □ □

من حين لآخر تنشر الصحافة الغربية أنباء عن الاضطهاد الذى يلقاه المسلمون، وعن ثورات وتمرد ومحاولات للانفصال والاستقلال، خصوصا فى إقليم «سنكيانج» حيث الأغلبية المسلمة.. وهذه الثورات ليست جديدة ولكنها ممتدة من قبل ثورة ماو ولها أسباب.. فالصينيون لا يؤمنون بدين من الديانات السماوية وكانوا منذ القديم يؤمنون بديانات وثنية، ثم أصبحوا يؤمنون بعقائد خاصة أشهرها الكونفوشية، نسبة إلى «كنفوشيوس» ودعوته مجموعة من الوصايا والتعاليم الروحية والأخلاقية تدعو إلى العمل الجماعى وفناء الفرد فى الجماعة، وإلى عدم الاهتمام بالمظاهر المادية، وإلى التفانى فى العمل كنوع من العبادة، وهكذا.. وبعد الثورة الشيوعية التى قادها ماوتسى تونج أصبحت الماركسية هى عقيدة الصين، والبديل عن الدين. والماركسية، كما هو معروف، نظرية مادية، لا تؤمن إلا بالمادة، وترفض كل فكر أو عقيدة خارج إطار المادة، ونتيجة لذلك فإن التناقض أمر حتمى بين من يؤمنون بالمادة وينكرون وجود «الله» وبين من يعتنقون ديانات سماوية ويعبدون «الله».

❑ ❑ ❑

على أن مشاكل المسلمين فى الصين تمتد إلى ما قبل الثورة، وعلى مدى العصور، عرضها الأستاذ فهمى هويدى بعد رحلته إلى الصين فى سنة ١٩٨١ فى كتاب «المسلمون فى الصين»، فقد تحدث عن مناطق تجمع المسلمين فى إقليم «سينكيانج» على الحدود المتاخمة للاتحاد السوفيتى، وفى «شيان» العاصمة القديمة للصين، وآخر نقطة فى «طريق الحرير» الذى كان يربط الصين ببلاد العرب والفرس مارا بأفغانستان، وكان التجار العرب يقطعون هذا الطريق لجلب الحرير الذى توصلت إليه الصين وظلت فترة طويلة محتفظة بسره، وعن طريق التجار العرب وصل الإسلام إلى الصين.

يذكر التاريخ أن أول مندوب عربى وصل إلى الصين كان موفدا من الخليفة عثمان بن عفان، والتقى هذا المبعوث بامبراطور الصين فى ٢٥ أغسطس عام ٦٥١ ميلادية فى العاصمة «شيان» ونقل إلى الامبراطور أنباء ظهور الدين الجديد الذى يدعو إلى التوحيد، وأرسل الامبراطور بعثة من اتباعه إلى خليفة المسلمين للوقوف على حقيقة هذه القوة الصاعدة فى الجزيرة العربية، ونشأت بعد ذلك علاقات وثيقة بين امبراطور الصين والدولة الإسلامية، حتى إن امبراطور الصين حين أراد إخماد حركة تمرد واسعة استعان بالخليفة أبو جعفر المنصور العباسى فلم يتردد الخليفة وأرسل ٤ آلاف رجل من جيش المسلمين استطاعوا مساعدة الامبراطور فى استرجاع عرشه، وبقى هؤلاء الجنود فى الصين وتزوجوا صينيات، وساهموا فى إيجاد سلالة من الصينيين المسلمين.. ويقال أيضاً إن مسلمى جنوب ووسط الصين هم أحفاد جنود قتيبة بن مسلم قائد جنود الخليفة أبو جعفر المنصور.

وبعد عام ١٠٦٣م زاد حجم التجارة بين الصين والعرب والفرس، مما شجع كثيرا من التجار العرب على الرحيل إلى الصين.. وتروى قصص كثيرة عن التكريم الذى لقيه هؤلاء التجار من الامبراطور فى ذلك الوقت، ومن الأدلة على ذلك أنه تم اكتشاف آلاف من الأوانى من الخزف صنعت فى الصين ونقلت إلى مصر على يد التجار عبر الشام، فى عهد أحمد بن طولون فى منتصف القرن التاسع الميلادى، وبرع المصريون فى تقليد هذه الأوانى فى عهد الدولة الفاطمية ، والدولة المملوكية، وكذلك عثر الأثريون على كميات من هذه الأوانى الصينية فى العراق.

كان التجار العرب ينقلون من الصين الحرير، والخزف، والشاى، كما نقلوا صناعة الورق. وكان الصينيون أول من اخترع هذه الصناعة، ثم أنشئ أول مصنع للورق فى العالم خارج الصين فى بغداد على أيدى العرب عام ٧٩٤، ودخلت الطباعة بغداد فى هذه الفترة أيضا، ثم انتقلت صناعة

الورق إلى دمشق، ثم إلى القاهرة والإسكندرية، ومن الإسكندرية انتقلت إلى أوربا فعرفت أوربا لأول مرة صناعة الورق، وبدأت فى صقلية، ثم أسبانيا وانتشرت بعد ذلك.. كما نقل العرب من الصين صناعة البارود وصناعة الإبرة المغناطيسية، وهما من المخترعات الصينية.. وفى المقابل نقل العرب إلى الصين علوم الطب، والرياضيات، والفلك، واستخدامات الأعشاب فى صناعة العقاقير الطبية، ونقلوا إليها أيضا الأحجار الكريمة مثل الياقوت والزمرد، واللبان العربى، والحلبة، وجذور الداتورة، ولم يكن أهل الصين يعرفون شيئا من ذلك..

وفى مرحلة من المراحل كان ابن سينا وكتبه المرجع الأساسى للمشتغلين بالطب فى الصين، ونقلت مؤلفاته ومصطلحاته الطبية إلى اللغة الصينية، وتأثرت صناعة الطب والأدوية فى الصين بمنهج ابن سينا.. ولذلك لم يكن غريبا أن تقيم الصين احتفالا كبيرا عام ١٩٥٢ فى ذكرى مرور ألف عام على ميلاد ابن سينا، وقدمت فى مؤتمر علمى كبير أبحاثاً متخصصة عن تأثير ابن سينا على علوم الطب وصناعات الأدوية فى الصين.

ونقل العرب إلى الصين أيضا خيال الظل، ولعبة «السيجة».

❑❑❑

وفى الصين اعتراف بأن الإسلام حقق قفزة واسعة فى البلاد فى عصر مملكة (يوان) المغولية من سنة ١٢٧١ إلى سنة ١٣٦٨ ميلادية، وبدأت بحفيد جنكيز خان «قوبلاى خان».. وإن كان قوبلاى خان قد انقلب على المسلمين فى البداية بسبب وشايات يقال إن مصدرها ابن أخيه «أباقا» وهو ابن هولاكو الذى قضى على الخلافة العباسية.

ونتيجة لهذه الوشاية من عدو المسلمين أمر الامبراطور «قوبلاى» بإنزال الأئمة الصينيين من على المنابر، وإكراههم على أكل اللحوم المخنوقة على طريقة المغول، وبعد سبع سنوات من ممارسته للاضطهاد على المسلمين

كان المسلمون قد خرجوا تباعا من الصين إلى جزر الهند الشرقية، ثم ذهبوا إلى العراق ومصر، وأدى ذلك إلى نقص واردات الحكومة، فاضطر الامبراطور إلى التراجع وأنشأ مسجدا فى «خان بالق» وهى «بكين» الآن قيل إنه كان يسع مائة ألف شخص.. وذلك لاسترضاء المسلمين ليعودوا.. وعاد بعضهم بالفعل..

وبعد ذلك- فى عهد أسرة (يوان) شهد المسلمون مرحلة أخرى من الحرية، وتولوا المناصب الكبرى، وانفتحت الصين أكثر على العالم الإسلامى تجاريا وثقافيا، وزادت حركة السفن والقوافل بينها وبين العالم الإسلامى، ونقلت الكتب العربية إلى اللغة الصينية وبخاصة فى الطب، والصيدلة، والكيمياء، والفلك، وغيرها..

وفى هذا العهد أنشئت دار لصناعة الأدوية كان يشرف عليها طبيب عربى مشهور اسمه يوسف وعمل معه فيها عدد من الأطباء العرب.. وفى مكتبة جامع بكين وجد فهمى هويدى بقايا موسوعة طبية تحتوى على ٣٦ جزءا تعتمد على طريقة ابن سيناء فى كتابه المشهور «القانون» الذى علم العالم الطب وعلم الأدوية.

❑ ❑ ❑

ويذكر ابن بطوطة ضمن حديثه عن رحلته إلى الصين أنه وجد فى ميناء كانتون المسجد الجامع، ووجد أن للمسلمين الصينيين قاضياً، وشيخاً، كما وجد فى كل بلد من بلاد الصين شيخاً للإسلام يرجع إليه المسلمون فى أمورهم، وقاضياً يحكم بينهم، ويذكر ابن بطوطة أنه وجد الصينيين المسلمين يعيشون فى تجمعات خاصة بهم، وفيهم الفقهاء، ويتركز وجودهم فى السواحل، وهم خليط من الصينيين، والعرب، والفرس، والأتراك.

بعد ذلك جاءت أسرة «مينج» إلى الحكم من عام ١٣٦٨ إلى ١٦٤٤ ميلادية، وكان المسلمون فى الجيش، ويمارسون الزراعة، ولكن حكام هذه الأسرة

اتجهوا إلى فرض العزلة على الصين، فتقطعت الصلات مع العالم الإسلامى، واندمج المسلمون فى المجتمع الصينى، وتزوجوا صينيات، وأقاموا مساجد كثيرة.. وظهر أول عالم إسلامى صينى اسمه «خرونج تشو» حوّل المساجد إلى مدارس فى القرن السادس عشر، وسار تلاميذه على نهجه من بعده. فانتشرت المدارس فى المساجد، حتى إذا ما انتهى عهد أسرة «مينج» كان قد ظهر علماء صينيون تخصصوا فى علوم القرآن، والحديث والفقه والتوحيد، ولهم مؤلفات قيمة. ويذكر فهمى هويدى أربعة أئمة منهم لهم مؤلفات مهمة باللغة الصينية عن الشريعة الإسلامية، والسيرة، وأحكام الإسلام، وأصول الدين.

وأصبح المسلمون يحملون أسماء صينية إلى جانب أسمائهم العربية، وتنوعت مجالات النشاط الاقتصادى لهؤلاء المسلمين، وأصبحوا مواطنين لهم حقوق يدافعون عنها، وتمردوا أكثر من مرة عندما وجدوا أنهم لا يحصلون على حقوقهم كمواطنين، ودفعوا ثمنا باهظا لذلك من أرواحهم وممتلكاتهم.. حتى إذا جاء النصف الثانى من عهد أسرة «مانشو» اشتد الاضطهاد والعذاب..

وفى عام ١٦٤٨ ميلادية قام مسلمو مقاطعة «هانج تشو فو» بثورة ضد الحكومة للمطالبة بالحرية الدينية، وتكررت ثورات المسلمين بعد ذلك، وازداد القمع، حتى إن الفترة بين عامى ١٧٥٨ و١٨٧٣ شهدت خمس ثورات كبرى لمسلمى الصين. وكان سلاح الضرائب سوطا من السياط الحادة التى تلهب ظهورهم طوال حكم «المانشو»، وقبيل نهاية القرن ١٩ كان المسلمون الصينيون قد انكسرت شوكتهم واتجهوا إلى الأنشطة التربوية والتعليمية.

□□□

وفى عهد السلطان عبد الحميد حاول أن يقيم علاقات بين الدولة العثمانية ومسلمى الصين، فأرسل أحد رجاله لتقصى أخبارهم، وكان هذا

المبعوث هو أنور باشا سنة ١٩٠٠ لكن مهمته لم تنجح.. بعد ذلك زار الأستانة إمام مسجد بكين والتقى بالسلطان عبد الحميد واقترح عليه إرسال بعثة إسلامية إلى الصين، فأوفد السلطان اثنين من الأتراك أسسا مدرسة في مسجد العاصمة الصينية، لكن الحكومة الصينية حاربت هذه البعثة، لأنها- فيما يقال- كانت تدعو مسلمى الصين إلى الانضمام إلى الخلافة العثمانية.

□ □ □

وبسبب الاضطهاد الذى لاقاه المسلمون فى عهد أسرة المانشو انضموا إلى ثورة صن يات صن عام ١٩١١، وفى المقابل اعترفت بهم هذه الثورة باعتبارهم أحد العناصر الخمسة التى تتكون منها الصين، وأنشئت أول جمعية لمسلمى الصين باسم «جمعية التقدم الإسلامية» ومقرها الرئيسى فى بكين، كما أنشئت مجلة «نور الإسلام» ومجلة «العلوم الإسلامية» ثم مجلة «المنبه الإسلامى» فى مدن متفرقة. وأنشأت «جمعية التقدم الإسلامية» مدرسة ابتدائية لتعليم الأطفال الدين الإسلامى، ثم أنشأت مدرسة ثانوية تدرس للتلاميذ اللغة العربية إلى جانب اللغة الصينية، والعلوم الدينية إلى جانب العلوم الحديثة، واعترفت وزارة التعليم بالمدرستين: وانتشرت بعد ذلك المدارس الإسلامية.

ولانعدام الصلات بالعالم الإسلامى أخذت مفاهيم الإسلام فى الصين تتشكل بصورة خاصة، وتختلط بالمعتقدات والتقاليد الصينية الوثنية القديمة، وأصبح الإسلام بالنسبة للمسلم العادى مجموعة من الأسرار لا يعرفها إلا رجل الدين، مما فتح الباب لنشأة ظاهرة جديدة أقرب إلى «الكهنوت» وأفكار ومعتقدات غريبة عن الإسلام، وأدى إلى انتشارها نقص الثقافة الإسلامية، وعدم الإلمام الكافى باللغة العربية، ولم يكن المصحف متوفرا.

□ □ □

وفى القرن العشرين، فى عام ١٩٣١ سافرت إلى مصر أول بعثة من مسلمى الصين للدراسة فى الأزهر، وكانت تضم خمسة من الشباب، أوفدتهم «جمعية التقدم الإسلامية» على نفقتها وكان بينهم عبد الرحمن ناجونج.

وكتب عبد الرحمن ناجونج مقالا باللغة العربية عن أحوال المسلمين الصينيين، قال فيه: «إن العلماء فى الصين كانوا يبالغون فى ثواب النوافل، فاشتغل المسلمون بها عن الواجبات، فكان أكثرهم لا يصلون الفرائض، ولا يصومون رمضان، ولا يخرجون الزكاة، ولا يؤدون فريضة الحج، ويهتمون بإقامة المآتم ليقرأ فيها العلماء المسلمون بعض قصار السور من جزء عم، أو جزءا من أجزاء القرآن، ويصلون على النبى بالترجيع والتغريد، ثم يجلسون إلى مائدة فاخرة ويتلقون الصدقات، وإذا جاء مولد النبى (صلى الله عليه وسلم) ومولد السيدة فاطمة أقاموا حفلة بصدقات المسلمين، وعملوا الولائم فى أروقة المساجد يحضرها المسلمون والمسلمات ليسمعوا القرآن والوعظ، وعندما يحين وقت الصلاة يصلى بعضهم، وبعضهم يأكلون ويشربون، فلما وجد بعض علماء الدين الخطر فى هذه العادات نصحوا المسلمين بأداء الفرائض بدلا من النوافل، وأخذوا يحرمون الطعام والصدقة لمن يتلو القرآن، فعارضهم المتعصبون والمنتفعون، ووقعت الفتنة بينهم غير مرة، وإن كانت الخصومة الآن أقل مما كانت بحمد الله».

هذا الوصف لحال المسلمين فى الصين فى ذلك الوقت يكشف عن غياب الفهم الصحيح للإسلام، والاكتفاء بالظاهر، حتى إن الزائر يلتقى بمسلمين لا يعرفون من الإسلام غير «السلام عليكم».. ونتيجة انتشار المعابد البوذية تأثر المسلمون بها، فانتشرت ظاهرة الأولياء وأضرحتهم،

❑ ❑ ❑

ويذكر كتاب «الصين المتحررة» الذى صدر فى الصين عام ١٩٥٦ العديد من ثورات المسلمين ضد الظلم الواقع عليهم وراح فيها من الضحايا عشرات

الآلاف حتى إنهم كانوا يسمون عيد الفطر عيد الدموع، وعيد الأضحى عيد الذل، إلى أن جاءت ثورة ماو تسى تونج عام ١٩٤٩، وانضم إليه المسلمون فى ثورته على تشانج كاى تشيك، وشاركوه فى «المسيرة الكبرى» وتصدروا الصفوف فى المعارك، ومات منهم كثيرون، ولذلك قال ماو: «من المستحيل علينا أن نحقق رسالتنا إذا لم نكسب المسلمين إلى جانبنا، ونضمهم إلى جهتنا».. ووعد ماو المسلمين بإقامة حكومة لهم مستقلة ذاتيا، وإلغاء الضرائب والديون والفوائد القديمة والتجنيد الإجبارى الذى كان يلزمهم بالخدمة فى جيوش الأمراء، كما وعدهم بحماية حرية العقيدة للجميع، وحماية الثقافة الإسلامية والتراث الإسلامى، وتنفيذا لهذه الوعود أصدر قائد الجيش الأحمر، جيش ماو، الأوامر إلى الجنود من غير المسلمين يحرم عليهم دخول المساجد، وأكل لحم الخنزير، ودخول بيوت المسلمين بدون استئذان، والنظر إلى النساء، وجمع التبرعات من المسلمين أو مصادرة ممتلكاتهم.

قبل ذلك كان موقف المسلمين صلبا فى مقاومة الاحتلال اليابانى من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٥ وشكلوا فصيلة باسم «الجحافل الحديدية» بقيادة ضابط مسلم اسمه مابن تشاى خاضت معارك طاحنة مع اليابانيين فى شمال الصين، وحققت انتصارات باهرة.

ويذكر فهمى هويدى نقلا عن دراسة لأحد الباحثين الصينيين أسماء عدد من شيوخ الإسلام الصينيين فى الفترة من ١٩١١ إلى ١٩٤٩ منهم: الشيخ «وانج جينج تشاى» وكان إماما ومعلما ومحررا لمجلة نور الإسلام التى أنشأها، وقد ترجم القرآن الكريم، وترجمته هى أفضل ترجمة ظهرت بالصينية، كما ترجم كتاب «العمدة» وهو كتاب الفقه الشائع فى الصين، ووضع القاموس العربى الصينى.. والشيخ محمد تواضع بانج الذى توفى عام ١٩٥٨ وهو عالم أزهرى عمل إماما ومعلما ومحررا، وكان أول من جلب حروف الطباعة العربية إلى الصين مما ساعد على نشر الثقافة

الإسلامية، وألـف كتابا بعنـوان «تسـع سـنوات فـى مصـر» وترجـم كتـاب «تاريخ التشريع الإسـلامى» وكتـاب «رسـالة الإسـلام» و«مذاهـب الديـن الإسلامى» وغيرها.. ونشر مقالات فى مجلة «هلال الصين».. والشيخ ماليـانج جيـون المتوفـى عـام ١٩٥٧ وكـانوا يعتبرونـه إمـام أئمـة الصـين، ولـه مؤلفـات إسلامية، وترجمـات لكتـب دينيـة، ويقـال إنـه أنفـق أموالـه فـى طبـع الكتـب ومساعدة فقراء ويتامى المسلمين، وعاش حياة زهد وتقشـف، ولم يـترك بعـد وفاته غير بعض الكتب، وعمامته، ومسبحته.. والأسـتاذ محمـد مكـين، درس فى الجامع الأزهر ودار العلوم، وعمل أستاذا فى جامعة بكين ٣٠ عاما، وتوفـى عام ١٩٧٨، ومن مؤلفاته باللغة الصينية :«سيف محمد» و«موجز شرح القرآن الكريـم» و«رسـالة التوحيـد»، و«حقيقـة الديـن الإسـلامى» و«تـاريخ علـم الكلام» و«تاريخ التعليم الإسلامى» و«تاريخ العرب»

ومن أهم ما فى هذه الفترة الإعلان الرسمى باعتبار المسلمين أحـد عنـاصر الأمة، والنص فـى الدسـتور على حقهم فـى التمثيـل فـى البرلمان، وهكـذا تم انتخاب ١٧ من المسلمين أعضاء فى الجمعية الوطنيـة. وبعـد ثـورة مـاو وصـل عـدد كـبير مـن المسـلمين إلى عضويـة الـدورة الأولى للمؤتمـر الاستشـارى الوطنى، واشتركوا فـى أول مجلس لنـواب الشـعب، وفـى المجـالس الإقليميـة، وتولى عدد كبير منهم مناصب مهمة فى الحكومة المركزية، وفـى الحـزب، وفى الحكومات المحلية.

❑❑❑

وقـد تأسسـت «الجمعيـة الإسـلامية الصينيـة» عـام ١٩٣٥، وحققـت نتـائج طيبـة تحـت قيـادة الحـزب الشـيوعى، إلى أن جـاءت فـترة الاضطـراب التـى استمرت عشر سنوات مـن ١٩٦٦ حتـى ١٩٧٦ باسـم «الثـورة الثقافيـة» وقادتها زوجة ماو- وهـو مـا زال علـى قيـد الحيـاة- ولم تكـن وحدهـا، وشـاركها فـى قيادة هذه الثورة الثقافية «عصابة الأربعة» التى فككت كل الإنجازات التى

تحققت ، ودعت مئات الملايين من الشعب الصينى إلى ترك أعمالهم والقيام بمظاهرات لتأييد هذه الثورة، وكانت النتيجة أن توقفت المصانع، والمزارع، وأصيبت عملية التنمية بالشلل، وأعيد عشرات الآلاف من الطلبة الصينيين الذين كانوا يدرسون فى جميع أنحاء العالم، بما فى ذلك الذين كانوا يدرسون فى جامعة الأزهر وجامعة القاهرة، وتوقفت أيضا الجمعية الإسلامية عشر سنوات شأنها شان جميع مرافق الحياة فى عملية التخريب الكبرى التى شهدتها الصين، وعادت فيها إلى الوراء خطوات، ثم استأنفت مسيرتها بعد السنوات العشر العجاف.

فى سنوات الثورة الثقافية أغلقت المساجد، وعطلت الشعائر الإسلامية، وبعد انتهاء هذه الردة عادت الأمور إلى طبيعتها لإصلاح ما فسد، وأعلنت الحكومة أن حرية العقائد الدينية مكفولة.

□ □ □

والحقيقة أن الثورة الشيوعية، برغم أنها لا تؤمن بالأديان، وتؤمن فقط بالماركسية المادية، فإنها أعطت المسلمين من الحرية ما لم يحصلوا عليه فى ظل حكم «المانشو» ونص أول دستور للثورة صدر فى عام ١٩٥٤ على مبدأ حرية الاعتقاد الدينى، فعقد أول مؤتمر للمسلمين الصينيين فى مايو ١٩٥٣، وفى عام ١٩٥٤ صدرت مجلة باسم «مسلمى الصين»، وفى عام ١٩٥٥ أنشئ أول معهد إسلامى تابع للجمعية الإسلامية، وطبع القرآن الكريم لأول مرة باللغة العربية، وخرجت أول بعثة صينية للحج حرصت على زيارة المسجد الأقصى وهى فى طريقها إلى الأراضى المقدسة.

لكن عام ١٩٥٨ شهد خطوة إلى الخلف، بعد تنفيذ الثورة لنظام الكميونات الزراعية، فأغلقت المساجد وتم تحويلها إلى منشآت اقتصادية، وتم تجنيد الأئمة للعمل فى الكميونات، وتوقف بالتالى المعهد التابع للجمعية الإسلامية عام ١٩٥٩ وكان النافذة الوحيدة لمسلمى الصين كى يدرسوا علوم القرآن

والحديث والفقه واللغة العربية، وتوقفت مجلة «المسلمون» واستمرت هذه الفترة المظلمة من عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٧٦، ولم يعد فى الصين كلها سوى ١٠٠ شخص فقط هم كل من بقى ممن درسوا شيئا عن الإسلام. وبذلك لم يكن ممكنا إعداد كوادر إسلامية للقيام بوظيفة إمام المسجد والخطابة والوعظ والتوجيه.

ازمة أخرى تعرض لها المسلمون فى عام ١٩٦٠ حين تم تهجير آلاف من الأسر من غير المسلمين ومن أصول عرقية أخرى، إلى مقاطعة «سنكيانج» التى تعيش فيها الأغلبية المسلمة، بقصد تغيير التركيبة السكانية فى هذه المقاطعة، فلا يكون المسلمون أغلبية، ويضيع صوتهم وسط زحام غير المسلمين. والقضاء على محاولات المسلمين للانفصال أو الحكم الذاتى المستقل.

وجاء عام ١٩٧٨ بمرحلة جديدة فى كل شىء.. فى الفكر السياسى والأيديولوجى.. وفى فلسفة التنمية بإنهاء حالة الانغلاق والعزلة واتباع سياسة الانفتاح الاقتصادى والسياسى على العالم، والأخذ بنظرية جديدة هى نظرية «اقتصاد السوق الاشتراكية» أو «الاشتراكية ذات الخصائص الصينية» كما يسمونها فى محاولة للجمع بين الفكر الغربى الرأسمالى القائم على اقتصاد السوق، والفكر الاشتراكى الماركسى القائم على سيطرة الدولة والتخطيط المركزى.. ومع سياسة الانفتاح على الخارج كان لابد أن يتحقق الانفتاح فى الداخل أيضا.. فحدثت انفراجه ملحوظة فى الحريات السياسية وأصبح الاختلاف فى الرأى مسموحا به داخل إطار نظرية «اقتصاد السوق الاشتراكية» والمبادئ التى أعلنها الزعيم دنج شياو بنج والتى تعتبر تطويرا لأفكار ماوتسى تونج، ومرحله جديدة فى السياسة الداخلية والخارجية للصين، مع الحفاظ على قيادة الحزب الشيوعى للبلاد والأخذ بنظام «المركزية الديمقراطية».. وتتلخص فى «الحرية بمفهوم الحزب الشيوعى وبقيادته»..

وفى سنة ١٩٧٨ تم تعديل الدستور ونص فيه على أن جميع المواطنين لهم حرية الاعتقاد الدينى، كما أن لهم الحق فى عدم الاعتقاد، وفى الدعوة إلى الإلحاد.. وقبل ذلك فى عام ١٩٧٩ وضعت مادة جديدة فى قانون العقوبات نصها: «يعاقب موظفو الحكومة بالسجن لمدة أقصاها سنتان، أو بالحبس، إذا أفرطوا فى تجريد المواطنين من حريتهم فى عقيدتهم الدينية، أو انتهكوا أعراف وعادات أبناء الأقليات القومية بالمخالفة للقانون»..

وهكذا عادت بعثات الحج من مسلمى الصين، كما بدأت زيارات مسلمى الصين إلى الدول الإسلامية لحضور الندوات والمؤتمرات، وكانت البداية فى «الملتقى الإسلامى» بالجزائر عام ١٩٧٩، وبعد ذلك أعيد فتح المساجد المغلقة فى عموم الصين، فأضاءت مآذن ١٩٠٠ مسجد فى إقليم «سنكيانج» وحده، وأعادت الحكومة العمل بقرار منح المسلمين إجازة فى عيدى الفطر والأضحى.

وكان فهمى هويدى أول صحفى عربى أو مسلم يدخل إقليم «سنكيانج» بعد أن أصبح مسموحا بزيارة الأجانب له بعد أن ظلت مثل هذه الزيارات ممنوعة منذ عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٧٨، فرأى فى هذا الإقليم مجتمعا مسلما بكل وضوح، لا يختلف فى الشكل عن أى بلد إسلامى، ولم تفلح عملية تهجير أبناء الديانات والقوميات الأخرى فى تغيير طبيعته، ورأى أن المسلمين فى هذا الإقليم متمسكون بتقاليدهم الإسلامية ومعظمهم من قومية «هوى» من ذوى الأصول العربية والفارسية.. وفى هذه القومية فإن المسلم له اسمان اسمه الصينى وهو الاسم الرسمى المدون فى شهادة الميلاد وفى معاملاته، والثانى اسمه الدينى مثل محمد أو محمود أو على أو حسين أو فاطمة أو مريم أو سليمة أو خديجة.. إلخ.. وحين يولد الطفل فى الأسرة المسلمة يستدعون الإمام ليتلو بجواره آيات من القرآن الكريم والأدعية فيكون الآذان هو أول ما اخترق أذنيه ، ثم يقوم الإمام باختيار الاسم الدينى

للمولود.. أما المسلمون من غير قومية «هوى» فى إقليم «سنكيانج» وما حولها فليس لديهم هذا الازدواج فى الأسماء ولكل واحد منهم اسم واحد، وهو اسم إسلامى صريح، هو وأبوه وعائلته مسجل فى شهادة الميلاد وفى معاملاته ووثائقه، ويرجع ذلك إلى الظروف التاريخية التى جعلت المسلمين من قومية «هوى» يحاولون الاندماج فى المجتمع والثقافة الصينية ويكتسبون شرعية الوجود واعترافا بهم، بينما كان لدى غيرهم الشجاعة على الظهور والتعامل بوجه واحد دون مجاملة أو مداراة..

❑ ❑ ❑

والطفل المسلم تحرص أسرته على أن يختن فى سن الرابعة، ويحفظ الشهادتين والفاتحة فى الخامسة، ويذهب إلى المسجد ليتعلم على يد الإمام الحروف العربية، وبعض سور والقرآن، وبعض مسائل فى النحو والفقه..

ودور الإمام يبدأ مع ولادة الطفل، ثم تعليمه ويمتد إلى عقد الزواج، بالصيغة الشرعية بعد توثيق الزواج فى المكتب الحكومى المختص، ويستمر دوره فى الأعياد ويكون الاحتفال بها فى فناء المسجد، ويحرص المسلمون على صلاة الجمعة والاستماع إلى خطبة الإمام. وللإمام دور آخر مهم فى الجنازات فهو يشرف على كل الإجراءات من الغسل والكفن والدفن وقراءة القرآن على القبر..

ومما يثير الحساسيات فى المجتمع الصينى تمسك المسلمين بعدم أكل ما لم يذبح بالطريقة الإسلامية وتحت إشراف الإمام ورفضهم لأكل لحم الخنزير، بينما يأكله سائر الصينيين ولذلك تنتشر «المطاعم الإسلامية». وبلغ من كراهية المسلمين للخنزير أنهم لا يطيقون سماع اسمه حتى إن قائد الجيش الأحمر أثناء ثورة ماو حذر جنوده من النطق بكلمة خنزير فى مجتمعات المسلمين..

❑ ❑ ❑

وخلال رحلتى فى الصين حاولت أن أرصد التغير الذى حدث فى أحوال المسلمين منذ عام ١٩٨١ عندما زارها فهمى هويدى وعام ٢٠٠١ عندما زرتها، وقد لاحظت أن أحوال المسلمين تغيرت، كما تغير كل شىء فى الصين.. وانعكست الدعوة إلى توسيع نطاق الحريات، وحقوق الإنسان فى دعم الحكومة الصينية للنشاط الإسلامى، وتعيين وزير مسلم فى الحكومة المركزية، وزيادة نصيب المسلمين فى الوظائف القيادية، والحرص على الآثار الإسلامية فى الصين.

وما تبقى من آثار عربية وإسلامية فى الصين نوعان: المساجد والمقابر، خاصة مقابر الأولياء والصالحين، وفى الصين ٦٠ مسجدا قديما يرجع تاريخها إلى بدايات ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى (بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر) ومن هذه المساجد أربعة هى الأقدم والأهم فى الساحل الجنوبى والشرقى، وهى مسجد «هوا يشنج» (الحنين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم) فى مدينة قوانجشو، ومسجد «الأصحاب» فى «شوانتشو» و«مسجد العنقاء» فى «هانجتشو» و«مسجد اللقلق» فى «يانجتشو»، وتجمع المساجد فى الصين بين مميزات العمارة الصينية كما تراها فى المعابد والقصور فهى من الخشب والقرميد والأسقف جمالونية وبلا مآذن واضحة، إنما أبراج قليلة الارتفاع، والمساجد بشكل عام بحالة جيدة، وكلها مستخدمة فى تأدية شعائر الصلاة..

أما مقابر المسلمين فى الصين فهى غالبا بجوار المساجد، وتبدو العناية الخاصة بأضرحة الأولياء والصالحين منهم، ولا تتوافر معلومات مؤكدة عن المدفونين فيها، وقد تم تنظيمها على شكل حدائق عامة، ولها قدسية عند المسلمين ويقال إن المسلمين الصينيين يحرصون على زيارة هذه المقابر ويؤدون بعض الطقوس أشبه بالحج.

فى مقاطعة «نيجسيا» مثلا مليون و٨٠٠ ألف مسلم وسكان المقاطعة كلهم ٤ ملايين ونصف مليون، وفى هذه المقاطعة ٢٠٠٠ جامع، وتتمتع بالحكم الذاتى وفى هذه المقاطعة مدينة اسمها«كونجشين» يطلقون عليها «مكة الصغيرة» تعبيرا عن أهمية الوجود الإسلامى. وفيها جامع كبير يرجع إلى القرن الثالث عشر..

وفى مقاطعة «فوجيان» عدة جوامع قديمة بقى منها «جامع الأصحاب» وتضم هذه المقاطعة آثارا عربية وإسلامية من مساجد ومقابر، خاصة فى مدينة «تشوانشو» التى كانت تجذب التجار العرب الأوائل على طريق الحرير البحرى منذ القرن السابع وحتى القرن الرابع عشر، وقد أطلق عليها الرحالة العربى ابن بطوطة اسم «زيتون».. وفى هذه المدينة أيضا «المقابر المقدسة» وتذكر الروايات الصينية أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الصين أربعة من الصحابة وأن أحدهم «أبو وقاص» دفن فى هذه المدينة ودفن الثانى فى مدينة «يانجوتشو» ومازال قبره مجهولا، بينما دفن الثالث والرابع فى هذه المقابر المقدسة، وهى عبارة عن حديقة مفتوحة للزوار، ويحج إليها الصينيون من مختلف الأنحاء للتبرك بضريحى الصاحبيين، وبدأت هيئة الآثار فى المقاطعة الإعداد لتوسيع الحديقة وبناء جامع فيها، وعلى مسافة ١٠ كيلو مترات مدينة «شين داى» وفيها جامع حديث ومتحف لتاريخ قومية «هوى» المسلمة.. وفى مدينة «شوانتشو» أيضا متحف بحرى حديث يشمل جناحا خاصا للآثار الإسلامية وجناحاً آخر يشمل الآثار التى تدل على تأثير الحضارة العربية والإسلامية فى هذه المنطقة..

وفى مقاطعة «شانسى» يوجد جامع شيان الكبير فى مدينة شيان عاصمة المقاطعة ويرجع تاريخه إلى منتصف القرن الثامن الميلادى وهو من أقدم المساجد فى الصين، مساحته ١٣ ألف متر وهو يجمع بين العمارة

الإسلامية والصينية ويتكون من ساحات واسعة وأروقة على الجانبين، وعدة مآذن وأبراج وبوابات، توصل فى نهايتها إلى قاعة الصلاة الرائعة وهذا الجامع مسجل على قائمة التراث الوطنى، وفيه العديد من الآثار الإسلامية.

وفى مدينة «شيان» ٦ مساجد أخرى قديمة يرجع تاريخها إلى الفترة بين القرن الثامن والقرن الرابع عشر الميلادى.

وحين زرت هذا الجامع الكبير لاحظت وجود عشرات من السياح، ولاحظت أنه يلقى رعاية المسئولين عنه، وعلى جدران قاعة الصلاة كتبت آيات القرآن الكريم باللغة العربية، والقاعة مفروشة بالسجاد الفاخر،وعلى بابها اثنان من خدم الجامع يمنعان الزوار من غير المسلمين من الدخول، وحين قلت لهما «السلام عليكم» تهلل وجه كل منهما وقالا: «تفضل».. وبعد أن قضيت وقتا فى الداخل لاحظت وجود صندوق كبير مكتوب عليه باللغة العربية «صدقات».

وهذا الجامع الكبير يقع فى الحى الذى يسكنه المسلمون وأعدادهم كبيرة فى مقاطعة شانسى وفى مدينة «شيان» بالذات، وفى الطريق إلى الجامع تمر من شارع يذكرك بخان الخليلى فى القاهرة..عشرات المحلات تفرش بضاعتها فى الخارج على موائد كبيرة تضم التحف الصينية والإسلامية المقلدة والمسابح والمصاحف،وكل الباعة تقريبا من النساء، وكلهن يغطين رؤوسهن، وتلمح فى وجوههن ملامح عربية وفيهن سماحة وهدوء ولا تسمع الصياح التقليدى الذى تسمعه فى الأحياء الشعبية الصينية،وبعد هذا الشارع تسير فى شوارع مليئة بالمطاعم مكتوب عليها بالعربية والصينية «مطعم المسلم» أو «أطعمة إسلامية».

□□□

وفى مقاطعة «جيانجسو» مدينة من أهم المدن اسمها «يانجو» تضم تجمعات وآثارا إسلامية على ساحل الصين الشرقى، وكانت هذه المدينة

مثل مدينة «شوانتشو» من المدن المهمة المرتبطة بطريق الحرير البحرى، وفى هذه المدينة ضريح كبير يقولون إنه يضم رفات أحد الصحابة الأربعة الذين أرسلهم الرسول صلى الله عليه وسلم وفيها أيضا ضريح التقى بهاء الدين، ويقولون إنه الحفيد السادس عشر للرسول صلى الله عليه وسلم. ويقولون أيضا إنه دفن فى عام ١٢٦٥ وأنه هو الذى شيد جامع «اللقلق» وهو من أهم الجوامع المعروفة فى الصين، وإلى جانب الضريح عدد من قبور الصالحين..

ويجرى الآن الإعداد لإقامة متحف ثقافى إسلامى كبير فى مدينة «شوانتشو» وهى مدينة جميلة لها ميناء كبير على الساحل الجنوبى الشرقى للصين، وكانت مشهورة فى العصور الوسطى كأحد جسور الاتصال مع العالم الإسلامى وسماها ابن بطوطة مدينة الزيتون، ويذكر التاريخ أن عشرة آلاف من المسلمين العرب وصلوا إلى هذه المدينة عبر الطريق الشاق الطويل بين القرن السابع والقرن الرابع عشر وجلبوا معهم البخور والعطور والتوابل والأدوية وعادوا بالحرير والفخار والخزف، وفتحوا بذلك الطريق البحرى لتبادل التجارة بين الصين والدول العربية، وهذا هو ما يطلق عليه اسم «طريق الحرير البحرى» وكان لهذا التبادل التجارى تأثير كبير على الصين، خاصة بعد أن استقر بعض التجار العرب فى المدينة ولقوا نفس المعاملة التى يلقاها المواطنون من أبناء الصين، وتزوجوا من صينيات وساهموا فى ازدهار المدينة..

وفى هذه المدينة أضرحة لأولياء صالحين من المسلمين واكتشفوا لوحات حجرية مكتوب عليها آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وفيها أيضا مسجد الأولياء على الطراز العربى فى شارع تجارى وسط المدينة..

وسوف يقام المتحف الثقافى الإسلامى على الطراز العربى وأعد التصميم البروفيسور يانج هونجتشيون ويتكون من خمسة أدوار بما فيه المئذنة، ويشمل الدور الأول تمثال ابن بطوطة الرحالة العربى المشهور وصالة عرض

اللوحات الحجرية المنحوتة بالخط العربى، وكافيتريا ومحلاً لبيع التحف، وحديقة زهور، وصالة استراحة وورشة لترميم الآثار. ويشمل الدور الثانى صالة عرض للآثار الإسلامية وصالة أخرى لعرض العادات والتقاليد واستراحة، وفى الدور الثالث مكتب لمدير مركز الدراسات الإسلامية ومكتب الخبراء ومكتبة للاطلاع وقاعة للندوات وغرفة استقبال ومصلى ومكتب الإمام، ويشمل الدور الرابع قاعة محاضرات، وقاعة اجتماعات ومعرضا تجاريا ويشمل الدور الخامس مئذنة وغرفة للمعدات الكهربائية، وهذا المتحف سيكون من المعالم السياحية فى الصين..

❑ ❑ ❑

وعندما زرت مدينة شنغهاى لم أكن أعرف أن فيها ٥٠ ألف مسلم، وفيها ٧ مساجد يرجع تاريخ إنشائها إلى عصور مختلفة، ولذلك فهى تحمل الطراز المعمارى لكل عصر من العصور التى توالت على الصين، فمثلا مسجد «سونجيانج» تحيط به حديقة من الطراز الصينى القديم، ومسجد زياو تويوان هو مسجد حديث أنشئ عام ١٩٢٥ وبعد سياسة الانفتاح على العالم وسياسة إطلاق حرية الاعتقاد الدينى، أعيد بناء جامع هوزى وجامع بودونج بدعم مالى من الدولة،وفى شنغهاى عشرات المطاعم التى تقدم اللحوم المذبوحة طبقا للشريعة الإسلامية وتحرّم دخول لحم الخنزير أو استخدام شحومها فى الطهى على عادة الصينيين. ولأن شنغهاى مدينة مفتوحة ويتعايش المقيمون فيها من كل الجنسيات وكل الديانات وكل القوميات، فإن المسلمين يتمتعون فيها بالمساواة والحرية الدينية ويشاركون فى الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية. وشنغهاى هى أهم ساحة ثقافية حرة فى الصين، وتتميز جامعاتها بالانفتاح وحرية التفكير، كما يتميز أساتذة هذه الجامعات بالاندماج فى الأنشطة الأكاديمية فى جميع دول العالم تقريبا، وقد أنشئت فيها «رابطة شنغهاى الإسلامية» فى عام ١٩٦٢

وهى تنظم الاتصالات والتبادل الثقافى مع المؤسسات الإسلامية فى الدول العربية والإسلامية..

وتعليم الدين الإسلامى فى الصين يتم عن طريقين: الأول فى المساجد حيث يتولى إمام المسجد تعليم الأطفال مبادئ الدين الإسلامى والقرآن والعبادات، والثانى هو طريق المدارس الإسلامية التى ظهرت مؤخرا، والتعليم فى المساجد هو الأسلوب التقليدى القديم، ويتم باللغات العربية والفارسية والصينية ويسكن المسلمون عادة حول المساجد فى القرى والمدن، وهذا الأسلوب يتفق مع الأسلوب القديم لتعليم الدين فى البلاد العربية والتعليم التقليدى القديم فى الصين، وهو لذلك أنسب أسلوب يلائم الصينيين. لأن التعليم فى المساجد مفتوح لكل من يريد ولا يتقاضى الإمام أجرا على عمله فى تعليم الدين واللغة العربية لكى يقرءوا القرآن ويدرس لهم التوحيد وقراءات مختارة من كتب العقيدة والفقه ويعلمهم الوضوء والصلاة، وفى مستوى التعليم الجامعى يلتحق الطلبة بالمساجد أيضا ويدرس لهم الإمام منهجا فى العقيدة والأخلاق لمدة ٦ سنوات يشمل المنهج مرحلتين: المرحلة الأولى الأساسية يدرس فيها الطالب اللغتين العربية والفارسية والمنطق، والمرحلة الثانية المتخصصة تشمل التفسير والحديث وعلم الكلام والشريعة والفلسفة الصوفية. وهذه المناهج مقررة فى ١٣ كتابا، وبعد إتمام الدراسة يحصل الطالب على شهادة من الإمام ليصبح الخريج إماما فى أى مسجد، وفى فترة العشرينات والثلاثينات ظهر نوع جديد من التعليم الإسلامى الحديث على أيدى بعض كبار المثقفين والقادة الاجتماعيين من المسلمين، فنشأت مدارس إسلامية فى بكين، وشنغهاى، وجينان، ويومان، ونجزيا، ومدن أخرى تجمع الدراسة فى هذه المدارس بين دراسة العلوم التى يدرسها الطلبة وفق مناهج التعليم الرسمية، بالإضافة إلى العلوم الإسلامية، وأرسلت بعثة من خريجى هذه المدارس لاستكمال الدراسة

فى المدارس والجامعات فى الدول الإسلامية وعندما عادوا كان لهم دور كبير فى تطوير الدراسات الإسلامية فى الصين، وظهرت «المدرسة العليا القومية الإسلامية» و«معهد الصين الإسلامى» الذى أنشئ سنة ١٩٥٥ الذى يدرس منهج العلوم الإسلامية ومنهج العلوم الأخرى المقررة فى المعاهد المماثلة فى هذا المعهد عدة تخصصات ودراسات، فهو يمنح شهادة «البكالوريا» وفيه قسم لتدريس طرق البحث فى العلوم الإسلامية وقسم لتعليم الطلبة الوافدين من خارج الصين وقسم لإعداد وتدريب الأئمة،وتشمل المناهج دراسة الجغرافيا والتاريخ والسياسة والعلوم الاجتماعية، ودراسة نصوص إسلامية. وبعد إتمام الدراسة فى هذا المعهد يصبح الخريجون مؤهلين للعمل أئمة فى المساجد، وتدريس العلوم الإسلامية، والآن فى الصين ٩ معاهد إسلامية من هذه النوعية الجديدة فى بكين ومدن أخرى.

❑ ❑ ❑

وخلاصة ما وصلت إليه من بحثى عن حقيقة أوضاع المسلمين فى الصين أن تاريخهم ملئ بمراحل من الاضطهاد ومراحل تمتعوا فيها بالحرية الدينية، وهم فى النهاية أقلية يسرى عليهم ما يسرى على الأقليات، وهم يتمتعون الآن بقدر معقول من الحرية الدينية، وتظهر فى إقليم «سنكيانج» دعوات ومحاولات للانفصال تقابل بالشدة من جانب الحكومة الصينية التى تقاوم بكل قوة آية دعوة للانفصال، وتتفجر من حين لآخر أحداث عنف نتيجة احتكاك الطوائف الأخرى بالمسلمين، ولكنهم فى النهاية جزء لا يتجزأ من الصين .

❑ ❑ ❑

ويبقى أن نسأل: هل قدمت الدول الإسلامية ما يكفى من معونة ودعم لمسلمى الصين؟.. إنهم يحتاجون إلى مساعدات كبيرة فى مجال التعليم

الدينى بالذات لدراسة العلوم الإسلامية واللغة العربية من مصادرها الأصلية، ولكى يتخلصوا من الأفكار والشوائب والأساطير التى تسربت إلى المفاهيم الإسلامية من عقائد وأفكار غريبة عليه، كما يحتاجون إلى مساعدات كبيرة لترجمة المراجع الإسلامية الأساسية إلى اللغة الصينية، وهذه عملية كبيرة تحتاج إلى جهود وأموال فوق طاقتهم، ويحتاجون أيضا إلى توجيه الدعوات لأكبر عدد منهم لزيارة الدول الإسلامية والتعرف على أحوال المسلمين والاقتراب منهم لكى يشعروا بأن لهم عمقاً إسلامياً يساندهم ويتعرفوا على الفكر الإسلامى الصحيح..

ومثل هذه الواجبات لم تنل من الحكومات والمؤسسات الإسلامية ما تستحق حتى الآن، وما تقدمه الآن من مساعدات مشكورة لا تتناسب مع حجم وطبيعة وظروف المسلمين فى الصين.

الصين والعولمة

تعتبر الصين الآن النموذج للجمع بين الإندماج فى العولمة والاحتفاظ بالهوية القومية فى نفس الوقت، بعد أن أصبحت العولمة حقيقة من حقائق هذا العصر، وأمرًا واقعًا لا يمكن الفرار منه، ومهما قيل عن الآثار السلبية للعولمة، وعن مخاطرها على الكيانات الوطنية، فلن تستطيع دولة الخروج عن هذه الكرة الأرضية التى أصبحت تحكمها العولمة.

والسائد عن العولمة أن الجانب الاقتصادى منها سيؤدى إلى زيادة غنى الدول الغنية وزيادة فقر الدول الفقيرة، ولن تكون أمام الدول المتخلفة بعد ذلك فرصة للبدء فى تنمية حقيقية، وسيكون الخيار الوحيد أمامها أن تقبل التبعية وترضخ لشروط القوة العظمى الوحيدة التى تقود النظام العالمى الجديد وتقود منظمة التجارة العالمية، وتقود أيضًا المنظمات الدولية المعبرة عن الشرعية الدولية مثل الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن، وكل هذا صحيح إلى حد كبير، ولكن هناك حقيقة أخرى وهى أن العولمة تضع معايير وقيم وضوابط للإنتاج الصناعى والزراعى ونظم الجمارك والضرائب والتشريعات والممارسات المتعلقة بالديمقراطية وحقوق الإنسان، والدول التى تستطيع توفيق أوضاعها مع هذه المعايير والقيم ستجد لنفسها مكانا فى إطارها، أما الدول التى لن تستطيع ذلك فستجد نفسها مهمشة، وخارج التاريخ.

والصورة السيئة للعولمة جاءت نتيجة الشعور العام فى الدول النامية بأن الغرب يفرض على جميع الدول ثقافته، على حساب هزيمة الثقافات الأخرى، وعزز هذا الشعور النظرية الجديدة التى واكبت ظهور العولمة عن صراع الثقافات وهى نظرية لقيت رواجًا يلفت النظر، يضاف إلى ذلك أن

فرض الثقافة الغربية يمثل عدوانا على حقوق الشعوب الأخرى فى الاحتفاظ بثقافتها وهويتها، والثقافة الغربية ثقافة مادية وعدوانية فى نظر أصحاب الثقافات الأخرى مثل الثقافة الإسلامية وثقافة الصين والثقافات الأفريقية. وحتى عندما يدير الغرب حوارًا مع أصحاب الثقافات الأخرى فإنما يتحدث من موقع القوة والسيطرة والقدرة على فرض الإرادة وكسر إرادة الآخرين، وتبدو حوارات الغرب مع الدول النامية على أنها حوارات الأغنياء، الأقوياء، القادرين على تغيير الواقع الاجتماعى والروحى لكل الدول والشعوب فى العالم غير الغربى.

والصين حددت موقفها من العولمة بعدم الرفض، أو الاستنكار، ولكن بدخول هذه الحلبة الجديدة بشروطها هى وليس بشروط الآخرين.. فهى تقبل تغيير أدوات الإنتاج والتكنولوجيا لتساير منتجاتها قانون السوق والمنافسة الحرة فى عالم تزول فيه أسوار الحماية للمنتجات وتسقط أسوار العزلة عن جميع الدول، وتقبل تغيير مناهج التعليم لتساير المستويات العالمية، وتقبل تغيير نظم الإدارة والتشريعات ونظم الضرائب والجمارك، وتقبل المفهوم العالمى للديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات الدينية، ولا تشترط إلا أن يكون ذلك بما لا يؤدى إلى تهديد الاستقرار ووحدة البلاد، وفى غير ذلك فهى تعمل على الاحتفاظ بالخصائص المميزة لها وبالروح الصينية.. والروح الصينية - كما قال عنها الأستاذ محمد حسنين هيكل - هى روح التنظيم الموجودة فى عقيدة الصين التاريخية الأولى، وهى تعاليم «كونفوشيوس» وهذه التعاليم فى حقيقتها مجموعة قواعد الأخلاق والسلوك، وضعت أسسًا راسخة لاحترام المسئوليات على كل المستويات، ومجتمع الصين كما قال ادجار سنو وهو من أشهر الدارسين لشئون الصين: «هو بالطبيعة مجتمع نهر، ولذلك فهو محتاج دائما إلى حكومة مركزية قوية، ويضاف إلى ذلك أن الحضارة الصينية لم تنقطع طوال التاريخ ولم تنكسر رغم هزيمة الصين وخضوعها للاحتلال العسكرى والاقتصادى

فترات طويلة، واستمرار الحضارة كان الضمان لاستمرار وحدة الأمة، كما أن اللغة الصينية ظلت وعاء الوعى والضمير والمشاعر، ويضاف إلى ذلك أن الصينى ظل - ومازال - يعتقد أن الصين هى قلب الكون، واسم الصين فى اللغة الصينية هو «شونج كو» وترجمتها «الملكوت المركزى» ومن هنا فإن هوية الصين هى شعب الصين، وهذا ما يفسر أن المهاجرين من أبناء الصين فى أوربا والولايات المتحدة لا يعتبرون أنفسهم مهاجرين ولكن يعتبرون أنفسهم فى مهمة خارج الصين.

وروح الصين كانت أقوى من الاستعمار الذى فرض الإذلال على الشعب الصينى فى حرب الأفيون، وكانت روح الصين أيضا أقوى من ماركس وانجلز ولينين وستالين.. عندما بدأ ماوتسى تونج تطبيق النظرية الصينية استجاب للطبيعة الصينية أكثر مما استجاب لنظريات وتطبيقات هؤلاء الرواد للماركسية، وطبق ماو الماركسية بما يلائم ظروف الصين، وهذا ما يحدث اليوم، فالصين تحولت إلى نظام اقتصاد السوق ولكنها تطبقه وفقا للخصائص الصينية.

والظاهرة التى تلفت نظر زائر الصين اليوم هى ذات الظاهرة التى لفتت نظر الأستاذ هيكل فى زيارته لها عام ١٩٧٣، وهى أن الخط الفكرى الصينى واضح من القمة عند الزعيم سواء كان الزعيم هو ماوتسى تونج أو ديانج شياو بنج أو جيانج زيمن، إلى أى عامل فى مزرعة أو مصنع، هذه الوحدة فى الخط الفكرى واتصاله بين القيادة والقاعدة، ترجع - كما رأى الأستاذ هيكل - إلى أن التجربة أمام الإنسان الصينى ناجحة، وأن القيادة فى الصين قدوة، والناس يتقبلون حينما يشعرون أن الذين يدعونهم إلى شىء يطبقونه أولا على أنفسهم، ونتيجة لذلك ظلت الثقة قائمة بين القاعدة والقمة، الثقة فى إخلاص القيادة، والثقة أيضا فى قدرتها وحكمتها، فضلا عن أن جميع القضايا تطرح للمناقشة داخل الحزب، وعلى كل مستوياته،

فتصبح عند صدورها معبرة عن رأى الجماهير الواسعة، ولا تكون أوامر من أعلى كأنها قنبلة هاوية من السماء، أو انفجار مفاجئ تحت الأقدام مثل لغم كان مدفونا فى الأرض، ويضاف إلى ذلك أن العقائد لا تعطى للجماهير كأنها كتل حجر، وإنما تترجم العقائد إلى تصرفات عادية وإنسانية بسيطة للغاية قادرة على النفاذ داخل أى تصور، وأخيرًا فإن خطوط الاتصالات ولغة الاتصالات بين القمة والقاعدة فى الصين مازالت حية وقوية من أثر التجربة الثورية الطويلة التى تجعل «الثلاثة فى واحد» كما يقولون فى الصين، أى الحزب، والجيش، والحكومة.

هكذا رأى الأستاذ هيكل فى عام ١٩٧٣ روح الصين التى أدت إلى وحدتها وقوة تماسك شعبها ، وهكذا رأيتها كذلك أيضا فى عام ٢٠٠١ كما هى لم تتغير كثيرا. وهذا ما يجعل الصين قادرة على الاحتفاظ بكيانها القومى، وخصائصها الحضارية والروحية وهى تندمج فى العالم دون أن تخشى الذوبان. وما يظهر من تقليد السلوك الغربى - فى اعتقادى - هو أمر عادى ومحدود على السطح لا يمثل تغييرا جوهريا فى طبيعة وروح الصين.

ولازالت القسمات البارزة فى سياسة الصين تجاه العالم الخارجى هى نفس السياسة التى تحدث عنها الأستاذ هيكل.. فالصين مازالت - كما كانت دائما - صبورة جدا، عملية جدا فى صبرها، لا يستفزها شىء، من ذلك مثلا أنها قبلت بوجود قطعة منها وهى هونج كونج مستعمرة من مستعمرات بريطانيا بينما كانت قادرة على تحريرها إلى أن عادت إليها هونج كونج، ومكاو، وغدا ستستعيد تايوان بنفس الطريقة..

والصين تحسب خطواتها بدقة، وتتعلم فى هدوء من تجاربها وتجارب غيرها، ولا تدخل معركة مهما كانت محاولات جرها إلى المعركة، وتراهن على أن حركة التاريخ لصالحها ولصالح الشعوب.. لذلك كانت مفاجأة للعالم ولم تكن مفاجأة للصين حين ذهب أول رئيس للولايات

المتحدة (ريتشارد نيكسون) إليها حاملا اعترافه بها، وحين ذهب رئيس الوزراء اليابانى (تاناكا) إليها حاملا اعتذار بلاده.

والصبر عند الصين ليس موقفا سلبيا، ولكنه مرتبط بالعمل واكتساب مزيد من عوامل القوة، ومع الوقت يتحقق لها النصر بدون حرب.. وحتى عندما رفضت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية أن يكون للصين مقعد دائم فى مجلس الأمن، وقال الرئيس الأمريكى وقتها (فرانكلين روزفلت): أى مستقبل يمكن أن يكون للصين؟.. وأى دور يمكن أن تؤديه فى العالم الجديد؟.. إلا أنها برغم ذلك حصلت على مقعد دائم فى مجلس الأمن.

والصين وإن كانت قد قبلت الدخول فى منظمة التجارة العالمية وأعدت نفسها للعولمة بمفهومها الواسع، مازالت حريصة على أن تكسب وقتا تستكمل فيه بناء قوتها.. وقد أصبحت لديها قوة نووية.. وقدراتها الاقتصادية فى نمو سريع..

ولكى تضمن أن يكون الوقت لصالحها أنهت حالة العداء القديم مع الاتحاد السوفيتى ووقعت معاهدة مع روسيا، وفى نفس الوقت فإن علاقاتها الاقتصادية مع الولايات المتحدة تنمو بسرعة أيضا بالرغم من أن العلاقات المتزايدة بين الولايات المتحدة والصين هى أغرب العلاقات بين القوى فى هذا العصر - كما قال الأستاذ هيكل (بينهما عقائد مختلفة، وحضارات متباعدة، ومصالح متعارضة حتى الأمس القريب) وكذلك أصبحت علاقات الصين واليابان طبيعية مع ما فيها من رواسب الماضى حين كانت اليابان تحتل الصين وكان احتلالها أبشع احتلال، ولكن الصين مازالت تأخذ بالحكمة التى أرساها ماوتسى تونج والتى تقول: «افتحوا كل الأبواب. أن الذين كانوا أعداءنا قد يتخذون موقفا أكثر اعتدالا، والذين كانوا معتدلين قد يصبحون أصدقاء، والذين كانوا أصدقاء سوف يتأكد ويتقرر موقفهم معنا».

والصين تعمل على أساس أن النظام العالمى الجديد لم يستكمل تشكيله، ولم يصل إلى صورته النهائية، ومازال هناك فراغ فى هذا النظام الدولى، ولا يعبر حتى الآن عن القوى الاقتصادية التى نتجت عن العولمة، ولايزال مجلس الأمن معبرا عن الحالة الدولية كما كانت بعد الحرب العاليمة الثانية، وأن صندوق النقد الدولى - أحد المعالم الهامة للعولمة - لم يشمله الإصلاح ولم يخرج عن سيطرة الولايات المتحدة عليه، ومازال يفرض الشروط القاسية على الدول مقابل القروض، كما أن الدول الصناعية الثمانية ليست إلا تعبيرًا عن صورة جديدة لعصبة الأمم القديمة، والفجوة القائمة على المستوى العالمى تعكس آثارها على آسيا فى القرن الحادى والعشرين وعلى العالم، والخروج من هذا الحصار يتمثل فى نجاح كل دولة فى التنمية والوصول إلى صيغة ناجحة للتعاون مع جيرانها على المستوى الإقليمى.

ولقد شهد العالم ثورتان تفرضان وجود التعاون الإقليمى كضرورة للدخول فى العولمة، الثورة الأولى هى الثورة فى أساليب الإنتاج وحرية انتقال رؤوس الأموال عبر الحدود، والثانية هى ثورة المعلومات وسرعة انتقالها وتدفقها حول الكرة الأرضية دون عوائق وفى لحظات.. وهاتان الثورتان هما فى نفس الوقت من أقوى الضغوط على الدول. والحل هو تقوية الكيانات الإقليمية، ولذلك تشارك الصين بقوة فى منظمتى ابيك (APEC) التى تضم القوى الاقتصادية الكبرى (الولايات المتحدة والصين واليابان)، والآسيان (ASEAN) التى تضم دول الهند الصينية. وإذا كان انتهاء الحرب الباردة قد سهل التعاون الاقليمى فإن قوى العولمة جعلت هذا التعاون ضرورة لكل الدول لحماية نفسها من الذوبان أو الخسارة فى طوفان العولمة.

ومع العولمة يتزايد سوق «البيزنس» وعمليات الإنتاج عبر الحدود، وتجد الحكومات نفسها تحت ضغط متزايد من الشركات العابرة للحدود، ونتيجة

لسرعة وزيادة التدفقات المالية تواجه المؤسسات القومية صعوبات فى المراقبة والتحكم وتحصيل الضرائب والحقوق، فضلا عن المشاكل التى ازدادت مع العولمة والشركات العملاقة العابرة للقوميات مثل مشاكل البيئة، والأمن، والإرهاب، وهى مشاكل تؤثر وتضغط على الحكومات ولا تتأثر بها هذه الشركات التى لا يهمها إلا تحقيق الربح ولا تعنيها النتائج أو الخسائر التى تسببها للدول التى تعمل فيها. وهذا يؤيد ضرورة وجود كتابات أقليمية قوية للوقوف أمام هذه الشركات الكبرى، خاصة مع تراجع دور الأمم المتحدة ومنظماتها وسيطرة قوة واحدة عليها. ولا يملأ الفراغ الناتج عن الخلل فى المنظمات العالمية إلا المنظمات الإقليمية التى يمكن أن تتحرك بسرعة أكبر من المنظمات العالمية، لحل مشاكل ومواجهة قضايا قد لا تهم المجتمع الدولى بأسره.

ومع حرص الصين على المنظمات الإقليمية إلا أن هذه المنظمات لم تصل إلى الدرجة التى وصل إليها الاتحاد الأوربى، وربما يكون ذلك بسبب اختلاف مستويات القوة والنمو فى الدول الآسيوية وتقارب مستويات النمو فى الدول الأوربية.

وللصين دور كبير فى كل المنظمات الإقليمية فى آسيا، وأن كانت الدول الآسيوية تشكو من أن الصين هى التى تجذب النصيب الأكبر من الاستثمارات الأجنبية حتى وصل نصيبها ٨٥٪ من هذه الاستثمارات بينما لم تحصل دول آسيا مجتمعه إلا على ١٥٪ فقط، وهذا ما يجعل الدول الآسيوية الصغيرة تقول أن المنظمات الإقليمية ليست إلا صورة من المنظمات العالمية للأقوى والأكبر النصيب الأكبر دائما. وأن كانت الصين قد مارست دورًا قياديًا إيجابيًا فى الأزمة المالية الآسيوية، وقدمت العون لصندوق النقد الدولى رافضة انتهاز الفرصة لتحقيق مكاسب لها على حساب جيرانها، وفعلت العكس، إذ شاركت فى تقديم مساعدة مالية لها، وبذلك تأكدت

زعامة الصين فى آسيا، كما تأكدت صحة النظرية الصينية بأن نماذج التنمية فى شرق آسيا لا تناسبها، وأنها كانت على صواب عندما اتخذت لنفسها طريقا خاصا للتنمية وللعلاقات الدولية.

ويمثل دخول الصين أخيرًا فى منظمة التجارة العالمية القبول لتحديات العولمة والاستعداد للوقوف فى المنافسة العالمية والاستعداد لتقديم نموذج تنافسى يحقق زيادة الانتاج، وتخفيض الأسعار، وزيادة فرص العمل ودخول العمال، واقتحام الأسواق العالمية والدعوة إلى المزيد من التجارة العالمية الحرة.

هكذا تدخل الصين العولمة بوعى بطبيعة هذه الموجة الجديدة التى لا يمكن تفاديها أو الهروب منها، ولكن يمكن التعامل معها، والاستفادة منها، وتفادى سلبياتها ومخاطرها بقدر الإمكان، كما يمكن الاحتفاظ بروح الصين وشخصيتها القومية وتراثها الحضارى.

والصين قادرة على تحقيق هذه المعادلات الصعبة، يساعدها على ذلك طبيعتها وتركيبها السكانى وهما مصدر ضعف ومصدر قوة فى نفس الوقت، فالصين تضم ٥٥ مجموعة عرقية، ويمثل عرق الهان (HAN) غالبية السكان، ومساحتها ٩ ملايين ونصف مليون كيلو متر مربع، وتضم ٢٣ مقاطعة، و ٥ أقاليم حكم ذاتى، و ٤ بلديات، بالإضافة إلى أقليم إدارى خاص فى هونج كونج وآخر فى مكاو، وحدود تبلغ ٢٢ ألف كيلو متر بينها وبين ١٤ دولة هى: أفغانستان، وبوتان، وبورما، والهند، وكازاخستان، وكوريا الشمالية، وقيرغيزستان، ولاوس، ومنغوليا، ونيبال، وباكستان، وروسيا، وطاجيكستان، وفيتنام. وهذه الخريطة تفرض عليها.

والصين تحتل اليوم المرتبة السابعة فى العالم من حيث حجم الاقتصاد، والمرتبة التاسعة فى التجارة العالمية، وهى أكبر دولة نامية تجذب الاستثمارات الأجنبية وساعدها ذلك على تنفيذ برنامج التحديث ودفع التنمية الاقتصادية، وقد استعدت للعولمة بتوسيع الطلب الداخلى، والإسراع

فى بناء المرافق والبنية الأساسية، وتشجيع التصدير، وجذب الأموال والبنوك الأجنبية، وتعديل الهيكل الاقتصادى، وحافظت على استقرار عملتها مع الظروف الصعبة التى مرت بالعالم وبدول آسيا بوجه خاص، وتمضى فى سياسة إصلاح الأجهزة الإدارية.. بذلك تدخل منظمة التجارة العالمية لتجنى من وراء ذلك زيادة مواردها، والحصول على ظروف تجارية واقتصادية مستقرة، وبتسهيلات التجارة والاستثمار الدولى.

ولن تستطيع رياح العولمة اقتلاع جذور الكنفوشية من الصين، وهى التى يعتبرونها جوهر الروح والشخصية الصينية، ومبادئ الكنفوشية قائمة على الطاعة، واحترام الكبير للصغير، والالتزام بالتعليم، وتقديس الأسرة، وإدارة الأمراء لشئون الحكم وفقا للأخلاق والعدل والاستقامة، والكنفوشية فيها نزعة للزهد، والدعوة إلى خدمة الآخرين، ولذلك يقولون فى الصين: «ليس المهم أن تكون الكعكة كبيرة، المهم أن تقسم الكعكة على الجميع بالعدل».. والكنفوشية أيضا هى سر الروح الجماعية فى الصين وكراهية النزعة الفردية، والشراهة.

وقد اعتاد الغرب على القول بأن نظام الحكم فى الصين نظام دكتاتورى دون إشارة إلى التغير الذى يحدث فى مجلس الشعب من معارضة واستجوبات.

كما اعتاد الغرب على القول بأن الصين تضطهد أصحاب الديانات دون إشارة إلى ما يحدث الآن من التعايش بين العقائد، الإسلام، والمسيحية، مع البوذية، والطاوية، واعيد فتح دور العبادة جميعها دون استثناء، وروادها الآن ليسوا من كبار السن فقط بل من الشباب والمثقفين ورجال الأعمال، وأصبحت المساجد تمتلئ بالمصلين يوم الجمعة فى مناطق تجمعات المسلمين، ويتم افتتاح كنائس جديدة باستمرار، وربما كانت الفكرة الغربية عن الاضطهاد الدينى فى الصين راجعة إلى الفترة الماضية التى كانت الحكومة

فيها تعتبر الدين أفيون الشعوب. وقد تغيرت هذه النظرة، وأصبحت الدولة تنظر إلى الدين على أنه عنصر هام فى بناء الاخلاقيات الاجتماعية والشخصية ويمكن أن يكون عنصرا من عناصر الحفاظ على الهوية. ورفض الذوبان فى الثقافات الأخرى بتأثير العولمة .

وإن كانت تعاليم كنفوشيوس هى الأكثر تأثيرا فى الشعب الصينى فهى تعاليم تحض على الفضيلة، وتدعو كل فرد لأن يكون قدوة لأسرته وللآخرين، وعلى الإنسان أن يحسن حكم نفسه أولا قبل أن يسعى إلى حكم الآخرين، كما تدعو كل فرد لأن يعمل للناس ما يحب أن يعمله الناس له، وأن يكرس نفسه لخدمة غيره وبذلك يكون قد وصل إلى الحكمة.

وتعاليم كنفوشيوس الراسخة فى الضمير الصينى هى سر التماسك داخل الأسرة الصينية بمختلف أجيالها، وطاعة الأبناء لآبائهم، وهى سر «الاعتدال» فى كل شىء، فى الطعام والانفاق والعلاقات، وهى سر التواضع والحياة البسيطة.

وكنفوشيوس هو القائل: «إن التاجر الناجح يخفى ثروته بحرص، ويعمل كما لو كان لا يملك شيئا.. والرجل العظيم بسيط فى سلوكه ومظهره.. وعليك أن تتخلى عن كبريائك، واطماعك، وعن المظاهر.. فلن تفيدك شيئا.. وهذه هى نصيحتى إليك».

ويروى عن كنفوشيوس أنه كان يسير مع تلاميذه فى بقعة قاحلة موحشة، فوجد امرأة عجوزا تبكى أمام قبر، وحين سألها عن سبب بكائها قالت له: أن النمور قتلت حماها وزوجها وابنها وأصبحت وحيدة، فسألها: ولماذا قرروا الحياة فى هذه البقعة الموحشة، ولماذا بقيت بعد أن واجهت غزو الوحوش، أجابت: لأنه لا توجد هنا حكومة جائرة، فالتفت كنفوشيوس إلى تلاميذه وقال لهم: «اكتبوا هذا.. إن الحكومة الجائرة أكثر وحشية من وحوش البرارى».

وتروى الكتب الصينية أن كنفوشيوس حين أصبح رئيسا للوزراء فى مرحلة من مراحل حياته «كان الغش والفساد يتواريان خجلا، وصار الصدق والنزاهة والاستقامة من خصال الرجال، والطهر ودماثة الأخلاق من صفات النساء، وازداد قدوم الأغراب إلى الولاية من الولايات الأخرى، وصار كنفوشيوس معبود الناس». ولكن الحكام الطغاة المستبدين فى الأقاليم الأخرى وجدوا أن كنفوشيوس خطر عليهم، لأن مواطنيهم يطالبونهم بأن يفعلوا معهم مثل ما يفعل كنفوشيوس مع قومه، وخشى هؤلاء الحكام أن تنتشر عدوى النزاهة والأمانة فى بلادهم، فحاكوا مؤامرة أفسدت العلاقة بينه وبين الحاكم، فطرده، وخرج كنفوشيوس يتجول فى الأرض ثلاثة عشر عاما.. وتقلب بين السلطة والاضطهاد.. ولكنه يظل يؤمن بمبادئه، وبأن اليأس هو أكبر الخطايا.

هكذا كان كنفوشيوس الذى يعتبرونه رسول التوازن والطريق الوسط وتحمل الصعاب ، والصبر على المكاره ، والتمسك بالفضيلة فى كل الأحوال..

وهكذا نفهم الصين اليوم وغدا.. حين نحسن فهم تعاليم ومبادئ كنفوشيوس وهى روح الصين التى لن تذوب فى محيط العولمة..

المحتويات

الموضوع	الصفحة

صدر للمؤلف

كتب الجوائز

الأقباط فى مصر والمهجر

المصريون فى المرآة

كتاب الساعة

الغرب والإسلام

وكذلك

تاريخ ليس للبيع

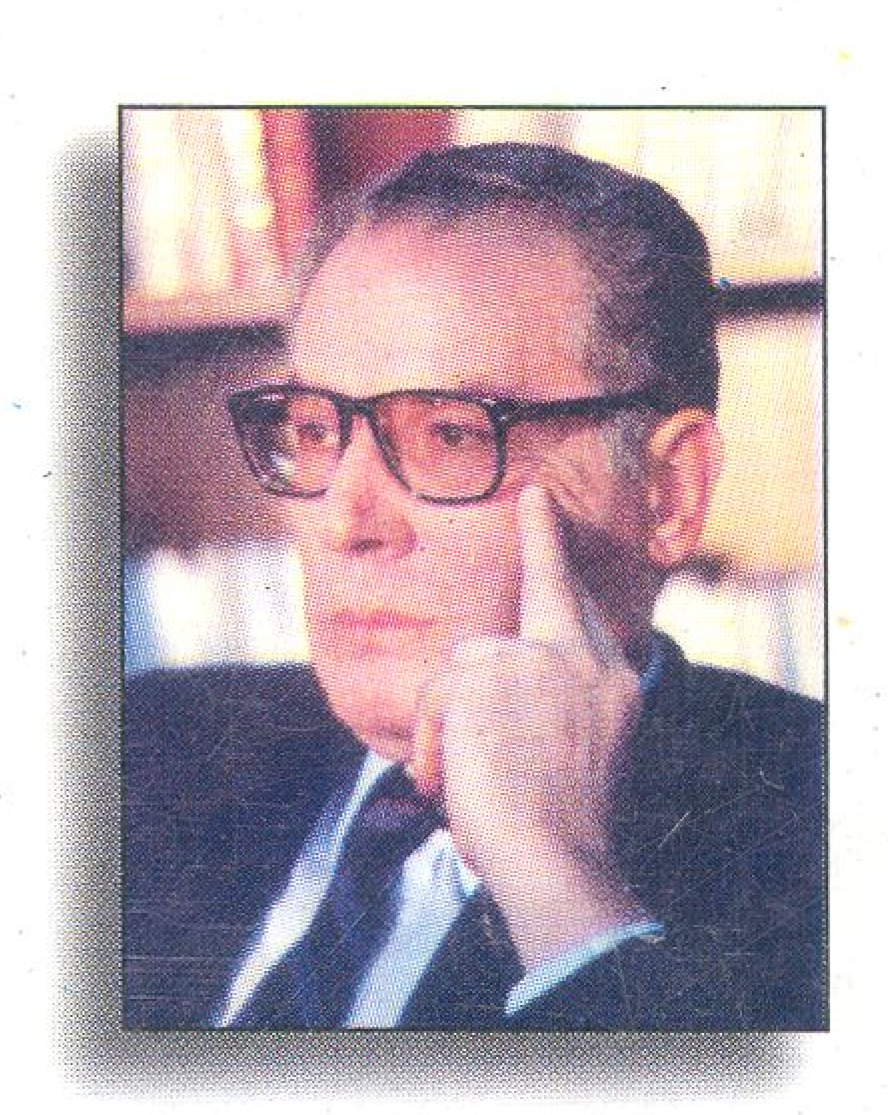
الأمية الدينية والحرب ضد الإسلام

معجزات الخلق والخالق

رقم الإيداع		٢٠٠٢/٣٣٦٧
الترقيم الدولى	977-02-6257-9	ISBN

١/٢٠٠١/٨٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



هذا الكتاب محاولة لاكتشاف السر فى التقدم الهائل الذى حققته الصين اقتصاديا واجتماعيا ، ويبدو فى عيون البعض معجزات ، وفى عيون البعض الآخر ثورة حضارية ، وتجربة نادرة فى التنمية ، والتقدم التكنولوجى ، والعلمى وبناء الإنسان .

وفى هذه الرحلة أتيح لى أن أجمع بين الدراسة ، والمشاهدة ، ولقاء عدد من القادة والمسئولين .

والصين تستحق الاهتمام من كل مصرى ، ومن كل عربى ، لأنها أقرب إلينا من غيرها من الدول المتقدمة ، ويمكن أن نتعلم منها الكثير .

والكتاب يجمع بين أدب الرحلات ، والتحليل السياسى والاجتماعى برؤية مصرية .

رجب البنا



دار المعارف

٠١٩٢٩٣/٠١

Bibliotheca Alexandrina
07022248